ميشيل عفلق

في
سَبيل البَعث

الكتابات السياسية الكاملة

الجزء الاول

الكتابات السياسية الكاملة

الجزء الاول

الباب الثالث
البعث العربي والانقلاب

الباب الرابع
الرسالة العربية الخالدة

الباب الخامس
في القومية العربية

الباب السادس
حول وحدة النضال العربي

الباب السابع
في الاشتراكية العربية

لمحة من حياة المؤسس
الأستاذ ميشيل عفلق، الأمين العام
لحزب البعث العربي الاشتراكي

ولد الرفيق ميشيل عفلق في التاسع من كانون الثاني سنة ١٩١٠ ، في دمشق ، من عائلة ، كانت فيها أسرة والده يوسف عفلق فرعاً من أسرة ابو عسلة من راشيا الوادي في البقاع . وكانت أمه السيدة رسمية تنتسب الى أسرة زيدان من حمص .

وفي هذا البيت من حي الميدان المعروف من احياء دمشق القديمة ، نشأ الرفيق ميشيل عفلق . وكانت أسرته جزءاً صميماً من هذا الحي المناضل العريق الذي كان معقل الوطنية والعروبة ومنبت الثورات الوطنية . فقد بدأت الثورة السورية منه عام ١٩٢٥ ، وكانت له مشاركة في كل ثورات فلسطين .

في هذه البيئة الوطنية العربية تفتحت عينا الرفيق ميشيل عفلق على صور الابتهاج بأول حكم استقلالي عربي عام ١٩١٨ بقيادة فيصل بن الحسين ، ثم على صدمة الاحتلال الفرنسي ، وعلى مشاركة أهل حي الميدان الواسعة في معركة ميسلون لمواجهة جيش الاحتلال الذي قوض استقلال سورية عام ١٩٢٠ .

كانت القراءآت والمطالعات الاولى للرفيق ميشيل عفلق تتفاعل مع معاناة هذه البيئة الوطنية العربية التي نشأ فيها . وكان لخاله الدكتور شكري زيدان أثر كبير في توجيهها . فقد تركزت تلك القراءات حول الأدب والتاريخ العربيين ، وحول الشعر الوطني وادب المهجر ، والاطلاع على حياة الرسول العربي من خلال ابطال كارلايل ، وكذلك على بعض الكتابات العلمية والاجتماعية لاسماعيل مظهر والشمّيل . . كما شملت مطالعاته الادبية والفكرية ، منذ وقت مبكر لزوميات ابي العلاء وديوان المتنبّي ، وروايات جرجي زيدان عن التاريخ العربي الاسلامي . . وكان لذلك كله

أثر في تنمية الوعي الوطني والقومي وتعميقه لدى الرفيق ميشيل عفلق . لذلك جاءت احداث الثورة السورية المسلحة عام ١٩٢٥ ، ومعايشته اليومية لأجوائها وأخبارها، عاملاً مهماً جديداً في تطوير ذلك الوعي ، وبخاصة عندما تزامنت معها احداث ثورة عربية اخرى في الريف المغربي ، على المستعمر الفرنسي نفسه ، وعندما اضطرت فرنسا، في النهاية، الى اتباع سياسة المفاوضة، تجمع الوطنيون في حزب عرف **بالكتلة الوطنية** ، واشتركوا في اول مجلس تأسيسي ، وفي وضع دستور ١٩٢٨ ، وكان طبيعيا ان تجد الاسرة نفسها ضمن هذا التكتل الوطني الجديد، الذي اخذ على عاتقه يومذاك قيادة النضال السياسي ، ومشاركة عميدها يوسف عفلق في نشاطاته، وكان ابنه ميشيل هو ايضاً مؤيداً لهذا التكتل وثبت على موقفه هذا رغم كل التقلبات السياسية حتى انتهاء المرحلة الثانوية من الدراسة وسفره لمواصلة دراسته في الغرب .

سافر ميشيل عفلق الى باريس ، وهو في الثامنة عشرة من عمره ، للدراسة في كلية آداب السوربون والحصول على الشهادة الأولية الجامعية منها في حقل التاريخ ، وهناك انخرط في ممارسة النشاط الطلابي مرة واحدة ، فانضم الى جمعيتين هما **الجمعية العربية السورية و جمعية الثقافة العربية** ، وكانت الجمعية الأولى سياسية تطالب بالاستقلال والدفاع عن قضية فلسطين وتدعو الى الوحدة العربية الشاملة، بينما كان عمل الجمعية الاخرى ثقافيا يعتمد اسلوب التثقيف بالقاء المحاضرات التي تتناول اعمال الأدباء العرب القدامى ، والتعريف بالأدب والفكر العربي ، كما تهدف من خلال نشاطاتها هذه ـ الى تذكير العرب انفسهم بأنهم ابناء ثقافة وحضارة واحدة .

درس الرفيق ميشيل عفلق في باريس التاريخ دراسة منهجية بوصفه موضوع تخصصه ، ولكنه لم يحصر قراءآته في هذا النطاق وحده ، وانما انهمك في الاطلاع على اعمال ابرز المفكرين الاوربيين من معاصرين ، ومن ابناء القرن التاسع عشر، امثال نيتشه ، وماركس ، ودستويفسكي وتولستوي وبيرغسون ، واناتول فرانس ، واندريه جيد . ومع أنه شغف بآراء اولئك الكتاب وبأساليبهم الا انه لم ينس أمته في تاريخها وحضارتها وخصائصها وفي واقعها ومشكلاتها وما تعانيه من استعمار وتخلف

وأستغلال، فانبرى يدرس الماضي بعمق وروية، ويحلل الحاضر بتناقضاته وصراعاته، ليستشرف ـ من بعد ذلك ـ المستقبل بما يخبئه من دور متميز لهذه الامة في سياسة العالم وحضارته.

وفي باريس، حيث يلتقي الطلبة من معظم اقطار العروبة، كانت محاوراته مع الطلبة العرب، وبخاصة المغاربة منهم، تعزز لديه قناعته بوحدة مشكلات ومصير الاقطار العربية، وتؤكد له، ان مؤامرة واسعة ومحبوكة الاطراف كالتي يتعرض لها الوطن العربي، لا بد ان تقابلها ارادة موحدة لتحبطها وترد عليها، فلا فائدة اذن من تنظيمات محلية تظهر هنا وهناك، مهما رفعت من دعاوى وشعارات، وانما ينبغي ان يكون ثمة تنظيم واحد بقيادة واحدة، وعقيدة واضحة، ينتظم العمل السياسي في الوطن العربي كله، فيناضل من أجل ان تكون الوحدة العربية بديلا عن حالة التجزئة القائمة ومن أجل ان تكون الحرية بديلا للاستبداد والاستعمار، ومن أجل اشتراكية انسانية تكون بديلا للرجعية والاقطاع.

وقد وجدت هذه الافكار استجابة لدى بعض زملاء ميشيل عفلق وأصدقائه وبخاصة صلاح الدين البيطار، الذي كان يدرس الفيزياء آنذاك، فتعاهد الشابان على العمل معاً من اجل القضية الواحدة، وعلى ان يهبا حياتهما عند عودتهما الى الوطن، الى ذلك الهدف السامي النبيل.

عاد الاستاذ ميشيل عفلق مع زميله الى سورية عام ١٩٣٣، ليعينّا في ثانوية واحدة، هي مدرسة **التجهيز الاولى** بدمشق، وكانت اكبر مدارس المدينة واهمها. فدرَّس هو مادة التاريخ والاجتماعيات، بينما درّس البيطار الفيزياء والفلك، وشرعا بنشر بعض الافكار الأساسية التي ستصبح ـ فيما بعد ـ من طروحات الحزب الاولى.

ومع ان التوجهات الادبية كانت واضحة وواعدة لدى الاستاذ عفلق اذ نشر عدداً من القصص القصيرة والقصائد وجد فيها النقاد مستوى جديدا للابداع الذي كان سائداً في تلك المرحلة. فانه مالبث ان انصرف عن تلك التوجهات بسبب انهماكه في العمل السياسي وتكريسه جُلَّ وقته للكتابات التي تدور حول الوحدة العربية، والقومية العربية ورسالة الامة وشخصيتها واستعدادها لدخول مرحلة ثورية تحررية

أصيلة وعميقة ذات افاق حضارية وانسانية .

أخذت هذه الافكار تستقطب حولها عددا من الشباب القوميين المتحمسين من طلبة المدارس والجامعات الذين انتظمهم موقف قومي واحد، وعقيدة ثورية جديدة، الّا ان التجمع لم يتحول الى جماعة سياسية او حركة الا بعد ان استُكْمِلَت الشروط الموضوعية لمثل هذا العمل، في بداية الاربعينات، فقام مع زميله البَيطار بتكوين اول جماعة سياسية منظمة بأسم **الاحياء العربي** وصدر بيانها الاول في شباط ١٩٤١، وما لبثت هذه الجماعة ان أكدت قوميتها واختلافها عن سائر التنظيمات السورية القطرية، عندما اعلنت تأييدها لانتفاضة العراق التحررية في مايو ايار سنة ١٩٤١، وأسست ماعرف باسم **حركة نصرة العراق** وانخرط فيها كل اعضاء الجماعة الفتية فضلا عن المئات من الشباب القومي المتحمس. ومنذ حزيران ١٩٤٣ اصبحت بيانات الحركة تحمل اسم **البعث العربي**.

واستفاد هذا التنظيم الجديد من مناسبة الانتخابات العامة في سورية في تموز ١٩٤٣، ليعلن عن مبادئه الاساسية ويهيء افكار الشعب لدخول مرحلة جديدة من النضال الثوري العربي. ورشح الاستاذ ميشيل عفلق نفسه في بيان حمل اول واقدم شعارات الحزب: امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة، وكان الاستاذان ميشيل وصلاح قد استقالا من مهنة التدريس قبل ذلك بعام ليتفرغا للعمل الحزبي، وافتتحا اول مكتب للحزب بدمشق سنة ١٩٤٥، وفي هذا التاريخ تمت اول حفلة قسم في حياة الحزب ولم يكن عدد اعضائه يومذاك يتجاوز الاربعمائة. وجرى تنظيم الحزب عسكريا في اثناء قصف الفرنسيين دمشق، في ذلك العام، وفي تموز ١٩٤٦، اصدرا جريدة البعث اليومية، وفي نيسان ١٩٤٧، افتتح الرفيق ميشيل عفلق المؤتمر التأسيسي الاول للحزب، وفيه أُقِرَّ دستور الحزب ونظامه الداخلي، وانتُخِبَ فيه عميدا (**امينا عاما**)، ثم شغل هذه المسؤولية حتى الان، **عدا سنوات معدودات من ١٩٦٥، الى ١٩٦٨، والتي دبرت خلالها ونفذت، مؤامرة ٢٣ شباط ١٩٦٦**، ورشحه الحزب لدخول الانتخابات البرلمانية سنة ١٩٤٧، الا ان تآمر الفئة الحاكمة حال دون فوزه فيها. وفي نيسان ١٩٤٨، قاد هو وزميله البيطار، مجموعات

المتطـوعيين البعثيين في حرب فلسطين. وبعـد عودتـه من فلسطين، تابـع نشـاطـه السياسي والفكري، فاعتقل في ايلول ١٩٤٨، وحكم عليه بالسجن ستة اشهر. كما ناضـل مع رفـاقـه ضد الدكتاتورية العسكرية، واعتقل مع عدد كبير من رفاقه البعثيين وقادة الاحزاب الوطنية حتى سقوطها عام ١٩٥٤.

وفي الفتـرة الـواقعـة بين ١٩٥٥ و١٩٥٨، كان ابـرز الـداعين الى وحـدة سورية ومصـر، بمـا بذل من جهـود فكرية وسياسية قوية. وفور قيام ثورة ١٤ تموز في العراق سنة ١٩٥٨، زار الاستاذ ميشيل عفلق بغداد معلنا تأييد الحزب للثورة واسناده اياها. وخـلال احـداث عهـد الانفصـال ١٩٦١ ـ ١٩٦٣، تعـرض الاستـاذ ميشيـل الى الاضطهاد، حتى اذا عاد الحزب الى المشاركة في الحكم في سورية سنة ١٩٦٣، عمـد في كتـاباته وخطبه ومحاوراته الى تقييم التجارب السابقة واستخلاص الدروس التي من شأنها ان تعمق تجربة الحزب وتقيها الاخطاء والاخطار الداخلية والخارجية المحتملة، احساسا منّه بخطر التكتل العسكري الذي اخذ يفرض نفسه على الحياة الحزبية وعلى الاوضاع السياسية العامة في سورية آنذاك.

وكان هذا الاحساس صادقا وصائبا. ففي شباط عام ١٩٦٦، اطاح انقلاب نظمه ذلـك التكتـل العسكـري المشبـوه المتستـر باسم الحـزب، بقيـادة الحزب الشرعية نفسهـا، فاضطـر الـرفيق ميشيـل عفلق الى الاختفـاء عن اعين رجـال الانقلاب مدة شهـرين، حتى تمكن من مغـادرة القطر الى لبنان. ورغم تنقله المستمر وتغيير اماكن اقامته، فأنه واصل النضال ومعه رفاقه البعثيون الاصلاء الاوفياء، لكي يصمد الحزب في وجـه المؤامـرات العـديدة التي استهدفته وحاولت تشويه فكرته ونضاله. ولم تطل تلك الفترة، فقد فجر الحزب **ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز ١٩٦٨، في العراق**، مما عزز خط الحـزب التـاريخي الاصيـل، وكـان الاستـاذ ميشيل على صلة وثيقة برفاقه في بغداد يزورهم بين الحين والاخـر، فيطلع على نشـاطاتهم وانجازاتهم العديدة في مختلف القطاعات، ويلقي الكثير من الخطب والكلمات التي تحتوي على افكاره وتجربته الطويلة.

ومنذ اواسط السبعينات، ترك مقره في بيروت واستقر نهائيا في العراق حيث مقر

القيـادة القـوميـة للحـزب، وحيث تصاغ التجربة البعثية بابهى صورة، مبشرة بعصر عربي جديد تتحقق فيه الاهداف التي طالما ناضل هوورفاقه من اجلها، في الوحدة والحرية والاشتراكية .

الباب الأول

أفكار وتأملات

عهد البطولة

الآن تنطوي صفحة من تاريخ نهضتنا العربية وصفحة جديدة تبدأ، تنطوي صفحة الضعفاء الذين يقابلون مصائب الوطن بالبكاء وبأن يقولوا «لا حول ولا قوة الا بالله»، صفحة النفعيين الذين ملأوا جيوبهم ثم قالوا: (لا داعي للعجلة، كل شيء يتم بالتطور البطيء)، صفحة الجبناء الذين يعترفون بفساد المجتمع اذا ما خلوا لأنفسهم حتى اذا خرجوا إلى الطريق كانوا أول من يطأطىء رأسه لهذه المفاسد . . .

وتبدأ صفحة جديدة، صفحة الذين يجابهون المعضلات العامة ببرودة العقل ولهيب الايمان، ويجاهرون بأفكارهم ولو وقف ضدهم أهل الارض جميعا، ويسيرون في الحياة عراة النفوس. هؤلاء هم الذين يفتتحون عهد البطولة.

عهد البطولة وأكاد أقول عهد الطفولة، لان النشىء الذي يتأهب اليوم لدخول هذه المعركة له صدق الاطفال وصراحتهم، فهو لايفهم ما يسمونه سياسة، ولا يصدق ان الحق يحتاج إلى براقع، والقضية العادلة إلى تكتم وجمجمة.

حياة هؤلاء ستكون خطا واضحا مستقيما لا فرق بين باطنها وظاهرها ولا تناقض بين يومها وأمسها فلا يقال عن أحدهم «نعم. . انه سارق ولكنه يخدم وطنه» ولا يقودون في الصباح مظاهرة ويأكلون في المساء على مائدة الظالمين. الصلابة في الرأي صفة من أجل صفاتهم، فلا يقبلون في عقيدتهم هوادة، ولا يعرفون المسايرة. فاذا رأوا الحق في جهة عادوا من أجله كل الجهات الاخرى، وبدلا من أن يسعوا لارضاء كل الناس اغضبوا كل من يعتقدون بخطئه وفساده. انهم قساة على أنفسهم، قساة على غيرهم، اذا اكتشفوا في فكرهم خطأ رجعوا عنه غير هيابين ولا خجلين، لان غايتهم الحقيقة لا أنفسهم. واذا تبينوا الحق في مكان انكر من أجله الابن اباه وهجر الصديق صديقه.

هؤلاء اليوم قليلون وربما أصبحوا في الغد أقل اذا اصطدموا بالمصاعب التي تنتظرهم، ورأوا الويلات تنزل بهم واللعنات تنصب عليهم. ولكن المستقبل لهم لانهم يفصحون عن مشاعر ملايين الناس الذين قص الظلم ألسنتهم.

ان الاسلحة التي تهدد هذا النشىء كثيرة مختلفة، وثمة سلاح أمضى من السجن والتعذيب، هو سلاح البرودة التي يقابله بها بعض مواطنيه، والابتسامة الساخرة التي يجيبون بها على ندائه وحماسته. انهم سيقولون «دعوا هؤلاء الأطفال يلعبون برهة من الزمان ويحاولون تناول القمر بأيديهم القصيرة، ان الواقع كفيل بارجاعهم إلى العقل»، ولكن واجب هذا النشىء ان تزيده برودة مواطنيه غيرة وايمانا، وان يذكر ان بقاء بلاده حتى الان في تأخرها المعيب هو من جراء هذه الابتسامة الساخرة التي يتسلح بها الضعفاء كلما دعاهم الواجب واستيقظ في ضمائرهم صوت الحق.

ليست البطولة دائما في المهاجمة، بل قد تكون كذلك في الصبر. والثبات، وليست الشجاعة في محاربة العدو الظاهري فحسب، بل انما هي ايضا ـ وعلى الاخص ـ محاربة العدو الباطني اي ان يحارب المرء في نفسه اليأس والفتور وحب الراحة.

في هذا العهد الجديد الذي بدأت تباشير صبحه تختلج في الافق، نريد أن تكون النهضة والاستيقاظ في كل عواطفنا الشريفة ومواهبنا العالية لا ان تنحصر اليقظة في عاطفة واحدة ضيقة. لم يعد يرضينا أن نسمع ان ذلك الشخص وطني اذا لم يكن في الوقت نفسه انسانيا، عفيف النفس، كريم الخلق، فالعاطفة الوطنية اذا لم تكن مصحوبة بهذه الصفات قد لاتكون غير مجرد كره للاجنبي.

وهذه ليست غايتنا. لسنا نطلب الاستقلال لننعزل عن بقية الشعوب، ونقيم سدا بيننا وبين الحضارة الانسانية. لسنا نصبو إلى الحرية لنعيش في الفوضى، أو نرجع إلى ظلام القرون الوسطى. اننا نطلب الاستقلال والحرية لانهما حق وعدل قبل كل شيء ولانهما وسيلة لاطلاق مواهبنا العالية وقوانا المبدعة، كيما نحقق على هذه البقعة من الارض التي هي بلادنا غايتنا وغاية كل انسان ـ الانسانية الكاملة.

تشرين الاول ١٩٣٥

ثروة الحياة

سأحاول في هذه الكلمة ان أزيل شيئا من سوء التفاهم الذي لا يزال يحول بين الشباب الثوري وبين العدد الاكبر من الشباب العربي اذا كان الشباب في هذه البلاد لم يأت الينا بعد بالسرعة واللهفة اللتين نريدهما فما الذنب كله يلقى عليه. اننا حتى الان لم نعرف ان نفصح عن أفكارنا بوضوح ولا أجهدنا أنفسنا الجهد الكافي لكي يكون كلامنا مفهوما لدى الاخرين.

نعم اننا ثوريون ندعو لشكل جديد من أشكال المجتمع، نعتقد فيه الخير وتحقيق السعادة. ولكن ألا يحق للذين لم يهتدوا بعد إلى ما اهتدينا اليه ولا اطلعوا على الذي اطلعنا عليه ان يسألوا: «وما هي فضائل هذا الجديد الذي تقترحونه علينا، اننا مستاؤون من القديم، ولكن أيكفي ذلك ان يورطنا في جديد مجهول؟».

انهم على صواب، وليت هذا الجديد كان مجهولا عندهم، اذن لاكتفينا بتعريفه اليهم، ولكنهم يعرفونه معرفة خاطئة، مشبوهة، وواجبنا يقضي بأن نمحو هذه الشبهات عن وجه الحقيقة.

ومن حسن الحظ اننا لسنا رجال سياسة يختارون الشوارع والحفلات لينشروا دعايتهم، ويخاطبون العقل القاصر والشعور السطحي الفائر.

ان أحلامنا أصعب وأطماعنا أبعد. لذلك اخترنا الكتابة طريقا لبث أفكارنا وهي على عكس الخطابة تتوجه إلى العقل الهادىء الرصين والعاطفة العميقة الصادقة، هذا ما يضمن لنا انتباه الشبيبة المثقفة المتحفزة لفهم الحقيقة واعتناقها، اذا آنستها في جهة ما. ولكننا لم نعمل حتى الان الا على تخييب ظنها فينا. وهل يروي ظمأ هذه الشبيبة ان نقتصر على لعن المجتمع البرجوازي والاشادة بذكر الفردوس الارضي الذي نحلم به حلم المؤمن بأطياف الجنة؟

لو سئلت عن أسباب ميلي للاشتراكية لأجبت: ان ما أطمع به منها ليس زيادة في ثروة المعامل بل في ثروة الحياة، وليس همي ان يتساوى الناس في توزيع الطعام بقدر ما يهمني ان يتاح لكل فرد اطلاق مواهبه وقواه. وقد لايرى العامل الرازح تحت

بؤسه في الاشتراكية الا وعدا بأن يأخذ ما هو محروم منه، ولكني لا انظر اليها انا الا كعطاء دائم سخي، بأن نعطي الحياة اضعاف ما بذلته لنا.

حتى اليوم نظر الناس إلى الحياة نظرة الكافر الجاحد، لانظرة المؤمن الواثق.

هم يستكثرون منها أقل شيء لانهم لم ينتظروا منها شيئا. على أنها أغنى مما يظنون.

لست أصدق ان القرن الكامل من السنين يعجز عن انتاج أكثر من فرد او فردين او عشرة افراد يليق ان يمثلوا الانسانية، وان نقول في الواحد منهم هذا هو الانسان.

لقد طال الأمد على النّاس وهم يعتقدون الحياة فرنا وحشيا هائلا توقد فيه الملايين منهم لاستخراج حبة من الذهب. وما أحراهم ان ينظروا اليها كحقل واسع مديد تتفتح فيه الورود والازهار من كل جانب بشتى الالوان والاشكال.

كان العرب القدماء يعتقدون ان نفس القتيل الذي لم يؤخذ بثأره تتحول بعد موته إلى طائر يحوم حول القبر صارخا متوجعا من عطشه المحرق. وكأن هذه حال ألوف النفوس توارى كل يوم في التراب قبل ان تشفي من الحياة ظمأها، لأن أوضاع المجتمع حولتها إلى حيوانات ذليلة تقضي العمر خافضة الرأس إلى الارض تبحث عن لقمتها، بدلا من أن تكون مخلوقات بشرية مشرئبة نحو النور تمنح أحسن ما عندها.

انني أفكر لكل الذين يتململون في زوايا القبور من ثقل الآمال التي لم يتح لهم المجتمع تحقيقها في الحياة، ومن كنوز الخير والحب والحماسة التي بقيت كامنة في قلوبهم وما تسنىٰ لهم اظهارها واستخدامها.

انهم أشبه بشجرة مورقة نقطعها ونلقيها في النار فتزهر وهي تحترق.

اذا كنت أدعو إلى الاشتراكية فلكي لاتحرم الحياة من مواهب هذه النفوس وقواها الدفينة وجهودها الحرة الخصبة. ما نظرت إلى الاشتراكية في يوم من الايام كواسطة لاشباع الجياع وإلباس العراة فحسب، ولايهمني الجائع لمجرد كونه جائعا، بل للممكنات الموجودة فيه، التي يحول الجوع دون ظهورها، ولا أرى الاكل غاية له، بل سبيلا ليتحرر من الضرورات الحيوانية وينصرف إلى القيام بوظيفته

الانسانية.

ان الذي يظن الاشتراكية دينا للشفقة مخطىء أيما خطأ، وما نحن رهبان نلوذ بالرحمة لنطمئن وجدانا أقلقه مرأى البؤس والشقاء حتى نعظم في عيون أنفسنا وننام هادئي البال. اننا في دفاعنا عن الجماهير المحرومة لا نمنحهم صدقة بل نطلب لهم حقا، ولا يهمنا تخفيف البؤس اذا لم يكن ذلك لزيادة ثروة الحياة.

اذا سئلت عن تعريف للاشتراكية فلن أنشده في كتب ماركس ولينين وانما أجيب: «انها دين الحياة، وظفر الحياة على الموت.

فهي بفتحها باب العمل أمام الجميع، وسماحها لكل مواهب البشر وفضائلهم ان تتفتح وتنطلق وتستخدم، تحفظ ملك الحياة للحياة، ولا تبقي للموت الا اللحم الجاف والعظام النخرة».

عام ١٩٣٦

الايمان

ان الاساس الخالد لعملنا، الاساس الذي لايتبدل ولا يستغنى عنه هو (الايمان). والتفاؤل مظهر بسيط من مظاهر الايمان. هذه نظرة قد يعتبرها بعضهم غيبية، ولكن الحياة برمتها تقوم عليها منذ ان وجدت الحياة الانسانية. واذا طرحت هذه النظرة جانبا لايبقى تاريخ ولا يبقى انسان.

ولو اعطونا ملك الارض، ولو اعطونا اليوم او في أي وقت الدولة العربية التي تتحقق فيها أهداف البعث وقالوا ان الايمان سيكون مفقودا من حياة البشر الذين يكونون هذه الدولة المثلى، لقلنا اننا نفضل ان نبقى أمة مجزأة وامة مستعمرة ومستغلة، مظلومة ومستعبدة حتى نصل من خلال الآلام، من خلال الصراع بيننا وبين قدرنا، بيننا وبين أنفسنا، الى استكشاف حقيقتنا الانسانية.

هذا الايمان لايستطيع أحد ان يفخر بأنه أوجده وخلقه، هو في أعماق كل انسان، وفي أعماق كل انسان عربي. وقد شاء قدر امتنا وتراثها وقيمها الروحية وحقيقتها الانسانية ان يعبر هذا الايمان عن نفسه بين مجموعة من الشباب، كانوا أبعد ما يكونون عن السياسة ورخص السياسة: سموا بالخياليين والمثاليين والاطفال ولكنهم في هذه المرحلة من حياة العرب، مثلوا على بعض أجزاء الارض العربية حقيقة النضال وقدسية النضال، ومثلوا شيئا أعمق من حقيقة وقدسية النضال، مثلوا التفاني والتجرد وانكار الذات والتواضع أمام الفكرة وامام صوت الحق وآلام الشعب.

هذا الايمان لم يقلل من شأنه أن تكون تعبيراته لم تبلغ بعد درجة النضج والوضوح اللازمين له، فثمة فرق أساسي بين المبدأ كروح، وبين المبدأ كذهن. فمبادىء الحزب كتعبيرات ذهنية هي بحاجة الى عمل طويل والى دراسة وبحث لكي ترتقي شيئا فشيئا وتفيد من دراسات الامم الاخرى، ومن نتائج البحث العلمي والتجربة الذاتية وتجربة الآخرين.

ان طريقنا طويلة وسوف يمر عليها افراد وأجيال لذلك يجب أن يعرف السائرون

على هذه الطريق كلمة السر التي تبقي على صحة الطريق واستقامته وأمانته وان ينقلها كل فرد لآخر، وكل جيل لآخر. وكلمة السر هذه ليست نظرية يبرهن عليها وليست دستورا رياضيا، ولكنها هي الميزة التي تميز الانسان في كل عصر وكل قطر. . . عفويته التي تميز بين الصدق والكذب. فهذه الروح العفوية التي تغذيها التجارب ويصقلها الفكر والبحث، ولكن لاتوجدها التجارب ولا العلم ولا الفكر، هذا هو المقياس وكلمة السر.

عام ١٩٤٣

المثالية الموهومة

كثيرا ما تقرن المثالية باسم البعث العربي وبأعضائه. تارة تقذف على سبيل النقد ويراد فيها ان البعثيين غير واقعيين، وتارة تقال في معرض المدح. ولكن أشك كثيرا في أن الذين يمدحوننا بهذا النعت يدركون تماما ما نفهم نحن من المثالية.

مثاليتنا هي هذه الروح المتفائلة الواثقة من نفسها ومن الامة والمستقبل. هذه الروح المؤمنة التي تعتقد ان المبادىء السامية لم توجد للتظرف بالكلام عنها، ولم توجد لتكتب على الورق، وانما هي الحياة بعينها، وأنها تحققت في كثير من مراحل التاريخ عندما وجد المؤمنون العاملون الصادقون، وانها يمكن ان تتحقق من جديد. هذه المثالية هي في ان نعيش في صميم هذا الوسط الذي نرى مفاسده في كل ناحية والذي صممنا على محاربته والظفر عليه، دون أن نفقد أملنا بأن يخرج من صميم هذا الوسط الفاسد نور الحياة العربية.

انها في ان نكون على اتصال دائم مع هذا المجتمع، وعلى اتصال أشد وأوثق مع مبادئنا وروح أمتنا، عندها نكون مثاليين وواقعيين في آن واحد.

أين هي المثالية الوهمية التي ينسبونها الينا ما دمنا نثبت يوما بعد يوم بأن هذه المبادىء هي حياة نابضة بالدم وانها تجند جنودا أحياء.

ان هذا الجيل يزداد يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة، فهل هذا وهم أم هو الحقيقة بعينها؟

عام ١٩٤٣

المثالية الواقعية

المثالي ليس نقيض الواقعي، لأن الواقعي ليس الذي يستسلم للواقع بل الذي يفهمه. وقد يفهمه ليماشيه ويستغله، او ليعلو عليه ويغيره. ولذلك يجوز ان يكون - وفي عرفنا يجب أن يكون - المثالي واقعيا كي يقدر على تحقيق مثله في العمل.

ولكن الواقعية السائدة، ليست سوى الاستسلام للواقع، أما بعامل الخوف والجبن، واما بباعث النفعية والاستغلال والاصح ان تسمى هذه الفئة بفئة المستسلمين والمنتفعين.

عندنا سياسيون، فيهم الشيوخ والكهول والشباب، ولكنهم مستسلمون ومنتفعون او مستسلمون لانهم منتفعون. دخل أكثرهم العمل العام دون فهم كلي للقضية القومية، ودون أن يتصوروها كلا، فضاعوا في الاجزاء، وعجزوا عن نفع القضية، فرأوا عندئذ ان لا بأس من الانتفاع بها.

وعندنا إلى جانب هؤلاء، جيل جديد، مرشح لان يكون قوميا، دفعته أخطاء السياسيين ومغالاتهم الى ان يعتبر ويفكر. وهذا الجيل لا يزال في دور النشوء والتهيؤ، لم يتسلم سلطة ولم يصل بعد الى مرحلة التحقيق، وسيبقى زمنا طويلا - اذا فهم حقيقة مهمته - في دور النضال.

والنضال يسمح له، بل يشترط عليه ان يكون متشددا في مطاليبه، دقيقاً في المحافظة على مبادئه، مبتعدا عن كل تساهل تقضي به السياسة ويبرره استعجال النجاح.

عام ١٩٤٣

الارضُ والسماء

لا مفر من هذا التعبير «الأرض والسماء» حتى بعد ان افرغ من محتواه الديني. وليس أقرب إلى الحقيقة من هذا التضاد بين عالمين: ماهو وقتي عارض فان، وما هو جوهري دائم. للعالم، للفنان، أرضه وسماؤه. الارض هي مطالب الجسم ولذات الحياة اليومية ومشاغلها. والسماء هي مطالب العقل والروح، ولذات الحياة العليا وواجباتها. هذه السماء لاتبلغ الا بتضحية الارض، وخسارة الارض على الارض معناها عذاب الجحيم. وفي هذا الجحيم ومن خلال لهيبه ترمق العين وتستشف أفياء الخلود.

لو كان الافراط في اللذة وطلب الرفاهية وحب متع الحياة هو الذي يبعد السماء عن الانسان لهان الامر، لان المفرطين قليلون، وشروط الافراط غير سهلة ولكن البلية ان أكبر خطر يعرض سماء الانسان الى الضياع، وأكبر حائل يقف بينه وبينها هو مطالب حياته المعتدلة وسعادته المشروعة، وكل ما تنزع اليه الطبيعة السليمة ويأمر به العقل وتوافق عليه الاخلاق النصيب المشروع من الراحة والرفاهية والحرية والحب والصداقة. ذلك لان السماء غير طبيعية ولا معقولة، ولان لها أخلاقها الخاصة.

للحياة قوانين، بينها وبين القوانين الطبيعية هذا الفرق الجوهري قوانين الطبيعة تستكشف مرة واحدة، وقوانين الحياة يجب على كل فرد أن يستكشفها في حياته من جديد.

من هذه القوانين: انه لا ربح بلا خسارة، ولاربح الّا على قدر الخسارة، الى حد ان الذي يقبل بأن يخسر كل شيء يستطيع وحده ان يأمل بالربح الاكبر.

أبعد الناس عن فهم الحياة، هم الذين يعتقدون بامكان التوفيق بين النقيضين باستطاعة المرء ان يربح من غير خسارة، ان يصعد الى السماء وقدماه لاصقتان بالارض. اذا صح ذلك فلان هذه السماء التي يقصدونها حقيرة الى حد ان المرء يتناولها وهو قاعد، كاذبة زائفة يربحها بخدع القمار.

وهناك وهمان يجب ان يبددا، الاول ان نحسب السماء تبلغ بلا مشقة، والثاني حسبان المشقة وحدها موصلة الى السماء، او انها هي السماء. الوهم الاول اشاعه غرور بعض الفنانين او ذهولهم، فقد كتموا كل العذاب الذي قاسوه حتى امتلكوا قياد فنهم، او ان عذوبة الفن لطفت من مرارة العمل الفني، وجمال القمة انساهم وعورة الطريق الذي سلكوه لبلوغها. صحيح انه لايبلغ السماء الا من وهب جناحان وقدرت له مواهب أساسية، ولكن ما لايقل عن ذلك صحة ان هذه المواهب لا تظهر الا اذا أصغى المرء الى ندائها، وصم أذنيه عن جلبة العالم الخارجي ومغرياته وسهولاته، ووزن المسؤلية التي تفرضها وقبل بها، وجرد لها من قوة الارادة ما تقتضي. الجناحان يطيران بك اذا رميت كثيرا من أحمالك حتى يستطيعا حملك، واذا رضيت بكثير من الضغط او المقاومة اللازمة لحملهما، المصير العظيم لايعني انك ستكون عظيما الا اذا تحملت عبء العظمة.

والوهم الثاني هو ان نحسب مجرد تحمل المشقة الكبيرة دليلا على المصير الكبير، وفي هذا ما يضل عن الغاية ويغري باتخاذ الوسيلة بدلا منها. فبعد ان كانت وعورة الطريق واسطة لبلوغ القمة تصبح هي الشغل الشاغل، ويستحيل العمل رياضة وبهلوانية، كل النفوس التي تزهد للزهد، وتخاطر حبا بالخطر وتنزوي ارتياحا الى الانزواء، هي نفوس بهلوانية لا مثالية. كذلك الذين يحاكمون هذه المحاكمة: اذا كانت السماء وعرة الطريق، فكل طريق وعرة توصل اليها. تلك هي العقول القاصرة.

ان المشقة محتومة ولكنها ليست مرغوبة، ومن الواجب التغلب عليها حتى تخف وتختفي. عندئذ يصبح الذي يضحي بالارض دون ان يشعر بألم التضحية عائشا في السماء، او ان الارض لديه تستحيل سماء.

عام ١٩٤٤

المستقبل

ليس بيننا وبين المستقبل الذي يتحدث عنه البعث العربي والذي هو موضوع عملنا ونضالنا زمن حسابي يقدر بالاشهر والسنين. انه زمان نفسي نستطيع أن نحققه منذ الان وان نملكه فنملك به الخلود.

ليس المستقبل هو الزمان الذي سيأتي، بل المستوى النفسي والفكري الذي علينا أن نصل اليه في الوقت الحاضر.

لسنا بحاجة الى سنين ولا الى أشهر، فقد يصل المرء الى هذا المستقبل في ثانية واحدة، عندما يدرك الفرد ذاته المثالية ويعي ويصمم.

فالمستقبل الذي يمثله البعثي هو الصورة عن حياة أمتنا عندما يتحقق البعث، اي عندما يتحقق الانقلاب العربي. انه صورة الامة العربية في حياتها السليمة المقبلة، فعلى هذه الصورة ان تتحقق منذ الان في البعث العربي حتى ينجح.

ان بيدنا أسلحة كثيرة وقوى كبيرة هي قوة المبادىء التي نعمل لها ونحيا من أجلها، وقوة التنظيم، ولكن ثمة قوة تفوق كل القوى الاخرى هي ان نجسم للامة مستقبلها، وأن نحقق هذا المستقبل منذ الان وان نحياه بيننا.

فلن نقول للعرب انكم ستصلون الى الحياة الموحدة الحرة الاشتراكية، وبكلمة واحدة، للحياة البعثية، في المستقبل عندما يتحقق البعث العربي، وانما نقول لهم: هذه هي صورتها منذ الآن. هذه الحياة التي تزول فيها الفروق الاجتماعية والحواجز الاقليمية والنعرات الطائفية، وكل أثر للعبودية والمصلحة الخاصة والجهل والتقليد. عندها يأتي المستقبل الينا، وينمو فينا ولا يعود شيئا منفصلا وخارجا عنا.

عام ١٩٥٠

خبرة الشيوخ
واندفاعات الشباب

. . . لننظر[1] ما هي حقيقة هذه النظرة (خبرة الشيوخ واندفاعات الشباب) وما نصيبها من الصدق وبالتالي ما هو أثرها في حياتنا وانشاء مستقبلنا؟ ينظرون الى الحياة نظرة سطحية تأخذ بالمظهر، فيرون ان الانسان يبدأ صغيرا في جسمه وفي عقله فيرون ان الصغر هو النقص وأن الكبر هو الكمال. ولكن اذا تعمقنا قليلا فاننا واجدون ان الانسان في سن الشباب يحتوي على أعلى درجة وأكبر طاقة من الفضائل الحية، وأنه ان كان لايستطيع التعبير عنها باللفظ والكمال وبالحكمة والرصانة فما ذلك الا لأنها فضائل حية متقدة لاتترك لها حيويتها مجالا لان تصاغ في الكلام، الكلام الحكيم والافكار الرصينة، ولا تترك لها مجالا ان تنظر الى الوراء وتراقب وتشاهد بدل أن تندفع وتعمل، بدل ان تقرر، بدل أن تخلق وتبدع. فما يراه الجيل القديم وذوو النفوس الضعيفة نقصا في الشباب ليس الا الكمال ذاته، وما يحسبونه كمالا في الشيخوخة ليس الا نقصا: فالشاب تؤهله الحياة لان يبقى متحررا من شتى المؤثرات النفعية الجبانة الانهزامية لان الحياة تأبى عليه كل ذلك وعندما يبدأ يجتاز سن الشباب ويبدأ الوسط يعمل فيه تأثيرا وتخديرا ليهبط به الى مستوى العجز والخنوع والتشاؤم وليكبله بشتى القيود الاصطلاحية المصطنعة وليجعل منه حيوانا اليفا، عندها يدخلون في روعه انه بدأ يكتمل ويختمر، وانه زاد عما قبل واكتسب شيئا جديدا وهو بالواقع بدأت خسارته وبدأت حيويته ينال منها الضعف وبدأت عفويته تؤسر وبدأ ينبوع نفسه المتدفق تلقى فوقه الاحجار والصخور حتى ينضب ويجف.

فاذا نظرنا أيها الاخوان الى حالة الامة العربية في هذا الظرف الخطير. . . اذا عرفنا ان شر ما تبتلى به امتنا هو النفعية والجبن والتخاذل استطعنا ان نستنتج بسهولة

---

(١) ألقى هذا الحديث في حفلة اقامها الطلاب الثانويون في دمشق للتعارف بتاريخ ٧ نيسان ١٩٥٥.

أن صفات الشباب ومميزات الشباب هي وحدها المتلائمة مع حاجات أمتنا المتحفزة للبعث والنهوض

وبين الشباب وبين أمتنا موعد وتلاق وتوافق وانسجام. وما يسمونه خيالية الشباب وما يسمونه طيشا وقصراً في النظر وعدم تقدير للعواقب، هو الحدس الصافي والحس السليم والفهم العميق لمبادىء حركة الانقاذ في حياة امتنا.

فاذا أضفنا الى سن الشباب صفة الثقافة والوعي اهتدينا الى الشرطين الاساسيين اللذين لا غنى عنهما لحركة الانقاذ والخلاص:

١ ـ شرط الوعي والثقافة.

٢ ـ شرط الشباب.

ولكن في مجتمع كمجتمعنا ما زال يتحكم به الاجنبي تارة بصراحة كما في بعض أجزاء أرضنا وتارة بصورة مستورة من وراء الطبقات النفعية المتآمرة على حياة شعبنا، وما دام مجتمعنا مسيرا لمصلحة الاستعمار والطبقات المستثمرة، فمن العبث أن ننتظر منهما لرسالة الشباب ورسالة الثقافة نفعا يصدر عن مؤسسات المجتمع الرسمية وعن المدارس بصورة خاصة. فهذا المجتمع الذي يسيطر على تنشئة اجيالنا يزيف رسالة الشباب ورسالة الثقافة، ويحاول ان يجعل من الشباب شيوخا وهم في ميعة الصبا ويحاول أن يجعل من الثقافة أداة خمول بدل ان تكون أداة ثورية لتعيد الينا الحياة العربية السليمة الصافية . . .

لذلك لابد أن يضطلع بهذه المهمة من هم متحررون من آثار المجتمع وسيطرة الحكومات والمؤسسات الرسمية ليعيدوا الى الشباب ثقته بنفسه وليحملوه مسؤوليته بيده. فكانت مهمة الاحزاب الانقلابية والحركات الشعبية، هي أن تنشىء مدرسة صريحة سليمة يسمع فيها الشباب نداء روحهم، ليؤدوا رسالتهم.

أيها الاخوان: في المجتمعات السليمة تكون مهمة التثقيف ان يحافظ الشباب على شباب نفوسهم وعلى نضارتها وعلى حرارة عاطفتهم وعلى عفوية اندفاعاتهم حتى بعد ان يجتازوا سن الشباب. فالمجتمع السليم هو الذي يمد في عمر الشباب، يمد في أجل الشباب. اننا نشاهد آثار ذلك في بعض الامم الراقية وكيف

ان الشيوخ والكهول هم من القدرة على التجدد المستمر والابداع المستمر مما هيأ لمجتمعاتهم أن تقوى على الفناء وأن تتكيف مع نواميس الحياة وان تستمر في الصعود.

فميزة المجتمع السليم هي انه يبقي على النزعة المثالية، يبقي على النظرة الحرة المنطلقة، وعلى روح الكفاح، هي انه يقضي على النظرة النفعية... يجدد فتوة النفس بشتى الوسائل، بالفن، والفكر، لكي يبقى الانسان جديرا بهذه التسمية ولكي تبقى انسانيته سليمة.

ولكن المجتمع المتأخر، المجتمع الذي يحتاج الى ثورة وانقلاب هو على العكس، يسعى لجعل شبابه كهولا وشيوخا متخلفين...

هذا ما نشاهده في مجتمعنا الحاضر... هذه المحاولة المجرمة التي تريد أن تقضي على اندفاعات الشباب التي هي أثمن كنز في امكانيات امتنا، فاذا وعى الشباب هذا القدر الجليل الذي يؤهلهم ان يمثلوا انتفاضة امتهم في هذه المرحلة وأن يستغلوا فضائل الحياة أبعد استغلال... ان ينشدوا الثقافة الحرة التي تربطهم بمصير أمتهم...

وأي حرية أوسع وأعظم من ان يربط الانسان نفسه بنهضة امته وثورتها.

عام ١٩٥٥



الباب الثاني

حركة البعث العربي



البعث العربي موقف ايجابي

ان الحركات التي تنشأ في مجتمع ما، اما ان تكون سطحية وقتية، وإما ان تكون جدية اصيلة، وكلا النوعين لابد أن يتأثر بظروف المكان والزمان المحيطة به؛ ولكن نوعية هذا التأثر بظروف الزمان والمكان هو الذي يعين نوع الحركة، فاذا تأثرت الحركة تأثراً منفعلاً سلبياً استنفد كل امكانياتها وقواها حتى غرقت في ظروفها، اعتبرناها من الحركات السطحية الآنية العابرة؛ واذا استطاعت الحركة ان تتأثر بالظروف المحيطة بها دون ان تغرق فيها بل احتفظت بالسيطرة عليها لتوجهها، كانت من الحركات الجدية الاصيلة.

اذا نظرنا الى يقظة العرب الحديثة، نجد ان الدور الاول الذي مرت به هذه اليقظة تنطبق عليه صفات التأثر المنفعل السلبي. فكل مظاهر اليقظة، سواء في السياسة او في الاجتماع أو في الفكر، انما هي رد فعل لما سبقها من حالة الجمود والانحطاط، فكأنها تقلد تقليداً حرفياً الحالة التي قامت لتنفيها وتتمرد عليها، وهذا امر طبيعي، اذ لابد أن تمر الامة في دور سلبي في بدء يقظتها وانقلابها، ولكن الشيء غير الطبيعي ان تستمر اليقظة في سلبيتها وأن تبقى رد فعل لما سبقها، وإنها اذا استمرت على هذا الحال، يغدو من المشروع ان نعتبرها يقظة مخفقة لاتحوي في نفسها بذور الحياة، إذ لا حياة مع السلبية.

واذا عددنا مختلف الحركات الوطنية التي قامت في الاقطار العربية جواباً على الاستعمار الاجنبي - والحركات الفكرية والاجتماعية التي قامت كجواب على امراض المجتمع العربي - (كالاقطاعية والطائفية والاقليمية والرجعية الفكرية وغير ذلك) وانعمنا النظر في هذه الحركات جميعاً، وجدنا صفة واحدة تجمع بينها على اختلافها وتباينها وهذه الصفة هي: السلبية.

ونقصد بالسلبية أنها لاتختلف في الجوهر عن الحالة التي قامت تلك الحركات لنقضها، فالحركات الوطنية تقلد الاستعمار واساليبه، والحركات الفكرية المتمردة الثائرة تقلد حالة الجمود في اطلاقها وفي تعصبها وفي شططها، والحركات الاجتماعية التي

ثارت على الوضع الاجتماعي والاقتصادي المتخلّف في البلاد العربية حملت بذور السلبية، إذ خرجت عن نطاق الامة التي تعمل لها، وشطت في أهدافها وغاياتها حتى خانت رسالتها والقصد من وجودها.

إن التأثر بالزمان والمكان واقع لا محالة، إنه شيء لا مفرّ منه ولا يمكن ان توجد حركة تستطيع التأثير في مجتمع ما دون ان تتأثر بهذا المجتمع نفسه، ولا وجود للحركات النظرية المجردة التي تعيش في الفضاء بين الارض والسماء لاتلامس الواقع ولاتتصل به.

اذن، لابد للحركة حتى تكون حية من أن تعيش في جو حي واقعي، وأن تفهم مختلف التيارات التي تعترك في مجتمعها. ولقد طرقنا مرات عدة في احاديث البعث العربي وكتاباته موضوع التوفيق بين حيوية الحركة وجوهريتها، كيف يمكن أن تكون الحركة جوهرية، أي تعنى بالجوهر الثابت من الامور، وتكون في الوقت نفسه حركة متجاوبة مع واقعها متصلة بزمانها.

إن الدور الاول من يقظتنا القومية يمثل هذه الناحية السلبية، ولكن لايجوز أن يستمر هذا الدور، فثمة وضع نفسي فكري للحركة الاصيلة لايمكن إلا أن يكون وضعاً ايجابياً. ذلك ان الحركة الاصيلة لايمكن أن تأتي جواباً على حالة طارئة في الأمة، فالاستعمار حالة طارئة، والاقطاعية التي هي تفرد فئة من الشعب لاستثمار الآخرين والتحكم فيهم حالة طارئة، والطائفية التي هي تغلب روابط سطحية تافهة على روابط اساسية عميقة حالة طارئة، والاقليمية التي هي تغلب الصفات الموضعية الثانوية في الأقاليم والأقطار على الصفات القومية هي حالة طارئة. وهذه الحالات كلها سلبية ليس فيها شيء من الحياة، وإنما هي نتيجة ضعف الحياة وتراخيها، ومتى ضعفت الحياة طفت القشور على السطح. فهل يجوز ان تتصف الحركة العربية المنشودة بهذه الصفات العارضة التي لاتمت الى حقيقة امتنا بصلة؟ هل يجوز ان تكون نظرتنا الى القيم ونظرتنا الى المستقبل مستوحاة كلها من هذه الحالة المرضية الطارئة؟ كذلك هل يجوز أن تقوم حركات فكرية اجتماعية على وجود آفات وامراض في مجتمعنا كالطائفية والاقطاعية وغيرهما؟!.

لذلك كله سميت الحركات التي تنشأ عن الحالات الطارئة، حركات سطحية لأنها لاتعبر عن ارادة الأمة في الحياة الحقة التي تصبو اليها، وانما تعبر عن رد فعل آلي في الأمة، عن اشمئزاز وامتعاض من حالات طارئة؛ ومثل هذه الحركات لايكتب لها البقاء.

لو اكتفينا بالنظر الى برامج الحركات والأحزاب القائمة في العالم العربي لخرجنا بنتيجة تشاؤمية، لأننا لابد واجدون فيها كلها هذه الصفة السلبية ـ ولكن شيئا واحدا ينقذنا من التشاؤم: هو أن نلتفت في الوقت نفسه الى الشعب العربي الذي كوّن المادة لجميع الحركات في نشاطها وأعمالها.

إن بامكان الحركات المختلفة ان تضع لنفسها البرامج التي تريد وان تتبع الخطط والاساليب التي تفضلها، ولكن الشعب نفسه لا يجيب جواباً آلياً على تلك البرامج والخطط، إنه ليس آلة تستجيب لما يراد بها، بل هو في حركاته يمثل شيئاً إيجابياً كل الايجابية، فالحركة الوطنية في افكارها وفي عقلية قادتها وفي أهدافها الواقعية وأساليبها المشاهدة لاتحوي الا الاشياء السلبية، وليس فيها اي تطلع الى بناء حياة إيجابية، ولكن الشعب الذي تجاوب مع الحركة الوطنية، ولبى نداءها، لم ينحصر في حدود أهدافها، ولم يتقيد بجدب افكارها ونصوصها، انما كان في مقاومته للاستعمار الاجنبي ونضاله يسعى الى تحقيق شيء ايجابي وهو: مجتمع عربي ناهض متقدم تسوده المبادىء والمثل العليا من عدل ومساواة وحرية. فثمة فرق واضح بين ما تسطره البرامج وبين الروح التي تتجلى في تصرفات الشعب المتجاوب مع هذه البرامج. وكذا الحال لو تناولنا اية حركة اخرى: فالاحزاب الدينية مثلاً انما هي في فكر موجهيها والدافعين اليها حركات تقوم على اشياء سلبية محضة، على الكره الطائفي والخوف والحذر وغير ذلك من العواطف السلبية. ولكن الشعب الذي يتبع في وقت من الاوقات مثل هذه الحركات التي ننعتها بالرجعية الدينية لايتحرك بدوافع سلبية، انه لايتحرك بدوافع الخوف والكره والبغضاء. واذا نفذنا الى روحه وضميره، تبيّنا ان في تبنيه لهذه الحركات نصيباً كبيراً من الايجابية ايّاً كان لون الحركة ونوعها. وهو في تأييده الحركات الدينية الرجعية في بعض الاحايين انما يرمي الى المحافظة على

شخصيته والابقاء على تلك الصلة الحية الروحية بين حاضره وماضيه، ويهدف الى تحقيق الانسجام في حياة المجتمع بربطه بالارض التي يعيش عليها وبالجو الذي يحيط به، عدا عن ان مثل هذه الحركات الدينية تعبّر، في ضمير الشعب، عن توقه وحنينه الى تحقيق مثل عليا سامية.

ولكن اذا كنا نتفاءل بروح الشعب ونقول بأن روحه روح إيجابية تطمح الى البناء والخلق، فهذا لايعني اننا نستطيع أن نستكين ونستسلم للأفكار الخاطئة.

نحن نثق بأن جوهر الشعب سليم متقبّل للعمل الايجابي المبدع، ولكن متى انتبهنا الى خطل الافكار الموجهة له، علينا ان نعلن ذلك وان نخاطب الشعب لنفهمه الصواب من الخطأ. ان الذين تتبعوا حركة البعث العربي في الناحية الفكرية على الاقل، وذلك فيما صدر عنها من كتابات، يستطيعون ان يلاحظوا منذ بدء الحركة اهتمامنا البالغ بان نجعل من حركة البعث الخطوة الايجابية التي يجب أن تأتي بعد الخطوة السلبية.

ونحن كأبناء هذه الامة وهذا المجتمع نتأثر به ونشعر بتياراته، قد شعرنا كما شعر الكثيرون ان الحل لم يأت بعد، وان الامة في موقف انتظار، وان طريق الامة لايمكن ان يكون سلبياً، لان كلمة الامة الاخيرة لايمكن ان تكون بالنفي، وانه يجب ان تأتي اخيراً الكلمة الايجابية التي تقول لنا كيف يجب ان نعيش وكيف يجب ان نبني حياتنا ومجتمعنا.

لذلك كنا من الناحية السياسية متطلعين الى مرحلة تعلو على الحركات الوطنية السائدة في العالم العربي، وهذه الاشياء قد كتبت مراراً، بأننّا لم نرض لانفسنا في وقت من الاوقات ان نكون مجرد رد فعل للخيانة والاستعمار، بل وضعنا نُصب اعيننا الحركات الوطنية لكي نعلو عليها ونرتفع الى درجة اعلى، ونصفّيها من شوائب العدوى التي لحقت بها من حالة الاستعمار والخيانة. وكنا نقول في مناسبات عديدة اننا نؤمن بأن الوطنية يمكن ان تجتمع ويجب ان تجتمع مع النزاهة والكفاءة، لا أن تكون متصفة ـ كما هي عند القيادة القديمة ـ بصفات بارزة طاغية عليها، هي صفات الاستغلال والجهل. أما من الناحية الفكرية فكنا أبداً نرى ان الخطوة المنشودة لم تظهر،

الخطوة التي تعلو على الخطوتين السابتتين، على الجمود والمحافظة، وعلى التقدم السطحي الذي يخرج المواطن عن قوميته وروحها وتاريخ امته، والذي لاتتوفر فيه شروط الحياة التي تربطه بروح الامة. واذا كان بعضنا يذكر تلك النشرة التي جاء فيها منذ اربع سنوات اننا نمثل التاريخ العربي الحي ضد الرجعية «الميتة» والتقدم «المصطنع»، فإن ذلك كان ينبيء عن موقفنا الايجابي.

اننا نريد ان نجد الحالة التي ترتاح اليها نفس الأمة ويطمئن اليها المجتمع والتي تنفي انحرافين: انحراف الجمود والمحافظة البالية وانحراف التقدم المصطنع الذي يعيش في جو غير جونا، ولايمكن ان يتجاوب معنا ويقدم لنا النفع والخير. كذلك من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، وهي من أهم النواحي التي يجب ان تعنى بها الحركة القومية، علينا ان نلتفت ونتطلع الى الحل الذي يتفق مع حاجة الأمة الايجابية. فهناك حالة مرضية في مجتمعنا، هي حالة تحكم فئة قليلة بكثرة الشعب، انها حالة الاقطاعية والاستغلال؛ وهناك جواب عليها مصطنع، وهو الاشتراكية اللاقومية التي لم تفهم حاجات المرحلة.

ومنذ سنين شعرنا بهذه الحاجة الملحة الى إيجاد الحل الايجابي، الى الاشتراكية العربية التي تداوي امراض المجتمع العربي من الناحية الاقتصادية ولاتضطره الى انكار قوميته والى الارتباط بذيل غيره من الامم، فيفقد سيادته وتطمس شخصيته.
وهنا لابد من ان أذكر ملاحظة لها بعض الخطورة، وهي اننا نرى فيما حولنا كثيراً من الحركات التي لاتتصف بالجد لأنها لا تتصف بالعمق. انها ليست في صميم القضية القومية، لأنها لاتحمل المسؤولية التي يفرضها تطلع الأمة، بل تعيش لتستغل الحالات الطارئة، نراها تتبنى كل يوم فكرة او دعوة وتماشي وتساير، فهي مثلاً عندما ترى الجو مشبعاً بفكرة سائدة وترى الزي الرائج في وقت من الاوقات، تتبنى الدعوة الاشتراكية وتلحقها بما لها من مبادىء سابقة، وفي هذا خطر كبير على مستقبل حركتنا القومية.
الفرق جوهري بين ان نأخذ الاشتراكية كشيء نؤمن به من أعماقنا لأنه يفصح عن حاجات اصيلة جوهرية في أمتنا، وبين أن نأخذها «كرفع عتب» ومسايرة كي لايقال اننا اقطاعيون أورجعيون أولكي لاتنجح الحركة الشيوعية في أخذ انصارنا ومريدينا.

الموقفان مختلفان لا بل متعاكسان. اما الموقف الايجابي، وهو الموقف الثاني، فهو الا ننادي الا بما نؤمن بحقيقته ونفعه وضرورته، وعند ذاك يكون دفاعنا عنه واخلاصنا له من النوع المبدع، لا من نوع دفع التهمة ودرء الخطر. ومن المؤسف ان تكون حال الفكرة الاشتراكية وغيرها من الافكار التي هي من صميم الفكرة العربية في العالم العربي كله، الى الآن، هذه الحال. اي انها لم توضع عن قناعة ولا ايمان، انما مسايرة ودفعاً لتهم الخصوم وتمشياً مع شعارات الوقت، في حين ان ثمة حاجة قاهرة تهيب بالعرب وخاصة بالشباب العربي الذي يكوّن الطليعة في حركتنا العَربية بأن ينظر الى قضية أمته نظرة اكثر جدية. فأفكارنا وأهدافنا لايمكن أن تعينّ بهذا الدافع التافه، دافع المسايرة والتبرؤ من تهمة والرد على تهمة اخرى. يجب ان تعينّ افكارنا واهدافنا تبعاً للحاجات الايجابية التي نشعر بها ونلمسها ونصل اليها بعد الدرس والتدقيق والتجربة.

١٣ آذار ١٩٤٧

النضال الايجابي

سبيل الجيل الجديد الى تحقق الانقلاب العربي

منذ أيام ذهب طبيب شاب الى بيروت ليحجز لنفسه مكانا على باخرة تنقله الى فرنسا للتخصص في معاهد باريس الطبية، بعد أن تهيأ لهذه الرحلة منذ أشهر ولكنه سمع عن الحوادث الاخيرة في فلسطين، ونسف اليهود للابنية العربية في يافا والقدس، مما سبب سقوط العشرات من القتلى والجرحى فعاد أدراجه الى دمشق، وتطوع في صفوف الجهاد لانه قدر ان حاجة فلسطين اليه في هذه الاونة ـ وهو الطبيب الجراح ـ أمس من حاجته هو الى الاستزادة من العلم. لقد عاد الى دمشق مساء، وفي صباح اليوم التالي كان في طريقه الى فلسطين.

لقد كنا في ذلك المساء واياه على ميعاد في مكتب البعث العربي لنودعه وداعا أخويا، واذا هو يدخل ويفاجئنا بتصميمه الجديد ويطلب موافقة الحزب عليه. والحق ان احدا منا لم يفاجأ بذلك لأننا نعرف رفيقنا حق المعرفة، ولاننا في قرارة نفوسنا كنا نتوقع منه ان يغير وجهة سفره في اللحظة الاخيرة.

ان الحادثة جديرة بأن تثير الاعجاب، وان يكون فيها لشباب العرب قدوة، خاصة اذا لوحظ انها بالنسبة الى صاحبها لم تكن حادثة بل عملا طبيعيا بسيطا، ولكن الذي يعنينا نحن منها ليس اثارة الاعجاب والحماسة وانما القاء ضوء على تفكيرنا القومي السياسي من خلال سلوك هذا الشاب.

ان الذين يؤمنون بأن الوحدة العربية، والانقلاب العربي، ورسالة الجيل الجديد، ليست ألفاظا يتطرف بها الكتاب والخطباء او عناوين وشعارات تتاجر بها الاحزاب، او ذرائع تتخذ لمحاربة الخصوم ورجال الحكم، بل هي حقائق راهنة، وأهداف واقعية وانها هي الغاية التي من أجلها نكتب ونخطب ونشكل الاحزاب ونحارب الخصوم ونعارض الحكومات، ان الذين يؤمنون بذلك كله يعرفون ان الغايه

التي يسعون اليها لن تتحقق بالاقتصار على الكلام والنقد، والانكماش والاستنكاف عن كل عمل، بل ان السبيل الوحيد لتحقيقها هو دخول ساحة العمل، والاقبال على التضحيات، وتحمل أعباء النضال بدرجة من الجد والحيوية تظهر للشعب الفارق الجوهري بين القيادة الجديدة وبين قيادة الزعامات القديمة والحكومات. وهم يعرفون أيضا ان الجهاد في سبيل فلسطين هو أرحب مجال، وأنسب فرصة، وأصدق امتحان لكفاءة القيادة الجديدة وقدرتها على فرض احترامها واقامة بنائها على امتن الأسس الشعبية النضالية.

ولئن كان اكثر رجال السياسة والاحزاب يتخلون في وقت الازمات العصيبة عن مبادئهم وأفكارهم، ويستسلمون بحجة التصافي وتوحيد الصفوف، للسياسة الحاكمة، أي سياسة التخدير والتضليل والجمود والفوضى، فيبرهنون بذلك على أن المبادىء والافكار بالنسبة اليهم لم تكن الا مزاحا يجيزه العرف السياسي والتنافس الحزبي في الاوقات العادية، ويصبح غير جائز ولا معقول في ظروف الجد والخطر، فلسنا نرى نحن خيراً من ظروف الازمات والاخطار لكي تزيدنا استمساكا بمبادئنا العربية الشاملة، واقتناعا بفكرتنا الانقلابية وعزما أكيدا على تحقيقها والعمل بوحيها.

فالعمل الايجابي في سبيل كل قضية قومية، وفي سبيل قضية فلسطين بوجه خاص، ليس أمرا يفرضه الواجب القومي فحسب، بل هو من منطق الفكرة الانقلابية التي يؤمن بها الجيل العربي الجديد، والتي تدعوه ان يشق طريقه بين تخاذل الحكومات وتآمر المصالح الاستعمارية والاقطاعية على مصير الشعب العربي، لكي يقود هذا الشعب ويتيح له أن يقبض على قضيته بيديه، وينقذها من نتائج التآمر والفوضى والاستغلال. وبدلا من أن يحسب الجيل الجديد ان اقدامه على الجهاد في سبيل قضية فلسطين يوقعه في شراك الفئات الحاكمة المشرفة على هذه القضية، ويشجعها على التضليل والاستغلال، يجب أن ينظر الى نضاله الايجابي كخير وسيلة لانتزاع الاشراف من يدها، ووقف محاذيره أو التخفيف من شروره. فاذا غابت هذه الحقيقة عن أذهان البعض ودفعهم الحذر من الحكومات الى التردد في نصرة فلسطين، فانهم بهذا الاسلوب الخاطىء لايكونون قد حرموا من نشاطهم أخطر

قضية قومية فحسب، بل يكونون أيضا قد حكموا على فكرتهم الانقلابية بالعقم والفشل، لانهم أوصدوا في وجهها باب النضال والعمل.

ان النضال الحقيقي لايكون في يوم من الايام هدما وسلبية وتنكبا عن العمل، بل هو خلق وبناء وعمل ايجابي مثمر، الا ان صفة الخلق والجدة فيه تظهره في أعين الكثيرين، وخاصة في أعين الذين يوجه ضدهم بمظهر السلبية والهدم، لان مجرد ظهور العمل الصحيح يهدم أعمالهم الفاسدة، ومجرد انتهاج السبيل القويم يبدو تحديا لاعوجاج سيرهم ومجرد ارتفاع البناء الجديد يحجب النور عن أبنيتهم الهرمة، ويحد من المكان الذي كانت تستأثر به!

١٠ كانون الثاني ١٩٤٨

الحركة الفكرية الشاملة

لقد عرّفنا حركتنا في عدة مناسبات سابقة تعريفات متعددة، وأريد الان أن ألح على ناحية هامة فيها، لذلك أستطيع تعريفها على ضوء هذه الناحية المقصودة بأنها الحركة التي تستطيع أن تسيطر على الظروف، وهذا يعني ان كل ما يجري في بلاد العرب وكل ما ينشأ فيها ويظهر ويعمل من أحزاب وتكتلات وقوى سياسية تتصف بالصفة المعاكسة تماما، وهي انها كلها خاضعة للظروف، لذلك فهي مؤذية فاشلة. ولسنا نقصد بالظروف الظروف السياسية فحسب، من حوادث داخلية وخارجية، ومن حوادث طارئة او موقتة تأتي في سنة من السنين اوبرهة من الزمن. بل نقصد الظروف الراهنة، التي هي نتيجة أجيال وفترات طويلة من الزمن، اي الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والنفسية التي تميز وتطبع الوضع الذي يستدعي الانقلاب. يضاف اليها الظروف السياسية التي هي نتيجة للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

اذن كل من لايستطيع أن يجابه هذه الاوضاع مجابهة جدية وان يهدمها او يشق الطريق لتهديمها ينحاز اليها. فالمشكلة بالنسبة للعرب هي ان يتمثل نزوعهم الى الحياة والتخلص من هذه الاوضاع، في حركة تستطيع أن تسيطر على الظروف التي فشلت كل الحركات والجهود الاخرى في السيطرة عليها فأصبحت مقوية للفساد ومدعمة له، لا لأنها كلها في الاصل فاسدة أو ترغب في الفساد، بل لأن بعضها لم يعدَّ العدة الكافية لكي يسيطر على الظروف.

وأول ما يمكن أن يذكر من شروط لهذه الحركة التي تستطيع السيطرة على الظروف هو أن تكون من الناحية الفكرية في مستوى القضية التي تحاول حملها، وهذا يعني ان التفكير الذي تبنى عليه هذه الحركة يجب أن يكون تفكيرا عربيا. وهنا ينتفي كل جهد وكل محاولة محلية او شخصية لاترتفع الى هذا المستوى والى هذا الشمول. ان هذا المستوى المرتفع الشامل لايطلب فقط من حيث اتساع الرقعة والعدد، أي أن يضم كل العرب، وانما يطلب منه أن يعالج جميع المشاكل الأساسية التي تتعلق بحياة العرب والشعب العربي، بعيشهم وعملهم وانتاجهم، بحريتهم

وكرامتهم. واعتقد ان حركتنا وضعت يدها على أخطر المشاكل في حياة العرب وعينتها عندما حصرتها في هذه النواحي الثلاث: الحرية، الاشتراكية، الوحدة العربية.

والشرط الثاني شرط عملي يتعلق بتنظيم الحركة، وكما انها تقوم على تفكير عربي شامل فان تنظيمها كذلك يجب أن يكون على نطاق عربي شامل، وكما انها تقوم على أساس فكري واقعي حيوي ينصب على المشاكل الأساسية، كذلك يجب أن يكون التنظيم مستندا على الطبقات التي تمثل هذه المشاكل الاساسية حتى تستطيع أن تضمن النجاح. لذلك يقوم التنظيم في البعث العربي على ثلاث دعائم كما ان التفكير في البعث العربي يقوم على ثلاث دعائم أيضاً هي الحرية، الاشتراكية، الوحدة العربية، فالتنظيم يقوم على أساس الجيل الجديد الذي يمثل الوعي وقوة النفس والارادة والعقيدة، وعلى أكثرية العرب الذين لهم مصلحة حيوية في الانقلاب، كما يقوم على نطاق عربي شامل لايتجزأ وبالتالي لايتناحر وينفي بعضه بعضا.

عندما يقول الخصوم في جملة دعايتهم ضد حركة البعث العربي بأنها خيالية أو شيء من هذا القبيل، انما يتجاهلون هذه الحقائق الواقعية في حياة العرب: حقيقة الوعي والمصلحة الحيوية، حقيقة الوحدة، وحقيقة مصلحة العدد الأكبر، وهم بصورة خاصة يتجاهلون هذه الحقيقة الاخيرة، حقيقة مصلحة العدد الاكبر وما تخفيه من قوة جبارة.

فالاشتراكية وحدها لو وجد أشخاص يؤمنون بها تشكل أكبر خطر على الاوضاع الفاسدة القائمة. نحن اذن في قلب الواقع، وهذا يفترض ان يكون سلوك الحركة منسجما مع مبادئها. اذ نرى ان كثيرا من الذين يدّعون الاشتراكية يتبنون الأوضاع الفاسدة، وسرعان ما تنكشف خدعتهم. والايمان بالاشتراكية وحدها يتطلب الانفصال عن الاوضاع الرجعية فكيف اذا دعمناها بجناحين لا يقلان عنها قيمة هما: الحرية والوحدة العربية.

ليس يكفي ان نقول ان حركة البعث العربي تستطيع بهذه المبادىء والشروط ان

تسيطر على الظروف وبالتالي تحقق الانقلاب، فهناك جوانب يجب أن توضح ويمكن ان ألخصها في أن حركة البعث العربي لاغنى لها عن فلسفة عامة في الحياة، فهي حركة تقدمية تحررية، وهي بذلك حركة عميقة جدا تتصل بالمفاهيم الانسانية الخالدة. ولايمكن أن تكون هذه الحركة بمثل هذا التناسق والاحكام والشمول الذي نطلبه، وان تكون في الوقت نفسه فاقدة لنظرة عامة إلى الحياة.

اننا نستمد هذه النظرة من تعريفنا الاول وهو ان تكون الحركة مسيطرة على ما يحيط بها ويتداخل فيها من ظروف. اذن لابد للبعثيين كمجموع وللبعثي كفرد من نظرة تقويم إلى الحياة، أي لابد للحركة من نظرة أخلاقية. وأستطيع أن أتوسع أكثر من ذلك لأقول بأن الحركة تحتاج لا إلى نظرة اخلاقية فحسب بل إلى نظرة فلسفية عامة، اي ان يكون لها نظرة في الكونومظاهره وعلله وفي الانسان ومعنى حياته وفي الاخلاق.

اقتصر الآن على الكلام عن الناحية العملية البارزة في حركتنا. المهم في حركة انقلابية تتصدى لتغيير مجرى الحياة في امة هو ان تقلب القيم، فلا شك ان القيم المألوفة الشائعة منسجمة مع الاوضاع التي تغذيها، لذلك لايعقل ان تظل هذه القيم سائدة عندنا وان نكون انقلابيين. والناحية الجوهرية في الموضوع هي أي نوع من الحياة نفضل، فلا نحسب ان كل الذين يسايرون الاوضاع الفاسدة ويعيشون في ظلها يطلبون حياة الظلم والافساد والتآمر والخيانة، فهذه الصفات لاتنطبق الا على عدد قليل من الرجال البارزين على المسرح السياسي والذين أصبحوا الآن في يد القوى الرجعية والاستعمارية، ولكن هؤلاء ليسوا كل الذين يجارون الاوضاع الفاسدة. والأصوب ان نقول بأن الأكثرية من هؤلاء الداعمين للاوضاع الراهنة لايطلبون الا حياة طبيعية معقولة، لايطلبون الظلم وانما يطلبون ان يحيوا حياة طبيعية اي يطلبونّ العيش الطبيعي، ولكن العيش الطبيعي في ظروف غير طبيعية وغير سليمة هو عيش غير مشروع. انما نطلب العيش الطبيعي لشعبنا بمجموعه، هذا العيش الذي نناضل في سبيل تحقيقه في مستقبل قريب، فهذا العيش اذا تحقق، قبل حصول الانقلاب، لأفراد وعن طريق غير الطريق الانقلابي انما يكون ظلما

وعدوانا على الأكثرية.

فالنظرة الأخلاقية للبعث العربي بشكلها الحاضر تنحصر في الامر الآتي: ما دام هذا النوع من العيش الطبيعي الكريم محرما على الاكثرية الساحقة من الشعب، نتيجة للاوضاع الفاسدة، فان المؤمنين بحق الشعب لايقبلون ان يشاركوا في عيش يعتبرونه الآن غير مشروع، ويرونه ظلما للشعب. لذلك فهم يفضلون عليه حياة المبدأ. فالنضال وقانون الحياة الذي لاهزل فيه، لايمكن أن يسمح بتحقيق غاية كبرى وتقدم خطير وانقلاب جوهري دون أن يقابل ذلك ثمن كبير هو التضحية. هكذا فان في الشروط التي ذكرتها، الفكرية والعملية، ما يكفي موضوعيا لتحديد الطرق الصحيحة الناجحة لحركتنا.

فعندما تبنى الحركة على المبادىء التي ذكرناها، اي عندما تعالج القضايا على أساس عربي وتستند على المصلحة المعنوية والمادية للشعب يفهم من ذلك بأن هذه الحركة ستكون حركة نضالية منفصلة عن كل الفئات والاشخاص الذين يدعمون اوضاع الاستثمار والاستبداد. وبصورة طبيعية يكون المجندون في هذه الحركة بعيدين عن الاستغلال. غير انه لايجوز أن نجعل من الانسان آلة ونكتفي بالشروط الموضوعية. وانما يجب أن نستخرج كثيرا من الشروط وننقلها إلى الضمير كي يعرف المؤمن بهذه المبادىء لماذا اختارها ولكي يجد من نفسه معيناً لتغذية نضاله، لذلك لابد من وجود فلسفة مبسطة عن الحياة تجسم لهذا الجيل المناضل رسالته في هذه المرحلة التاريخية، أي تجسم له حقيقة مهمته، وتسهل عليه التضحية، في هذا الدور، بالحياة الطبيعية التي يتوق اليها كل انسان سليم، والتي يرفضها هذا الانسان نفسه عندما يجدها عائقا لتحقيق مبادئه، ملطخة بدماء الشعب.

ان هذا المستوى الذي أردناه منذ البدء لحركتنا كما وضعناها منذ نشوئها هو مستوى واقعي لا غلو فيه ولا خيال لانه الوحيد الذي يستطيع أن يتكافأ مع الظروف القاسية. ان الكثيرين يرفضون هذا المستوى عن تصميم او سطحية او جهل، ويرون حركتنا بعيدة عن الواقع وعن التحقيق، وينسبون الجدية إلى حركات ليس فيها أثر للفكر فيرفضون سلوك هذا الطريق ويكتفون بحركات ارتجالية تقوم على زعامات

ملفقة، ويسمون هذه الحركات واقعية وهي أبعد ما تكون عن تلبية الحاجات. انهم يقبلون بالحركات المأجورة من الاجانب وينتظرون منها الخلاص، ويسمون خيالا هذا التصوير الصادق لحاجات الامة العربية.

ونحن الذين لاننخدع بالمظاهر نعلم ان وراء كل رأي عوامل نفسية وعوامل خلقية وعوامل مصلحية. وفي أغلب الاحيان ليس هذا التباين بيننا وبين الآخرين تباينا في الفكر، وانما هو تباين في المصلحة ومقدار التجرد عن المنافع الخاصة. فالذين يجدون ان الامة العربية لم تنضج بعد كي توضع قضيتها في الشكل العلمي كما وضعت قضايا الامم ذات المهام الخطيرة في التاريخ، ان الذين يرون ان أمتنا لم تنضج بعد لايعبرون في الحقيقة عن رأيهم في الامة وانما عن أنانيتهم ومصالحهم الخاصة.

عام ١٩٥٠

البعث العربي حركة تاريخية

ان[1] ما يجب أن يعرفه كل بعثي هو أن المهمة الملقاة على عاتقنا ثقيلة وشاقة وطريقها شاق لذلك يجب أن نعمل على تذليل جميع العقبات وننهي مرحلة الاضطراب التي تعوقنا عن تحقيق كل ما يجدر بحزب قومي نضالي كحزبنا ان يقوم به ويحققه من توثيق الصلات بين مختلف فروعه في سائر أقطار العرب، فيكون كالجسم الواحد تجري في عروقه دماء واحدة. وأستطيع أن أطمئن جميع البعثيين فأقول ان حزبنا بعد كل مرحلة من مراحل نضاله، يخرج أقوى مما كان في الماضي.

هناك شيء آخر يجدر بالبعثيين أن يعرفوه وهو أن لحركتهم منطقا خاصا لانها انبثقت من قلب العروبة ومن أعماق التربة العربية ومن صميم مشاكل أمتنا، فهي حركة صادقة أصيلة، لها موقفها الخاص كالكائنات الحية التي تنمو حسب قوانين ثابتة، ولا تستطيع ان تلبس ثيابا مستعارة وأن تؤخذ بالمظاهر والزخارف، ولا تؤثر في أعصابها بأن لها رسالة حقيقية طويلة، ولئن تباطأت في بعض الظروف وأعوزتها بعض الأشياء، فما ذلك الا لأنه من المحتم عليها أن توجد لنفسها التنظيم والوسائل الاصيلة المنسجمة مع طبيعتها والمشتقة من لحمها ودمها.

ان حال حركتنا هي حال امتنا، فالامة العربية في هذا الدور التاريخي، تبحث عن الحل الملائم لها المتكافىء مع عظمة قدرها. فتأخرها عن السير في طريق التقدم والوحدة والانسجام مع أجزاء العالم الراقي لايفهم منه دوما أنه عجز فيها ونقص وجمود، بل يجب أن يفهم منه أيضا أنها ليست كالأمم الثانوية في التاريخ، فهي تذكر بأنها حملت رسالة الى العالم، وتعرف كيف تمزق كل الاثواب الكاذبة التي يحاولون الباسها اياها.

وكذلك حركتنا، كانت مهددة في الماضي بأن تصغي الى ايحاءات الوسط والبيئة وتسري اليها عدوى التقليد، وتنتقل اليها شهوة الاستعجال والتشبه بالحركات

---

(١) حديث القي في مكتب الحزب في دمشق بمناسبة زيارة بعض شباب البعث الجامعين من بيروت.

الرائجة التي تنشد النجاح الرخيص. غير ان ذلك الجوهر السليم الذي تحتويه، وهو انها حركة تاريخية، وتلك الثقة بالنفس والعقيدة الداخلية التي قلما يحسن اللسان الافصاح عنها لأن الضمير هو الذي يحتويها، كل هذا هو سر قوة البعث العربي، وما نسميه بالايمان.

في حركة البعث العربي يلتقي الوعي على أحسن أشكاله بالايمان في أعمق صوره. فحركتنا واعية لأنها تتطلع الى المستقبل، الى الأمام، الى أعلى مستوى يمكن أن يبلغه خيرة المفكرين والمثقفين من أبناء الشعب العربي، وتقوم على الروح العلمية والتفكير المنظم، وهي تجمع الى جانب هذا ايمانا عميقا خصبا يمدها بالقوة الحيوية التي تجعلها تظفر على شتى المصاعب. وأبسط مقارنة نقيمها بين هذه الحركة ووسائلها المحدودة ونشأتها المتواضعة وبين الاحزاب والفئات التي تحشد الألوف وتقوم على النفوذ الاجتماعي الزائف والوجاهات وكل ما يستطيع الوسط النفعي أن يبتكره من وسائل الاغراء، تجعلنا نرى ان حركتنا قد استغنت عن طوع واختيار عن كل هذه القوى الكاذبة وزهدت فيها وآثرت طريق البساطة، وبهذا كانت قادرة على التغلب على أعدائها.

وانني أكرر ما قلته مراراً بأن الانقلاب هو محور حركتنا الذي يميزها عن سائر الحركات الاخرى، ويجب أن يفهمه البعثيون فهما داخليا عميقا، قبل أن يفهموا منه على أنه مجرد خطة لتنظيم المجتمع في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فالانقلاب الذي يدعو اليه البعث العربي لايستطيع أن يدعو اليه أي حزب آخر، انه أوسع من أن يكون برنامجا أو خطة سياسية او اجتماعية، وأكثر من أن يكون أسلوبا او وسيلة لتحقيق مبادىء الحزب. ان الانقلاب هو سر هذه النفسية الجديدة في حياة العرب، وهو يعني بصورة خاصة ان العرب لايمكن أن يصلوا الى أهدافهم الا اذا ساروا في ذلك مدة طويلة، في طريق طويلة، وفي اتجاه معاكس لهذا الواقع الذي نعيش فيه. فعليهم قبل أن يقدموا أنفسهم كأطباء لهذا الواقع المريض ان يسلكوا الطريق الذي يربي شخصيتهم من جديد.

ان الانقلاب هو قبل كل شيء في هذه الحركة النفسية المكافحة، المعارضة،

انه الدأب المشبع بالايمان الذي يخلق في العرب نفوسا جديدة وأخلاقا جديدة وتفكيرا جديدا.

٢٦ شباط ١٩٥٠

البعث العربي إرادة الحياة

اننـا لسنـا الا نتـاج أمتنا[1] ، واننا اذا استطعنا ان نعمل حتى الآن شيئاً وأن نقترب من بعض الفضائل وان نطمح الى المزيد من هذه المثالية فليس ذلك العمل خاصا بنا كأفراد، وليس ذلك العمل لتفوق فردي ، وانما يرجع الفضل في ذلك كله الى هذه الارادة المستيقظـة في امتنـا التي تفـرض نفسهـا على طليعـة ابنائها . لنؤمن دوماً بأن مانعمله ومـا نفكـر به ومـا نستطيـع تحقيقـه في نفـوسنا وفي المجتمع ليس الا صدىً باهتا، وليس الا حقيقة ناقصة، بالنسبة إلى حقيقة أمتنا الخالدة . لنضع أمتنا المثالية فوق كل اعتبـار وفـوق كل شخص، ولنضـع حزبنا الذي هو صورة الامة المثالية فوق أشخاصه وقادته، فاذا أردتم ان تحيّوا أحداً فحيّوا حزب البعث العربي الذي استطاع في مثـل هذه المـرحلة الحـرجـة القـاسية في حياة أمتنا أن يسموا بالفكرة فوق الواقع وفـوق الأشخـاص . وماقيمة الاشخاص الا بمقدار ما يتمثلون هذه الفكرة وبمقدار ما يكونون صورة قريبة منها وتعبيرا صادقاً منسجماً معها، أي بمقدار مايطيعونها . فالقادة الحقيقيـون هـم الـذين يعـرفـون ان يطيعـوا الفكرة، كما ان الاعضاء المخلصين هم الذين يطيعون الفكرة من خلال توجيه القادة . . .

تتلخص فلسفـة البعث العـربي في هذه الكلمـة : ثقـة الأمـة العـربيـة بنفسهـا، واعتمادها على قواها، ومعنى ذلك ان البعث العربي الذي يريد أن يكون طليعة هذه الامـة عليـه أن لا ينشـد أيـة مسـاعدة، وأية قوة خارجية عن نفسه وعن ذاته . لقد قام حزبنـا على هذا الأسـاس، على هذا الشعور، على هذا الواقع ، على هذه العقيدة . اذا وثقنا بأنفسنا، اذا وثق فرد عربي واحد بنفسه فالأمة كلها ستثق بنفسها .

سرنـا بهـذه العقيـدة، ولم تخيب الحـوادث أملنـا ولم تخيب أمتنا أملنا . اننا نبني عملنـا على عقيـدة لا تمت إلى الـوهم او السحـر بصلة وانما ترتكز على أقوى دعائم الواقعية العلمية والعلم وهي ان مصلحة المجموع العربي هي في اتجاه هذه الحركة ان حياة المجموع العربي هي في اتجاه هذه الحركة، لهذا يكفي أن تنشأ حركة مهما تكن بسيطـة حتى يكـون مجـرد ظهـورهـا ومجرد تقدمها خطوات في الطريق، حافزا

---

(١) من حديث ألقي في مكتب الحزب بدير الزور .

ومـوقظـاً لهذه المصلحة التى يشعر بها المجموع بهذه الارادة الكامنة، حتى يتم هذا التجـاوب وهـذا التعـاون المستمـر بين الحـركة الرائدة وبين المجموع الغافي الذي يستيقظ يوماً بعد يوم وفي آخر هذا التجاوب الذي لن يكون طويلا، يتحقق البعث العربي.

انـنـا نمثـل الحـرية والاشتراكية والوحدة. هذه هي مصلحة الأمة العربية، وأقصد بالأمـة العـدد الأكبـر ولا أقصـد بهـا تلك الأقليـة المشـوهـة الشـاذة المنكرة لذاتها، المستعبـدة لأنـانيتهـا ومصـالحهـا الخـاصة، لأنها لم تعد من الأمة. فما دامت هذه الأهـداف هي التعبيـر عن مصلحـة العدد الأكبر فلنثق ولنؤمن بأن العدد الأكبر سيأتي الينـا. وأقـول أكثـر من ذلـك بأنـه يمكننـا أن نعتمـد ليس فقط على العدد الأكبر من الشعب العـربي في هذا الـوقت، بل نعتمـد على العـرب وعلى تاريـخ العرب وعلى تلك الارادة التي تشع من العرب الأحياء والأموات، على تلك الروح التي تسري عبر الزمن في الأرض العربية، تلك الروح وان شابتها الشوائب في فترات من الزمن فانها لا تزال ذات إرادة ولا تزال تريد الحياة والانبعاث.

فقوتنا اذن ليست قوة العدد الأكبر من مجموع العرب في هذا الوقت فحسب وانما هي قوة التـاريـخ العـربي أيضاً لأننا نسير في إتجاه الروح العربية الأصيلة، لأننا نسير وفق ما يتمنى أجدادنا الابطال ان تسير الأمة العربية في كل وقت وزمن.

واننـا نعتمـد أيضـاً على قوة أخـرى لا يستهـان بهـا، ما دمنـا نعتقـد بأن القـوميـة الصحيحة هي الانسانية الصحيحة، وأن بعث أمتنا هو بعث للانسانية بكاملها، هذه القـوة هي قوة التـاريـخ الانساني. فنحن نسير في اتجاه التقدم والتحرر والعدل ولسنا نديـر ظهـورنـا ونعمي أبصارنا عن هذه الحقيقة الانسانية. فاذن نحن محاطون بقوى ثلاث أسـاسيـة تكفي لكي تملأ قلوبنا بالثقة والعزم: قوة مصلحة الشعب العربي في حاضـره، والتـاريـخ العـربي في ماضيـه، والتـاريخ الانساني في تقدمه نحو الحرية والاشتراكية والوحدة.

نيسان ١٩٥٠

نظرتنا الحيَّة للحزب

سمعتم أيها الاخوان رفيقكم يقول:[1] ان حركة البعث العربي الاشتراكي أصبحت في بلاد العرب شيئا لايمكن نكرانه. وأستطيع ان أقول بأن حركتنا أصبحت قدر العرب في هذا العصر. والحق اننا آمنا بذلك منذ اليوم الاول الذي انطلقت فيه هذه الحركة. ولعل الشباب الذين دخلوا حديثا الى الحزب لايستطيعون أن يستوعبوا المرحلة التأسيسية وما رافقها من ايمان وثقة واندفاع، وهم قد أتوا الى الحزب بعد أن سجل كثيرا من المواقف وخاض كثيرا من المعارك، لذلك يحسن بهم أن يعرفوا ان كل ما يقوم به الحزب الآن وما يمكن أن يقوم به في المستقبل ليس الا تحقيقا لذلك الايمان الاول، ذلك الايمان الذي لن نستطيع الاستغناء عنه في يوم من الايام حتى بعد ان يسيطر حزبنا على قدر امتنا، فهو الشرط الاساسي وهو الدعامة المتينة لحركتنا. وجدير بالشباب أن يستلهموا دوما هذا النبع الروحي، وأن يعرفوا ان الذين استطاعوا أن يسجلوا شيئا في هذه الحياة، أن يسجلوا شيئا في التاريخ، هم الذين كان لهم ايمان الابطال واستطاعوا أن يحفظوا في أنفسهم براءة الاطفال وقوة اندفاعهم نحو المثل دون أن يعيروا للمصاعب ولضغط الوسط اي اهتمام.

لقد جاء حزبنا متجاوبا مع يقظة في الروح العربية، مع حاجة عميقة في روح امتنا الى الانطلاق وإلى الخلق، فلا يجوز ان ننظر الى الحزب الا نظرة حية: انه يجب دوما أن ينطلق ويجدد ويخلق وفي انطلاقه وتجدده وخلقه يستطيع أن يصلح نفسه ويطهر ما قد يعلق به من ادران.

اياكم والنظرة الجامدة التي لاتفهم سر الحياة وكنه الحياة، فليس من عمل جدي يؤثر في الواقع ويخلق منه واقعا جديدا الا ويكون هذا العمل عملا فيه ما في البحر الواسع المتحرك من شوائب، فاذا اردتم عمل حزبكم تاريخيا فليكن كالبحر لا كالساقية الصافية، فمن السهل أن تكون حركتنا ساقية صافية ولكنها لن تروي امة ولن

(١) حديث مع وفد البعث من لبنان عند زيارته لمقر الحزب في دمشق.

تصنع تاريخا. ففي الحزب كثير من النقص، وبين ما تحقق وبين ما نرجو أن يتحقق فارق كبير، ولكننا نستطيع أن نقترب من مثالنا اذا نحن تابعنا السير، اذا ضاعفنا الهمة، لا اذا وقفنا وحولنا حيويتنا الى نقد جامد وتفكير نظري، فالحياة لا تعرف التوقف وتيار الحياة تيار مبارك طاهر مهما تكن الشوائب التي تعلق به.

واذا وجب أن أدعوكم الى المزيد من النشاط والاستبسال والتضحية في سبيل حركتكم التي أصبحت كما قلت، قدر الامة العربية، والتي لايمكن لأي حركة اخرى أن تنافسها او ان تحتل مكانها، اذا وجب ذلك فيجب ان انبه الى ناحية أخرى، بأنه بقدر ما تتوسع الحركة، وبقدر ما يتسع نطاقها ويكثر عدد أعضائها يصبح واجب الفرد فيها أكبر من ذي قبل. فكل حركة، وهذه طبيعة الحركات الاجتماعية وطبيعة المجتمعات، معرضة لأن تفقد من عفويتها، من حريتها، من أصالتها، وأن تطغى عليها الشعارات التقليدية، أن تطغى عليها الالفاظ، ان تصبح صنما، فليس الاشخاص هم الذين يصبحون أصناما فحسب، فقد تصبح الحركة صنما وقد تصبح أفكارها أصناما، وهذا شر ما يمكن أن تبتلى به حركة تريد أن تخلق وتبدع.

المجموع له قانون، وكل جمع مدفوع بطبيعته، بغريزته، إلى تمجيد الظواهر والشكليات والعناوين والالفاظ والصفات العامة، لأن الجمع ليس له ارهاف الفرد وحساسيته وقدرته على التعمق. فاذا أردنا أن تتابع حركتنا مراحلها بكل صدق وأمانة دون أن تبتسر أو تختصر، دون أن تتجمد وهي في نصف طريقها، وأن تعطي كل ما فيها من امكانيات الخير، اذا أردنا أن يحصل كل ذلك علينا ان نقدر دور الافراد. فالافراد هم الذين لايستعبدهم الجو الجماعي، هم الذين يحتفظون بحريتهم، باستقلال تفكيرهم، بصفاء نفوسهم حتى ولو كانوا مشاركين في اندفاع المجموع. هم الذين ينشدون المعنى وراء اللفظ يبحثون عن الشيء الحي وراء التعبير العام. هم الذين يرجعون الى الصمت كثيراً ويكون كلامهم وعملهم وليدا لصمت مثمر منتج، هؤلاء هم الرقباء على الحركة، هم الذين يصححون كلما كادت تتردى في السطحية وفي التقليد، هم يخلقون التوتر في الحركة كلما ضعف هذا التوتر الداخلي، لاننا لانستطيع أن ننكر ان مجتمعنا يحمل أوزارا كثيرة ثقيلة من عصور

الانحطاط والتأخر. واننا ان لم نلح كثيرا عليه لكي تكون يقظته أصيلة وانبعاثه انبعاثاً عميقا فانه يميل بطبيعته الى أن يختتم هذه المرحلة البطولية قبل اوانها، وان يقول ان امنا بكم وبحركتكم، وان يدين لنا بالطاعة والموافقة قبل أن نكون قد استخرجنا من داخل امتنا كل الكنوز الروحية.

لابد من زيادة التوتر والصراع، لابد من الدفع الدائم ومحاربة كل كسل وكل ميل للراحة وكل محاولة لانهاء النضال او اختصاره، وهذا كما قلت من عمل الافراد، لانهم هم الذين يشعرون بهذا الخلل وهم الذين يثور ضميرهم عندما يرون الحركة قد انساقت وراء الشعارات الاصطلاحية وجعلت كل ايمانها في ترديد الكلام والالفاظ أو تمجيد قيم هي جديدة، ولكننا اذا لم ننفخ الروح فيها يوما بعد يوم فانها ستكون كالقيم القديمة سواء بسواء.

اذكروا دوما ايها البعثيون الاشتراكيون بأن رفاقا لكم قبل عشر سنوات أو أكثر كانوا في سنكم الشابة هذه والتفوا حول رفاق سبقوهم في السن ودعوهم الى عمل تاريخي فلبوا الدعوة، في ذلك الوقت آمن هؤلاء الشباب بأنهم سيصنعون تاريخا للأمة العربية وانهم سيكونون الجنود المحاربين والشهداء لنهضة عربية أصيلة تغذي الانسانية جمعاء. فلا تقبلوا دون هذا الهدف بديلا ولا تقبلوا الا ان تكون النهضة العربية تاريخية تستخرج أعمق ما في النفس العربية من كنوز وانسانية أصيلة.

نحن حزب سياسي، لا جدال في ذلك، ولكن السياسة وسيلة، وقد أردنا أن نقول منذ البدء لشعبنا وللجيل العربي الجديد اذ عرفّنا حركتنا بأنها حزب سياسي أردنا أن نقول لهم هذا هو الواقع فلا تتلهوا بالخيال ولا تنسحبوا من مواجهة الحقائق القاسية، فالسياسة هي أكثر الامور جدية في المرحلة الحاضرة. ولكننا اذا قصدنا ان نلح على واقعية نظرتنا في مواجهة الواقع في كل معناه ومواجهة المسؤوليات العملية بكل قسوتها، فليس معنى هذا ان السياسة غايتنا. السياسة هي امتحان لمثاليتنا: هل هي مثالية العاجزين الذين يرصفون الاوهام، أم هي المثالية الحية العملية لمن يريد أن يخلق وان يعمل. لذلك جعلنا السياسة امتحانا للايمان والمثالية، ولكنها لم تكن غاية في حال من الاحوال. حركتنا هي حركة بعث بأوسع ما في هذه الكلمة من معنى

ـ بعث في الروح والفكر والاخلاق والانتاج والبناء وفي كل هذه المؤهلات والكفاءات العملية. وإذا تذكرنا دوما بأن رسالتنا ليست أقل من ذلك وبأننا قد نتعرض بين الحين والآخر الى أن نركز عملنا على الجزء وننسى الكل، ان نذوب في الفرع ونبتعد عن الاصل، فان الافراد الواعين الحساسين فيكم، هم المسؤولون والمطالبون بأن يعيدوا الدعوة الاولى وان يذكروا اخوانهم لكي يعود الصراع الداخلي في نفس كل فرد من أعضاء البعث، لكي يأتي هذا البعث بعثا أصيلا، ولكي نكون في مستوى القدر الذي اختارنا لتلبية حاجات امتنا واختار الامة العربية لتكون في المواقف الحاسمة في التاريخ منقذا وهاديا.

نيسان ١٩٥٥

طموح البعث

المعرفة لا تكون صحيحة الا اذا امتحنت بالعمل، فالعمل يغنيها ويصححها. ان نضال الامة العربية نضال طويل لم يبتدىء مع حركة البعث ولن ينتهي معها. وكل ما في الامر ان هذه الحركة خرجت من حاجات امتنا في مرحلة معينة لتستفيد من التجارب السابقة، ولترفع مستوى النضال إلى الحد الذي يتكافأ مع عظم قضيتنا وعظم أهدافها ومع عظم الاخطار المحدقة بها، ومع روح هذا العصر، فكانت محاولة صادقة نرى اليوم انها أثمرت بعض الثمار.

ان طموحنا كبير، طموحنا هو طموح الانسان وطموح كل شعب اصيل شاعر بشخصيته مقدر لمعنى وجوده الانساني، طموحنا لا يقتصر على دفع الاخطار والتخلص من الاعداء ومن ظلمهم الذي لحق بنا زمنا طويلا. طموحنا لا يقف عند حدود السلبية والرفض والتخلص وانما هو في أعماقه طموح ايجابي بناء في أن نعمل وان نسترجع من جديد تجاوبنا الصادق مع الحياة، وان نساهم في بناء الحضارة ونساهم في اخصاب القيم الانسانية وفي الدفاع عنها وفي تجسيدها تجسيدا صادقا في حياتنا وسلوكنا.

عندما طلع علينا الاستعمار مؤخرا بنظرية الفراغ، قائلا ان بلادنا فيها فراغ يستدعي ان يملأ بالاستعمار والاحتلال، خطر لي ـ بالمقارنة ـ ان الفراغ قائم فعلا ولكن ليس في شعبنا وبلادنا، وانما في هذا القسم من العالم الذي مسخ القيم وزيفها ووصل في النفاق الى حد التناقض مع مايدعيه من مبادىء. ويخطر لي دوما ان ثمة في العالم فراغا مخيفا، ولا يستبعد أن تكون أمتنا من بين الامم التي ستطالب بأن تملأ هذا الفراغ في وقت أقصر مما نظن. ان حضارة المستعمرين تنذر بالانهيار والفشل طالما انها تتجنى على الشعوب الضعيفة مثل هذا التجني، وتغالط وتكاد لا تعرف أنها تغالط، اي ان الزيف امتزج في نفوسها وأذهانها إلى حد انه أصبح طبيعيا فيها ومن صميم مفاهيمها. من يعيد الى هذه القيم التي أفرغت من معناها ومحتواها في الغرب. من يعيد اليها الحياة والدم الا الشعوب التي عانت الظلم، وعانت

تجربة الألم الى الأعماق؟ فكأن القدر يهيؤها لان تحتل مكانها قريبا وان تكافأ على الامها بأن تظهر هذه المبادىء والقيم الخالدة التي لا غنى للانسان عنها، والتي لا تستقيم بدونها الحياة. لعل القدر يهيء شعوب افريقيا واسيا وكل الذين عانوا الظلم الخارجي والداخلي، ان يخرجوا من هذه التجربة بثمرة يانعة لا تقتصر فائدتها عليهم فحسب، وانما تشع على الانسانية كلها. لذلك قلت ان طموحنا لا يقف عند حد اخراج المستعمرين من أرضنا، وايقاف المستغلين في الداخل عند حدودهم ولا يتوقف عند حد تأمين الحرية والرخاء للشعب، وانما هي كلها وسائل لكي تنطلق عبقرية هذه الامة نحو الابداع، نحو المساهمة الجدية في حمل الاعباء الانسانية.

وهذا في الواقع ما كان ينفرنا من الحركات الوطنية السابقة. وهذا ما أشعرنا بأن ثمة واجبا علينا وان ثمة مهمة جديدة لنا، فأنتم تعرفون في أي مستوى كانت تحيا وتعمل الحركات في مختلف اقطارنا العربية، في أي مستوى مقلد سطحي سلبي. يأخذون على الاستعمار أشياء كانوا هم أنفسهم يرتكبونها يوميا، ينادون بالحرية لا ايمانا منهم بالحرية ولكن دفعا لتهمة الغرب الموجهة الينا باننا لا نقدر معنى الحرية، ينادون بالمساواة والرقي وغير ذلك لا عن قناعة، ولا عن معاناة وتجربة عميقة لهذه الأشياء، وانما في المظهر والاعلان لدفع التهمة. اذن لم تكن تلك الحركات اصيلة، لم تكن تنبع من الشعب، ولم تكن تعبر عن حقيقته وامكانياته لأنها لم تكن تعتمد عليه ولا تثق به.

ولعلكم سمعتم أكثر من مرة أولئك الزعماء والسياسيين في أحاديثهم الخاصة: «الشعب لا يفهم، لا يعي، لا يقدر»، وفي خطبهم يشيدون به ويمتدحون فضائله ويستغلون غروره.

الثقة الحقيقية بالشعب هي أعمق من تلك، تبدأ بالصدق، أي ان يكون المناضلون صادقين في عملهم وواثقين من أنفسهم، وبعد ذلك لا بد أن يكسبوا ثقة الشعب لأن امكانيات شعبنا غزيرة وعميقة، ولكن أكثرها دفين ومغمور.

كنا اذن نشعر بأن مرحلة جديدة يجب ان تبدأ، وأن تظهر فيها الامة العربية على مستوى جديد غير المستوى السلبي الذي كانت عليه في الماضي، غير مستوى

التشكي والتظلم والمواربة والتستر بعناوين المبادىء لكي ترفع عنها التهم الموجهة اليها من الاعداء. مرحلة جديدة تقف فيها أمتنا لتواجه مصيرها وجها لوجه. . . تواجه حقيقتها بصراحة وجرأة، ولا تعبأ باستعمار ولا أجنبي. الأصل انها موجودة، ولكن تريد ان يكون وجودها صادقا وعميقا، ولا تتلكأ عن رؤية أخطائها ونواقصها لان هذا أول دليل على نضجها وبلوغها سن الرشد. والواقع ان المرحلة الجديدة التي بدأناها لم تغفل قيمة الشعب في خوض المعركة ضد الاستعمار، فقد وجهنا أنظار الشعب إلى نفسه وإلى أمراضه. وهذا تشجيع للشعب وثقة فيه لم تكن الحركات السابقة تجرؤ عليها، بل كانت تداريه وتداجيه. لذلك لم يكن يثق بها ولم يكن يمشي وراءها الى آخر الطريق.

أما مرحلتنا فكانت تنظر الى الاستعمار بأنه نتيجة أكثر منه سببا، نتيجة لما يشوب مجتمعنا من نقص ومن تشويه. وأعتقد بأن هذا ما يجب ان نلح عليه وأن نزداد جرأة في المضي فيه، وأن نعتبر أننا دخلنا النطاق العالمي، ونقوم بدورنا الذي تجاوز حدود وطننا وحدود قوميتنا، وانه يجب ان نواجه هذا المستقبل الايجابي بثقة وتفاؤل واقدام. قد يبدو لكم كل ذلك الان شيئا طبيعيا وسهلا يسيرا، ولكن عندما بدأنا حركتنا قبل خمسة عشر عاما كانت هذه اللغة صعبة الفهم وصعبة التقبل، لان الجو الذي خلقته الحركات السابقة التي قامت على الهواة والمحترفين، وعلى المترفين الذين كانوا يتسلون بالسياسة لا على المناضلين الصادقين، كان جوا مزيفا حجب عن الشعب حقيقة قضيته، فلم يكونوا يريدون أن يسمعوا ان قضيتنا مرتبطة بقضية الانسانية كلها. ولم يكونوا يتقبلون ان تكون مرحلة نضالنا ضد الاستعمار مرتبطة بالنضال الاشتراكي في الداخل، ولم يكونوا يفهمون ويستسيغون أن قضيتنا في كل الاقطار العربية هي قضية واحدة، ويجب توحيد النضال، وأن تنسجم خطوطه، وأن التجزئة التي فرضت على بلادنا هي مصطنعة وعارضة، وأن في أعماق الشعب ما هو كفيل بأن يجلو الصدأ ويزيل الزيف ويظهر حقيقة أمتنا وأنها أمة واحدة. وها نحن بدأنا نشاهد الصدأ يجلى والحقيقة يبرز وجهها ناصعا، عندما اتخذت مصر طريقها السوي إلى العروبة بعد أن كانت مضللة مدة طويلة، وكادت تفقد بذلك حركة

النضال العربي أكبر وزن وأكبر ثقل. هذا الذي يراه الكثيرون وكان يراه الساسة القدماء كمعجزة ليس لها تفسير، كنا نؤمن بأنه آت لا ريب فيه، وان حقيقة مصر العربية ستظهر في يوم من الايام.

تسمعون أيضا اصواتا ناشزة تقول: ان ما حصل الان من ائتلاف وتقارب بين أجزاء الأمة العربية هو شيء حسن ولكنه ليس شيئا أصيلا، وليس شيئا محتما وأن ظروفا معينة اقتضته، هي ظروف الكفاح ضد الاستعمار، وانه لا يغير شيئا في حقيقة الاقطار، الاقطار التي تؤلف وطننا الواسع، فلكل قطر تاريخه وماضيه وشخصيته وظروفه، وان القومية العربية شعار لمرحلة!

هذه آراء مستوردة لا تنبع من صميم القضية وفيها تناقض، اذ ان هذه السرعة التي تم فيها الانسجام وانجلاء الوعي العربي بين أقطارنا تدل على أن ثمة حقيقة كانت كامنة ولم تتطلب جهدا كبيرا حتى تظهر وتكشف عن نفسها، في حين أنه لو لم تكن هذه الحقيقة قائمة موجودة، لو لم تكن مقومات الامة موجودة في شعبنا العربي كله، لاستحال ان يظهر هذا الانسجام بين أقطار كانت متباعدة في أكثر الاشياء، وأنه كان يكفي ان تزال طبقة من السياسيين المحترفين حتى تعلن هذه الحقيقة عن نفسها وتفرض نفسها فرضا. وهذا التجاوب ماكان يتم لو لم يكن مستندا الى واقع حي.

آذار ١٩٥٧

الدور التاريخي لحركة البعث

عندما[1] نريد أن نلقي نظرة على تاريخ حزبنا ونفحص فيه مواطن القوة والضعف بكل موضوعية وتجرد نستطيع أن نقول ان حركة البعث تمثل شيئا جديدا في حياة العرب الحديثة في ناحيتي الفكر والعمل، رغم ما انتابها وما يمكن أن ينتابها من نواقص. انها أول محاولة جدية لتحريك القوى الثورية في الوطن العربي ضمن أهداف عربية وطريق عربي مستقل. ولا يمكن لحركتنا أن تدعي انها خلقت القوى الثورية، فالامة العربية تعيش مرحلة ثورية من قبل ظهور حركتنا. ولكن هذه الحركة حاولت أن تعطي الثورة العربية صيغتها الموحدة المنطقية الشاملة، وان تضعها في وقت واحد، في جو العصر الذي تعيش فيه، عصر المذاهب الاجتماعية والاقتصادية، وفي جو الروح العربية الاصيلة. لقد أعطت حركة البعث للعروبة مفهومها الحديث، ومضمونها الايجابي الثوري بعد أن كانت العروبة لفظة فارغة غامضة، واطارا فاقد الروح والمحتوى. وأصبحت القومية العربية مرادفة لحياة الشعب العربي ومشاكله السياسية والاقتصادية والفكرية، وأصبحت تعني في وقت واحد الثورة على التخلف والظلم الاجتماعي، والثورة على التجزئة وفي سبيل توحيد الوطن العربي، والثورة على أمراض المجتمع وعصبياته وامتهان كرامة الفرد والمجموع وفي سبيل الديمقراطية والقيم الانسانية.

لقد قدر لحزب البعث الاشتراكي أن ينقذ الاجيال الصاعدة من الضياع بين العصبية الاقليمية والثورة الاممية ووضعها في صميم العمل التاريخي، عندما وضح لها الحقائق التالية:

١ - ثورية المرحلة، وعقم الاعتماد على التطور والاصلاح الجزئي.

٢ - واقعية الثورة وطابعها الاقتصادي واعتمادها على جماهير الشعب.

٣ - وحدة الاهداف الثورية وتفاعلها، والتأثير المتبادل للنضال التحرري والنضال

---

(١) نص الحديث الذي ألقي في بيروت في احتفال القيادة القومية بالذكرى الثالثة عشرة لتأسيس الحزب.

الاشتراكي والنضال الوحدوي.

٤ ـ شمول القضية، وترابط مصلحة الشعب العربي في جميع أقطاره وضرورة توحيد نضاله.

٥ ـ الحرية كأعمق أساس وأقوى دافع. واعتبار القومية صورة حية عن الانسانية، واعتبار الامة مسرحا لتحقيق القيم الانسانية.

وبمقدار مايكون التوضيح العلمي الواقعي للاهداف وللمنطق الذي يربط فيما بينها وللطريق الذي ينبع من هذه الاهداف ويساعد على تحقيقها، بمقدار ما يكون هذا عملية خلق، ويكون حزب البعث قد أسهم في خلق هذا المستوى من التفكير والنضال الثوريين الذي بلغته بعض الاقطار العربية في هذا الوقت.

الا ان المساهمة الكبرى لحزبنا في خلق هذا المستوى الثوري الحديث هي نظرته الجديدة الى الوحدة العربية، هذه النظرة التي تختلف اختلافا جوهريا عن كل ما سبقها والتي أخرجت الوحدة من سجن الافكار العامة والألفاظ الغامضة ونفخت فيها الروح والحياة، وفتحت لها طريق التحقيق عندما ربطتها ربطا عضويا بنضال الشعب العربي من أجل التحرر والديمقراطية والاشتراكية.فلأول مرة يظهر مفهوم ثوري للوحدة العربية يحرج الرجعين والاقليميين والشيوعيين على السواء، يفضح الفئات الحاكمة الرجعية التي جعلت من الوحدة شعارا خادعا لتبرر به خضوعها للاستعمار ومقاومتها للنضال الاشتراكي، كما يفضح الاحزاب التي تقر الوحدة نظريا وتعمل على أساس استمرار التجزئة، كما يفضح أخيرا شعوبية الاحزاب المناهضة للوحدة التي استمرت في عدائها حتى بعد ان أصبحت الوحدة نضالا جماهيريا ثوريا واضح المعالم.

ولئن كان حزبنا أول من دعا إلى وحدة النضال العربي وعمل على تحقيقها فانه أيضا أول من دعا الى نضال الوحدة وحققه فعليا. لقد كان حزب البعث منذ تأسيسه اول من تجاوب مع نضال المغرب العربي وحرك جماهير الشعب لدعم هذا النضال وتقدير أهميته وأثره في المصير العربي كله، كما سعى الحزب دوما لا يصال صوته، رغم شتى العقبات، إلى الشباب الثوري في أقطار المغرب، من أجل توسيع أفق

نظرتهم القومية واطلاعهم على المفهوم الحديث للقومية العربية.

وكان لحزب البعث العربي الاشتراكي دور تاريخي في تحقيق أول خطوة عملية نحو الوحدة العربية اي في تحقيق الوحدة بين سورية ومصر، هذا الدور تشهد به الوقائع ويشهد به الشعب، ولا تجدي في انكاره او التقليل من شأنه المكابرة ولا المغالطة.

بقي ان نقول ان المجال الذي قصر فيه الحزب هو البحث الاشتراكي المنظم ووضع نظرية مفصلة للاشتراكية العربية. فلقد كان يكفي الحزب في السنوات الاولى لتأسيسه ان يعلن عن مبدأ استقلال الطريق العربي الاشتراكي، وان الامة العربية تبني لنفسها اشتراكية مستمدة من روحها وحاجاتها وظروفها. الا انه كان من الواجب ان نتجاوز هذه المرحلة الابتدائية ونطور فكرتنا ونعمقها ونغنيها بتجارب البلدان الاخرى. وهذه احدى مسؤوليات البعثيين الرئيسية في المستقبل القريب.

أما في السياسة الدولية فقد كان حزب البعث أول من دعا إلى سياسة الحياد بين المعسكرين العالميين، منذ عشر سنوات أو أكثر. وكانت سياسة الحياد التي نادى بها الحزب أكثر من سياسة، اذ انها تتصل بمبادىء البعث وفكرته الاساسية. ففكرتنا منذ البداية تدعو إلى حل ثوري جديد لمشاكل العالم، ينطلق من نظرة ايجابية إلى الانسان ويخلو من سلبية النظرية المادية وتعصبها وكفرها بالحرية.

وحركة البعث تؤمن بالانسانية وبأن للامة العربية رسالة انسانية. وهي لا تفصل بين القومية والانسانية، كما انها لا تفصل بين الحاضر والمستقبل، بل تسهر على ان تظهر صورة المستقبل العربي المنشود من خلال الحاضر الذي نبنيه. والمستقبل العربي اما ان يخلص لمبادىء النضال الشعبي فيكون مستقبلا جديدا مبدعا جديرا بحمل الرسالة، واما ان يستخف بهذه المبادىء والمثل ويعتبر انها كانت ضرورية لمرحلة معينة ثم استنفدت أغراضها، فيحمل في طياته بذور نواقص أساسية وانتكاسات جديدة. وفي هذا المجال يظهر الدور التاريخي لحركتنا أكثر من أي وقت مضى. ان فكرة البعث لم توجد لتضع نفسها مقابل الاستعمار وأعوانه وهي ليست جوابا على الاستعمار وأعوانه، بل هي جواب على سؤال تطرحه الامة العربية على

نفسها عندما تريد أن تتخذ موقفا تاريخيا من المبادىء والمثل التي تؤمن بها، وعندما تواجـه مسؤوليـة الرسالة التي تنتظرها. ان هذا الجواب الذي أعلنته حركة البعث منذ ظهـورهـا والـذي يأخـذ في المـرحلة الحاضرة أهمية خاصة، هو: اننا نريد أن تكون النهضـة العـربيـة عميقـة متينـة الاسس، غنية الروح، تقدس الحرية وتطبقها وتؤمن بالانسـان وتحتـرم حريتـه واستقـلالـه، نريـد أن نجنب النهضة العربية كل أثر ومظهر سلبي يتسـرب اليهـا كعـدوى وتقليـد للإعـداء والامراض التي كنا نحاربها، نريد أن يكـون طريق النهضـة واضحـا مشـرقـا، ووسـائل الثورة نبيلة مثل أهدافها. ونحن لا نستطيـع أن نصحـح السلبيـة بسلبية مثلها، بل بمزيد من الاخلاص لمبادىء البعث وبـاعطـاء البـراهين الجـديدة على ايماننا بالحرية وبجدارة الانسان عامة، والانسان العربي خاصة، بممارسة هذه الحرية.

ان امام حركتنا مستقبلا واسعا ومسؤوليات كبرى، فثمة أقطار عربية ما زالت تنتظر ان تدخلهـا فكـرة البعث لتتفـاعـل مع نضـالهـا وتغنيـه، أمامنا أقطار المغرب العربي والسودان وبلدان الخليج العربي والجنوب. وأمامنا اقطار في المشرق العربي يناضل فيهـا حزبنـا نضـالا بطـوليـا ضد الحكـام الرجعيين والانتهازيين، وأمامنا الجمهورية العـربيـة المتحـدة التي ساهمنـا في بنـائهـا كطليعـة تقدمية للوحدة العربية، وما زلنا مسؤولين عن تثبيت دعائمها وتعميق ثورتها وتصحيح بعض مفاهيمها.

٧ نيسان ١٩٦٠

الباب الثالث

البعث العربي والإنقلاب

حزب الانقلاب

السؤ ال المطروح للمناقشة الآن يدور حول معنى الحزب، ماهو الحزب وما هي الصورة الصادقة للحزب الذي تحتاجه أمتنا. لا اريد أن أبحث في حزب البعث العربي بصورة خاصة ولا أريد أن أدخل في موضوع طويل مفصل عن مبادىء البعث العربي، كل ما أبغيه من هذا الحديث هو ان احدد بصورة واضحة ومختصرة الفارق الجوهري بين وظيفته في أمم أخرى وأوضاع مختلفة.

في أمم العالم الراقية ينظر الى الحزب على أنه نموذج للدولة أو تصميم لدولة مقبلة أو لاصلاح دولة قائمة، فالحزب يتخذ في مبادئه وفي تشكيلاته وأعماله أوصاف الدولة وأهدافها. وغاية ما يطمح اليه الحزب في تلك البلاد ان يعد تمام الاعداد جهازا جديدا يستطيع في الوقت المناسب عندما تتوافر الشروط وتحين الفرصة أن يستلم الحكم ويدير الدولة. فهل هذا هو مبتغانا وهل هذا ما نحتاج اليه وهل هذا هو مايلبي حاجتنا ويسد النقص الذي نشكو منه؟

عندما تقوم الاحزاب في البلاد ذات الاوضاع السليمة السوية لا يكون النقص الا في الدولة، ولا يكون هذا النقص في الدولة نقصا فادحا جوهريا خطيرا، فيعمل الحزب في وقت قد يطول وقد يقصر على اعداد الرأي العام لتأييد وجهة نظره او رأيه وعلى اعداد أعضائه والصفوة منهم لكي يستطيعوا عندما يتولون الحكم أن يصلحوا ذلك الخطأ الذي يرونه في الدولة في ناحية أو أكثر. والدليل على بقاء الامة سليمة في الدول الاخرى هو ان الاحزاب على اختلافها وتناقضها أحيانا يكمل بعضها عمل بعض. ولكن الحزب هناك قلما يتعرض للأمة لأن الخلل في البلاد ذات الاوضاع السليمة لا يتجاوز الدولة ولا يصل الى الامة، فالامة هناك قائمة وهي شيء حقيقي راهن قوي منسجم للحد الكافي واع لذاته ومصلحته، وانما الخلل في من تولوا ادارة تلك الامة وفي الجهاز الاداري او ناحية من نواحي ذلك الجهاز.

لننظر الآن في حالتنا، في حالة الامة العربية، هل النقص والخلل هما في الدولة فحسب، هل كل ما نحتاجه هو ايجاد دولة قوية واعية منظمة؟ ولنتساءل لكي

يتوضح الموضوع أكثر من ذلك، لنتساءل ما هي الدولة؟ الدولة آلة لا أكثر، الدولة جهاز، الدولة جسم لا روح فيه وانما هي آلة مدبرة عاملة لان المشرفين عليها هم أشخاص احياء غالبا ما يكونون من ذوي الخبرة والقدرة. وكل ما يطلب من الدولة هو أن تضمن تسيير الافراد وسلامة العلاقات بين الأفراد والمواطنين وبين ذلك الشيء المعنوي الذي هو الدولة والممثل في حكومة ومجلس وغير ذلك، فهل اذا تصورنا امكان قيام دولة منظمة في بلادنا نستطيع أن نطمئن الى ان الغاية الكبرى قد بلغت أم هل نستطيع أن نتصور امكان قيام دولة مدبرة ومستقيمة الحالة اذا لم يكن ثمة أمة حية منسجمة واعية؟ فالفارق كل الفارق بين حياتنا وحياة الامم الراقية هو ان ما نحتاج اليه هو معالجة الامة، وما نقص الدولة عندنا وكل النواقص الفادحة التي تعتري الدول القائمة في البلاد العربية الا نتيجة لذلك النقص الاساسي الموجود في حياة الامة.
فاذا صح هذا التفكير يكون واجب الحزب ورسالة الحزب الذي ينشأ في بلادنا ويعول عليه لتلبية الحاجات العميقة الاساسية أن يعالج الامة قبل معالجة الدولة، وتكون بالتالي رسالته أن يكون على صورة الامة المبتغى خلقها اوبعثها لا على صورة الدولة، فاذا قامت الاحزاب في بلاد الغرب على صورة الدولة وكانت تكتفي بالجسم دون الروح فلأن بلادهم لاتتطلب أكثر من ذلك، ولكننا نحن في حالتنا هذه، في وضع الامة العربية الآن، انما نحتاج الى حزب، الى حركة تمثل بالدرجة الاولى عنصر الروح وتخلق عنصر الروح والحياة وتتوفر فيها هذه الروح لتشع منها فيما بعد على المجموع الأكبر، والحزب الحقيقي، الحزب الحي، الذي يمكن أن يؤدي رسالة في العصر الحاضر للامة العربية هو الذي يجعل هدفه خلق أمة أو بعثها شريطة أن يحقق هذا الوصف في نفسه أولا، أي أن يكون هو أمة مصغرة للامة الصافية السليمة الراقية التي يريد أن يبعثها. ليس غريبا أن نسمع في بلاد العرب من أقصاها الى أقصاها منذ حين وخاصة في الزمن الاخير تتردد كلمة تخرج من أفواه البسطاء قبل المثقفين وكأنها كلمة السر وكأن فيها العلاج والحل والخلاص هي كلمة الانقلاب.
ليس غريبا أن نسمع ذلك اذا رجعنا الى الماضي والى التاريخ واستجوبناهما، عندها نرى حقيقة لاتكاد تكون موضع خلاف، وهي ان العرب في تاريخهم الطويل

لم يعرفوا غير نوعين من الحياة، الانقلاب والانحطاط، خلافا لكثير من الامم التي عاشت في الماضي ولكثير من الامم التي تعيش في الحاضر، هذه تكاد تكون ميزة أو علامة فارقة حقيقية للامة العربية. اما أن تقوم بانقلاب يحدث نهضة تفيض على بلاد العرب وتبلغ الشمول وتصبح نهضة عالمية انسانية واما أن توغل في النوم والانحطاط. فليس من حل وسط في تاريخ العرب، أوما يصح ان يسمى تطورا، في حين أننا نعرف أن تاريخ الامم الاوروبية منذ مئات السنين عبارة عن تطور في أكثره، والانقلاب هو الاستثناء والشذوذ عن القاعدة. فاذا نظرتم الى ما يقاسيه العرب في هذا العصر من المصائب والكوارث التي تتوالى عليهم، وكل واحدة أثقل وأفدح من التي سبقتها، اذا تدبرتم هذا الواقع المر الذي نعيش فيه والذي يكاد يوصل الى اليأس وأخذتم بعين الاعتبار تلك النظرة التي ألمحت اليها، وهي أن الامة العربية بطبيعتها لاتعرف حلا وسطا فهي اما أن تعيش على الانقلاب وأما أن تعيش في الانحطاط، واذا نظرتم من جهة الى قسوة الواقع ومرارته، ومن جهة اخرى الى تلك الظاهرة التي هي بمثابة قانون، أدركتم ان ايغال العرب فيما يبدو في الظاهر انه تأخر وانحطاط هو عبارة عن تحفز للانقلاب الذي هم مهيأون له.

اذا كان الجسم جبارا فأفضل له العري من لبس ثوب ضيق، واذا كانت النفس عظيمة الاهداف والغاية فالفقر والعدم أشهى اليها من المادة المتواضعة التي لاتروي رغبتها وعظيم حاجتها. فمصيبة العرب في هذا الدور هو أن الطبقة التي فرضت نفسها عليهم تعيش في طريق معاكس تماما لنفسيتهم وآمالهم، فهي طبقة شائخة طبقة فاسدة أفسدها الترف، أفسدها الاستثمار، أفسدها ظلمها للآخرين، ونفسية الظالم، نفسية المستثمر، نفسية الغاصب هي دوما نفسية شائخة هرمة متعبة لذلك تنظر هذه الطبقة الى أبسط الامور وتحسبها غاية ما يطمح اليه ويرغب فيه، تنظر الى مظاهر بسيطة من التقدم فتقول للشعب، للأمة العربية جمعاء، هذا أقصى ما يمكن أن تصلي اليه. عندها تفضل هذه الامة التي اعتادت على أحد حالين لا ثالث لهما اما أن تلبس الثوب الذي يوافقها أو أن تبقى عارية، اما أن تملك الوسائل التي تساعدها على تحقيق رسالتها في الحياة او تكون فقيرة معدمة، عندها تفضل هذه

الامة ان يطول أجل خلاصها من أن تقبل بخلاص مزيف، فاذا قلنا ان الحزب الذي تناديه الامة العربية من أعماقها والذي تدعوه الامجاد العربية من ماضي التاريخ العربي السحيق هو الحزب الذي يجعل الامة غاية له لا الدولة، وان يكون هو امة مصغرة تكون نموذجا للامة الشاملة، اذا قلنا ذلك لا نكون قد ابتعدنا عن الحقيقة اذ كلنا نشعر هذا الشعور، نشعر أن احتياجنا ليس الى اصلاح جهاز الدولة أو ترميم خلل موضعي وانما هو الى انقلاب عميق شامل. فاذا كان ذلك صحيحا، اذا كانت هذه الحاجة صادقة فكيف يكون الحزب صاحب الرسالة قادرا على حمل رسالته؟

هو كما قلت ان يكون امة الانقلاب قبل ان يحقق انقلاب الامة وهذا يعني ان هوة سحيقة، ان فارقا أساسيا حاسما قد وضع بين الواقع، بين الحياة الواقعة في بلاد العرب، وبين هذا التكوين الجديد الذي هو الحزب، فرقا جوهريا في النوع، فرقا مطلقا لا يقبل النسبية ولا يتعرف عليها. ان يؤلف الحزب من نوع جديد يختلف في كل شيء عن الواقع الذي نثور عليه ونريد التخلص منه. فأمة الانقلاب التي هي الحزب يجب أن تبرهن ليس فقط في الاهداف المكتوبة، ليس فقط فيما تضعه على الورق من برامج ومناهج وأساليب التنظيم، بل تبرهن على عقلية جديدة، على روح جديدة، على خلق جديد، لاتجمعه بالواقع الفاسد اية رابطة أو جامعة، ان لذلك علائم ودلائل وليس من الصعب أن نلمس الدلائل التي تدلنا على ان هذا التركيب الجديد، هذه الامة المصغرة، هذا الحزب، هو فعلا انقلابي ام انه لايحمل من الانقلاب الا اسمه وعنوانه. وهذه الدلائل هي ان تتحقق في الحزب نفسه، في أخلاق أعضائه واسلوب عملهم وفي طريقتهم نحو تحقيق أهدافه، أن تتحقق كل الفضائل التي يبغون خلقها في المجتمع المقبل. لايمكن أن يكون الحزب مماثلا مشابها متجانسا مع الواقع الفاسد المريض وأن يدعي أن باستطاعته خلق مجتمع صحيح جديد، فكما اننا نريد أن تكون امتنا في مستقبل قريب أمة حية منسجمة حرة طليقة من كل الاعتبارات البالية، يحتل فيها المواطن المكانة التي تؤهله اليها كفاءته وخلقه واخلاصه، كذلك يجب أن يكون الحزب الانقلابي محققا لهذه الصفات في تشكيله، وفي أثناء طريقه نحو غايته. اذا لم يكن الحزب الانقلابي مجالا لظهور

الكفاءات المخبوءة في الامة، اذا لم يكن مجالا لاحتلال كل فرد حسب ما تؤهله اليه قدرته لا اسمه ولا اسم عائلته، اخلاصه لا وجاهته او وسائله المصطنعة الخارجية، اذا لم يكن الحزب منذ بدئه في طريق النضال قادرا على تحقيق هذه الفضائل التي يدعو الشعب اليها ويسعى الى تحقيقها في الامة فكيف يمكنه أن يحققها في ما بعد؟ لنقل باختصار ان مستقبل العرب متوقف على هذه المرحلة من النضال، فاذا لم نقدر خطورتها التاريخية، اذا لم نكن واثقين من اننا نكتب صفحة جديدة في تاريخنا وفي تاريخ الانسانية فلن نقوى على تحقيق شيء. اما ان نأتي بشيء مبدع خطير يقلب حياة العرب من الذل الى المجد ومن الانحطاط الى الرقي، واما ان تفشل محاولتنا فشلا تاما، لن نعرف الحل الوسط، وقديما قلنا في أكثر من مناسبة ان التطور يعني التأخر واننا لانستطيع أن نعتنق النظرة النسبية، وان نقول ان هذا الحزب رغم كل أخطائه ونواقصه هو خير من كل الاحزاب الاخرى.

هذا لايمكن أن يسمى مديحا او حسنة أو فضيلة، الفضيلة الحقيقية التي يجوز أن نسميها فضيلة في الحزب هي عندما نقول انه يناقض الاحزاب الاخرى والواقع الفاسد. ان النظرة النسبية تقضي عليه بالعقم، وبالفشل على كل حركة. فنحن اذا وعينا هذه المسؤولية، وهي مسؤولية تاريخية، واذا قمنا بما ترتبه علينا من واجبات نكون اعددنا لمستقبل الامة العربية ليس فقط جنودا محاربين بل أفرادا مناضلين، وأشخاصا واعين مفكرين. بل اننا نكون أعددنا لمستقبل الامة العربية روحا صادقة أصيلة قوية ذات طاقة تقدر وتستطيع أن تفجر الحضارة تفجيرا، وأن تملأ صفحات التاريخ بالابداع في مختلف نواحي الحياة. ولا ننسى أن حضارة العرب في القديم لم تكن ممكنة وما كانت لتتحقق لولا تلك الفترة النضالية التي لم تتجاوز عشرات السنين، ولكنها كانت هي الخميرة الروحية، كانت هي الكنز النفسي الخلقي الذي سمح للعرب فيما بعد أن يتوسعوا وينتشروا ويختلطوا بأمم عديدة في جو حضاري مترف ومع ذلك أن يحتفظوا بقوة الابداع وبقوة الخلق.

شباط ١٩٤٩

البعث العربي هو الانقلاب

سأتناول[1] في حديثي معنى من معاني حركتنا، هذا المعنى هو ان البعث العربي يتلخص في كلمة الانقلاب. ولا اعتقد المجال متسعاً للافاضة ولتناول الفكرة من مختلف نواحيها، فأكتفي في هذا الحديث بأن القي ضوءا على الروح التي تدفع حركة كحركتنا.

لكل حركة روح او عاطفة او صورة تسبقها وتحفز على تحقيقها، ووراء كل حركة نظرة الى الحياة تكون صميمة راسخة في أذهان الذين يقومون بالحركة، وهي التي تلوّن حركتهم وترسم لها منطقها. فما هي اذن روح الانقلاب او فلسفة الانقلاب او عاطفته؟.

ان مجتمعنا العربي يوحي الى ابنائه الذين يشعرون بصلة صادقة به انه بحاجة الى بعث الروح، لأن ما آل اليه من انحراف وتأخر وتشويه ليس مجرد مظهر، بل هو نتيجة لفتور او نضوب شاب الروح العربية في فترة من الزمن بفعل عوامل كثيرة مختلفة. هذه النظرة التي تحدونا الى العمل وترسم لنا منطق عملنا تتلخص هكذا: اننا نشعر بأن مجتمعنا العربي بحاجة الى ان يغالب نفسه ويناضل نفسه، بحاجة الى بذل جهد ومشقة كبيرة حتى يسترد ذاته الحقيقية، حتى يصل بالجهد والمشقة الى اصالته، حتى يتحرر من الزيف الذي اصابه. ولا يكون التحرر سهلا ولا بدون ثمن، فنحن نعتقد ان العرب عليهم ان يدفعوا الثمن حتى يصلوا الى حالة جديرة بهم، لائقة بعبقريتهم، لائقة بماضيهم، وكل ما يأتي سهلا رخيصا يكون سطحيا مصطنعا. الانقلاب تعبيره العملي هو النضال، والنضال له معان كثيرة او له معنى واسع لاينحصر في النضال السياسي وحده. وقد يظن بأن النضال اسلوب للعمل وهذا هو الشائع والمطبق عند الكثيرين، في حين ان النضال بالنسبة الى العربي ليس اسلوبا فحسب وانما هو غاية في حد ذاته.

---

(١) حديث ألقي في مكتب الحزب في حمص.

النضال، الذي هو التعبير العملي عن فكرة الانقلاب، انما يقصد به ان تغالب الامة العربية نفسها بعد تلك الغفوة الطويلة، بعد ذلك الاسترخاء، بعد ذلك الاستسلام للحياة السهلة اللينة، بعد ذلك الابتعاد عن روح الحياة الجدية القاسية، ان يعود اليها الحنين لمصارعة الحياة والقدر، ان تنظر للحياة نظرة عميقة بطولية، وأن ترى القيمة في الجهد قبل ان تراها في ثمره الجهد. ان الآفات التي يشكو منها مجتمعنا ليست بالآفات السهلة، فالفكر مقيد مستعبد فقير هزيل مقلد. والشخصية سطحية ضعيفة الثقة بنفسها لاتقوى على الاستقلال ومجابهة الامور بصراحة. والروح فقيرة وناضبة، آفاقها محدودة، وجوها هابط منخفض. هل تمحي هذه الآفات؟ هل يسترد العرب معنى الحياة الاصيلة بمعجزة من المعجزات، او بتغيير في شكل الحكم او اشخاص الحكام، وهل هذه المظاهر تكفي لكي تتحول الامة العربية من امة تعيش على هامش الحياة والابداع، تتطفل على انتاج غيرها وقلما تحسن استعمال هذا الانتاج، هل تستطيع امتنا ان تنتقل من حالة كهذه الى حالة المساهمة الصادقة في الحضارة والابداع، ان يكون لها اثرها البيّن الواضح في حضارة العالم وفي تفكير الانسانية، وهل تعود الى نبع الحياة لتستلهم القيم الخالدة وتنشرها وتذيعها على الآخرين؟ وكيف ننتقل من حالة الى نقيضها اذا اكتفينا بتغيير المظاهر والاشكال دون تغيير في الروح؟. . لانصل الى الروح والاعماق الا عن طريق هذه المشقة، هذا الانقسام الداخلي في نفس الأمة ذاتها، هذه الحرب العنيفة التي لاتداني قسوتها قسوة الحروب الخارجية مع الاعداء الالداء.

أيها الاخوان، اننا نعيش في مستوى هابط من الروح، في جو فاتر يجب أن تدب فيه حرارة لاهبة تصهر النفوس وتفتح المواهب وتفجر العبقريات والبطولات وتطلق الايمان من ينابيعه العميقة. كيف نوحد بين افراد هذه الامة الذين باعدت بينهم الانانية والمصالح الشخصية والاستسلام للحياة الرخيصة النفعية والاستسلام للأوهام والتنافر والخصومات العنيفة الحقيرة؟ كيف نحقق من جديد امة واحدة تتعارف وتتآلف اذا لم يكن ذلك في طريق نضال لاهب وعر شاق يضطر كل فرد من افراد الامة العربية الى ان يعود الى نفسه، ان يغوص في اعماقه، ان يستكشف نفسه

من جديد بعد التجربة والألم. . عندها توجد الوحدة الحقيقية التي هي نوع جدي مختلف عن الوحدة السياسية، توجد وحدة الروح بين افراد امة كانت في القديم واحدة ثم اصبح كل فرد منها نتيجة العزلة والأنانية والنفعية يعيش غريبا عن اخوانه، وانتصبت بين اجزاء الامة الواحدة حواجز باردة جامدة من هذه الانانية والنظرات السطحية. فلا تعود الوحدة الا في جو النضال الحار.

كيف يعود الينا ماضينا، هذا الماضي الذي نتغنى به ونحنّ اليه، وكثيرا ما نختلف على تفسيره ومعناه. فمنا من يحسب أن مجرد تقليد اشكاله الجامدة يعيد الينا سر قوته وعبقريته، ومنا من تنفره الاشكال فيعرض حتى عن الروح ويحاول ان يتنكر لهذا الماضي وينكره وينكر كل صلة به.

في ماضينا روح اصيلة، في ماضينا حياة حرة سامية، ولكنني اعتقد ان تلك الروح، تلك الاصالة وذلك السمو لايمكن ان نفهمه أو نتصل به بشكل من الاشكال اذا لم نصعد اليه صعودا شاقا داميا، اذا لم نستحقه استحقاقا كريما لائقا. فكل ما نطمح اليه من اسباب الخلاص، من اسباب التقدم والرقي، يجب ان يعتبر اهدافا بعيدة صعبة لايليق بالعرب ان يحتالوا عليها احتيالا لينالوها بغير ثمن، وانما ان يمشوا اليها مؤمنين صابرين، وان يعرفوا بأن قيمة تلك الاهداف هي في ان يجتازوا كل الطريق الموصل اليها.

اننا ننظر الى امتنا هذه النظرة ونؤمن بأنها امة واحدة وهذا الايمان نفسه يدعونا الى اعلان الانقسام فيها، لانها لن تسترد وحدتها، لن تبلغ هذه الوحدة المثالية التي هي الآن نظرية مبدئية، الا اذا انقسمت على نفسها. ولكننا في هذا الصراع نحتفظ بالمحبة للجميع. عندما نقسو على الآخرين نعرف ان قسوتنا عليهم هي في سبيل ارجاعهم الى نفوسهم والى حقيقتهم، وعندما يقسو علينا الآخرون نعرف ان نفوسهم الحقيقية التي يجهلونها، ارادتهم الكامنة التي لم تتضح بعد، هي معنا، وان كانت سيوفهم علينا.

ايها الاخوان: عندما اقول ان النضال بمعناه الواسع العميق هو السبيل الى بعث الروح العربية وتحقيق الانقلاب العربي، وعندما أشترط المشقة الكبيرة سبيلا لصدق

هذا النضال، لا اكون متشائما أو داعيا الى التشاؤم بل على العكس، لأن هذه الصعوبة نفسها هي التي تمهد الطريق وتسهله.

عندما ينفتح طريق النضال الجدي امام طليعة الامة العربية، عندها تتوضح الفوارق بين النوع الجدي من المواطنين، النوع الذي حرر نفسه من المصلحة والشهوات، وبين النوع الذي استعبدته المصالح والذي ضعفت نفسه عن الايمان بكفاءة امته وبقدرتها على انقاذ نفسها بنفسها. مجرد هذا الانقسام، مجرد هذا التوضيح بين النوعين، ينقذ الامة من الغموض الذي تعيش فيه، ومن الشك، لأنها ترى صورة صغيرة عن مستقبلها، لأنها تلمس جزءا من حقيقتها التي تشعر بها والتي أصبحت حقيقة واقعة امامها. ان مجرد تقدم الطليعة المناضلة الى الأمام يوقظ البذور الخيرة في نفس كل عربي، لأن العروبة تعني التفاؤل، تعني الايمان أن في كل عربي امكانيات للخير والتجدد، ولأن يعود العربي الاصيل الى أصله.

فطريق المناضلين صعب في الظاهر سهل في حقيقته، لانهم يحاربون ليس بقواهم وحدهم، ليس بعددهم المحدود الضئيل، وانما يحاربون ايضا بمصلحة العدد الأكبر من الشعب العربي الذي يوقظه تقدمهم في الطليعة فيستكشف ذاته ومصلحته وطريقه، يحاربون بالارادة الكامنة التي تجيش في صدر الامة جمعاء، هذه الارادة التي يعوزها المثل والقدوة الجريئة حتى تنتقل من حالة السكون والغفوة الى حالة اليقظة والفعل.

واني اتمثل بمعنى آية كريمة وهو أن العرب المسلمين في زمن ظهور الدعوة كانوا ينتصرون بعدد قليل لأن الله يمدهم بجنود لاترى ولا يراها اعداؤهم. اني أفهم من هذا المعنى ما يتفق تماما مع حالة الطليعة المناضلة في مرحلتنا الحاضرة، فالجنود غير المنظورة التي تحارب مع هذه الطليعة هي مصلحة العدد الاكبر لأنها تعني بقاء الامة وحفظ كيانها وتحقيق تقدمها. وهذا التجاوب بين الحركة الانقلابية وبين مصلحة العدد الاكبر من الشعب هو وحده الذي يضمن لهذه الحركة الفوز والنجاح.

أيها الاخوان: اننا نعتقد بأن الروح هي الاصل في كل شيء... الدافع الروحي العميق لايسيطر على المادة والوسائل فحسب، وانما يخلقها ايضا. فالانقلاب يجب

ان يتناول الروح مباشرة وأن لاينحصر أو يتوقف عند حدود الاشكال والمظاهر. لو فرضنا أن صدفة من الصدف أومعجزة من المعجزات حررت العرب في يوم واحد من جميع هذه المظالم والمفاسد التي تقف حجر عثرة في سبيل حياتهم وتقدمهم، وأن الحكومات زالت بفعل سحر عجيب من طريقنا وحلت محلها الحكومات النزيهة القومية الغيورة على المصلحة العامة، هل تعتقدون بأن الانقلاب العربي يتحقق؟

انني أعتقد بأن شيئا من هذا لايكون، لأن التبديل السطحي الذي لايمس الروح والذي لايفتح الفكر والذي لايهز الخلق ويقومه والذي لايفجر الايمان نتيجة المصاعب، ان هذا التبديل السطحي لايلبث أن يتحول الى ما كان عليه الامر في السابق.

المجتمع العربي المنشود والمستقبل الذي ننشده والذي تتحقق فيه الروح العربية، ويتحقق فيه العدل وسلامة التركيب بين أفراد الامة وطبقاتها، هذا المستقبل يجب ان تهيأ له ادوات حية من البشر تكون من نوعه وجوهره حتى تكون أمينة في تطبيقه، واعية لأساليبه وطرقه. ان النضال الذي سميته التعبير العملي عن الانقلاب، هو الذي يخلق الأدوات الحية، أي المناضلين، الذي يصبح الانقلاب شيئا حيا في نفوسهم وعقولهم واخلاقهم، أو يصبح حياتهم ذاتها، فلا بد اذن من اجتياز هذا الطريق الذي يخلق لنا المناضلين تباعا، والذي يكون امتحانا للنفوس القوية المثالية التي تتعفف المصلحة الشخصية وتنظر الى الحياة نظرة أبعد وأرفع من اللذات والاستمتاع، والتي ترى فيها تحقيقا لعنصر سام سماوي وجد في الانسان لكي يشع في سلوكه. هذا النضال هو المصنع للأدوات الانقلابية الأمينة الوفية.

عام ١٩٥٠

التنظيم الانقلابي

ان الصفة المميزة للبعث العربي هي انقلابيته، اذ قد توجد احزاب تهدف الى تحقيق بعض مبادىء البعث العربي او كلها ولا تكون انقلابية لأنها لا تكون صادقة في تبنيها تلك المبادىء ومحاولتها تحقيقها. فالبعث العربي، لايفترق عن الاحزاب الرجعية فحسب، تلك الاحزاب التي تقاوم عن وعي وتصميم الدولة العربية الموحدة الاشتراكية التقدمية بل يفترق ايضاً عن الاحزاب التقدمية الزائفة التي تدعي ان بأمكانها تحقيق الوحدة والحرية والاشتراكية، او بعضا من هذه الاهداف عن غير طريق الانقلاب. فالانقلاب في البعث العربي ليس هو الطريق الصحيحة لتحقيق مبادئه فحسب بل هو أيضاً محك واختبار لصدق تلك المبادىء واخلاص معتنقيها.

وكما ان الانقلابية تفرض نوعاً معيناً من العمل في الوسط الخارجي السياسي والاجتماعي فهي تفرض كذلك نوعاً معيناً من التنظيم والسلوك في داخل الحزب. فالحزب الذي ينبري لمقاومة الاحزاب الرجعية والاحزاب التقدمية الزائفة، لا يستطيع ان يؤدي مهمته الا باتباع اسلوب صارم شديد يضمن له وحدة الاتجاه وتماسك العمل وقوته. ولقد ادت حركة البعث العربي للقضية العربية حتى الآن خدمتين كبيرتين، الاولى توضيح الاهداف العربية الصحيحة وما بينها من ترابط ووحدة، والثانية توضيح الطريق الصحيحة التي تضمن تحقيق هذه الاهداف. وقد امتلأ الجو العربي بهذه الافكار النظرية والعملية التي نشرها البعث العربي، ولكن بقيت المهمة الثالثة والاكثر خطورة من سابقتيها وهي خلق الأداة الفعّالة الصادقة الملائمه لحمل الاهداف العربية والسير بها في طريق الانقلاب. ويمكن القول بأن عمل البعث العربي كان اكثره حتى الآن مقتصراً على التوجيه، اي على تهيئة الجو الخارجي والاستعداد الفكري والنفسي لتقبل الفكرة. ولكن دور العمل الخاص بالبعث العربي كحركة منظمة تضم افراداً مؤمنين منسجمين ما زال ينتظر التنفيذ.

ان تحقيق الانقلاب العربي المنشود رهن بتجسيد الروح الانقلابية في نفوس اعضاء البعث العربي وعقولهم، وان انضمام الافراد الى حزب البعث العربي لايعني

خروجهم من الواقع الفاسد وتهيؤهم لمحاربته والظفر عليه الا اذا تجسدت الروح الانقلابية في فكرهم وسلوكهم. فاذا لم يتحقق هذا الشرط الاساسي بقي انفصالهم عن الوسط الخارجي شكلياً وانتماؤهم الى الحركة الانقلابية سلبياً، اذ لا قيمة لمبادىء يعتنقونها ولا يتحملون تبعاتها ومنطقها العملي الدقيق. وليس البعث العربي مدرسة فكرية حتى يكتفي باعلان حقيقة آمن بها، وانما هو حركة رسالتها النضال في سبيل ظفر هذه الحقيقة.

ان التنظيم الانقلابي هو الذي يضمن تحقيق هذا الانفصال الحاسم بين الواقع الفاسد ونفسيته المنفعلة واخلاقه النفعية وعقليته الرجعية، وبين حركة الانقلاب أي الجيل العربي الجديد المتحرر من كل هذه الامراض. ومهمة هذا التنظيم الاساسية هي التوفيق والتوحيد بين غايتين تبدوان في الظاهر مختلفتين متناقضتين، خلق الفرد العربي الذي هو أساس الجيل الجديد، الفرد الواعي المسؤول المؤمن، ثم جعل هذا الفرد أداة فعّالة صادقة في الحركة التي ستغير تاريخ أمته. وكما أن كل اهمال لايقاظ الوعي والمسؤولية الاخلاقية والايمان الروحي في نفس هذا الفرد ينتقص من انتمائه للحركة الانقلابية وانسجامه معها، فكذلك كل تهاون في ضبط هذا الفرد في منطق القدر التاريخي الذي يرتب عليه ان يكون اداة منفذة لهذه الحركة يجعل منه عنصر عرقلة وهدم وتخريب. هذا التوفيق بين الغايتين هو الذي يجعل الفرد العربي عضواً بعثياً.

الحركة الانقلابية مسؤولة عن تهيئة ادوات صادقة للانقلاب، أي عن انسجام اعضائها مع نظرتها ومبادئها، وبهذا المعنى نقول ان لا فرق بين الغاية والوسيلة وان الوسيلة جزء متصل بالغاية نابع منها، وأنها ليست مجرد طريق تختاره للوصول الى الغاية بل اشعاع من الغاية يعين لنا الطريق الموصل اليها. والحركة مسؤولة بالدرجة نفسها عن نجاحها في اداء مهمتها، أي عن ضرورة تماسكها ووحدتها واطراد نموها واتساعها، والتنظيم المطلوب هو الذي يضمن للحركة وحدتها واتساعها، مع بقاء العقلية والاخلاق والروح الانقلابية مسيطرة عليها.

للحركة الانقلابية كما ذكرنا نوعان من الاعداء، العدو السافر وهو كل الفئات

والاحزاب الرجعية (والرجعية تشمل الرجعية السياسية والفكرية والاقتصادية) والعدو المقنع وهو الاحزاب والفئات القومية التقدمية الزائفة، لذلك كان عليها واجبان: المحافظة على اتجاهها الفكري، والمحافظة على اتجاهها العملي. فكل تساهل او انحراف في المبادىء يوقعها في شراك الرجعية، كما أن كل تساهل أو انحراف في اسلوب العمل يهددها بالتجزئة والتناثر. فالتنظيم المطلوب هو الذي يقيها هذين الخطرين فيضمن ثبات الفكرة ووحدة الحركة.

ان التنظيم الملائم للحركة الانقلابية هو الذي يستمد من تعريفها، فهي حركة تاريخية فاصلة يتوقف على نجاحها مصير ملايين العرب وبقاء الامة العربية. ان الحركة الانقلابية لاتزال في بدء تكوينها وأولى مراحلها، أي أنها نواة صغيرة جداً في كيان الأمة الكبير، ومع ذلك فهي مسؤولة عن هذا الكيان كله. لذلك فهي تنظم سيرها لا بالنسبة الى واقعها الحاضر بل بالنسبة الى هدفها البعيد النهائي، وهذا هو معنى مثاليتها. ومثالية البعث العربي ليست من قبيل التصوف الروحي او التحرج الاخلاقي او الفكري النظري، وانما هي تقدير المسؤولية القومية التي تجعل كل خطوة مِن خطى المعركة ذات اثر بعيد في مصير الأمة كلها.

حمص، ٢٣ شباط ١٩٥٠

الزمن والحركة الانقلابية

الحركة الانقلابية بتعريفها تعني عدم ترك الزمن يسيطر على مقدرات الامور. فالانقلاب معناه ان حالة الامة بلغت حداً من السوء، اصبح معه تركها للظروف والتطور امراً يعرضها للهلاك، وانه لابد من ظهور الحركة التي تقوم بتبديل الاوضاع قبل ان يفوت الوقت. فهي اذن الحركة التي تعجل سير الزمن.

والحركة الانقلابية هي نقيض الحركة الاصلاحية، فأكثر السياسيين في بلادنا يقولون بالاصلاح التدريجي، ويرفضون كل تبديل عميق. لان في التبديل العميق معنى العنف ؛ فالتبديل العميق في الحياة الاقتصادية عندنا يعني مثلاً انتزاع الاراضي من يد الاقطاعيين وتوزيعها على الفلاحين، وهذه الفكرة هي مرفوضة من قبل هؤلاء التطوريين، لأنهم هم اصحاب المصالح الذين يحرصون على بقاء مصالحهم، وهم يدعون ان مثل هذا التبدل العميق الحاسم في اوضاعنا الاقتصادية لا يتم بدون ثورات واضطرابات واخطار لذلك هم يفضلون التطور البطيء.

ففكرة السرعة هي من صميم الحركة الانقلابية، وهذا يفترض ان تكون هناك حركة تستطيع السيطرة على الزمن وتعجيله، ووجود هذه الحركة يتطلب بحد ذاته بعض الزمن. فاذا قيل لنا بأن الوقت الذي نقضيه في تكوين حركتنا هو اضاعة للوقت وانه يوصلنا الى يوم نرى فيه الاخطار تداهمنا ولا نستطيع دفعها، عندها نجيب بأننا جربنا كل الاستعدادات التي تستطيع التكتلات والمنظمات الحاضرة التي هي ليست انقلابية ان تعطيها، فلم تتمكن من دفع الأخطار وحفظ سلامة البلاد. ولمسنا لمس اليد بالتجربة المرة المتكررة ان هذه الاستعدادات كانت واهية جداً وخادعة لأنها لم تقم على أساس الوعي والمسؤولية والجدية والايمان والتجرد عن المصالح الخاصة، فكانت علاجات مخدرة لا اكثر، وكانت هي التي تأتي بالنكبات والخيانات. وعلى هذا اصبح وجود الحركة الصحيحة امراً وضرورة لامفر منها ولو اقتضى الأمر ان ننتظر طويلاً. فقد علمتنا الحوادث والتجارب ان الارتجال لايوصل الى النتائج المحمودة، وان بناء القضية العامة على اساس المصالح الشخصية

لايستطيع ان يحفظ هذه القضية، ويضمن لها النجاح، ولا بد من ان نسلك الطريق الطبيعي الذي سلكته جميع الامم التي استطاعت ان تحيا حياة راقية متقدمة، وذلك ان تبنى القضية القومية على العقيدة الواعية التي تصهر الافراد وتخلق منهم نواة صادقة لخدمة القضية العامة، وتخلق فيهم الفكر النير الذي يعرف كيف يسير ويتصرف، وكيف يشعر بجدية واجباته.

والشروط اللازمة للحركة الانقلابية تقوم على الوعي اولاً، وعلى الشعور بالمسؤولية ثانياً، وعلى الايمان اخيراً. ولابد ان تتحقق هذه الشروط لكي تخلق الحركة الصحيحة، وكل عمل يستهتر بهذه الشروط او ببعضها بحجة الاسراع، هو عمل متناقض وزائف، اذ ما الفائدة من السرعة اذا اوصلتنا الى النتائج القديمة نفسها الا وهي عدم القدرة على مجابهة الأخطار... فالزمن الذي يصرف في تهيئة الشروط الاساسية ليس هو بالزمن الضائع، وان ما يحسبونه عقبة في الطريق ليس الا الطريق نفسه.

غير ان تحقيق هذه الشروط يجب ان لايتطلب زمناً طويلاً، لأن كل العناصر موجودة متوافرة لانماء هذه الامكانيات في الجيل الجديد، فهو ليس جيلاً تائهاً في الصحراء، وانما هو ابن الوسط الذي يعيش فيه والامة التي ينتسب اليها. ففي كل عربي تكمن بذور الوعي والخلق والمسؤولية والايمان، وكل المحاولات التي قمنا بها كانت بمثابة تجارب، ولم يبق علينا الا ان نخطو الخطوة الاخيرة ونستفيد من الماضي. فعندما نقول بأننا نريد ان نخلق جيلاً جديداً لانقصد بأننا سنعلمه كل شيء بل نعني تنظيم ثقافته وتوجيهه توجيهاً صحيحاً. فنحن لن نخلق فيه الاخلاق بل سننميها ونقويها، ولن نخلق فيه الايمان لانه مؤمن الايمان الرائج البسيط، بل نسعى الى أن نقوي فيه هذا الايمان ونجعله اعمق من الفورات الآنية. فعمل الحركة الانقلابية ليس هو بالعمل التطوري البطيء، ويجب أن يزول الوهم القائم في اذهان البعض عن البعث العربي بأنه حركة بطيئة تشبه مدرسة.

ان زمن الحركة الانقلابية يرجع آخر الأمر الى نشاطها والى صدقها وجديتها، فاذا كانت مقدرة لمسؤوليتها فانها لن تضيع اية لحظة، فعملها في السطح او العمق

يتطلب تحقيقاً مادياً مستمراً، وتثبيتاً للمبادىء في النفوس وترسيخاً لها. اما اذا ضعفت في الحركة صفتها الجدية فانها تصبح عندئذ بطيئة، فتحسب ان مجرد البطء يساعد على ترسيخ الافكار والمبادىء في نفوس الاعضاء. فالاكتفاء بالانتساب الى الحزب والايمان السطحي بمبادئه، لا يعني ان هؤلاء الافراد قد انقذوا انفسهم من هذا الواقع الفاسد واصبحوا في عداد الفئة الواعية المؤمنة، دون ان تترتب عليهم اية واجبات ودون ان يبذلوا جهداً في هذا الانتساب. فاذا لم يستغل الزمن لانماء كفاءات الحزبيين اصبح مضيعة للجهد وقتلا للكفاءات نفسها. فالحركة الانقلابية هي وحدها الحركة السريعة.

٣٠ نيسان ١٩٥٠

الصلة بين العروبة والحركة الانقلابية

صلتنا بالماضي: هناك نفر يكاد يفهم من البعث العربي الذي هو حركة انقلابية متجهة بقوة وعنف نحو المستقبل، انها حركة فاقدة الصلة بالماضي، وانها تعتبر ان كل التفاتة اليه تضيع جهداً يجب ان يبذل في بناء المستقبل... ان في هذا تشويهاً لفكرة البعث العربي التي تميز بين الماضي كروح والماضي كشكل.

كان يوجه للبعث العربي منذ نشوئه تهمة الرجعية، فقد فهم الكثيرون من البعث انه ارجاع للماضي. فهموا من تعلقنا بماضينا وشخصيتنا اننا رجعيون ومحافظون، ثم انقلبت التهمة الى نقيضها.

اهمية التراث القومي: ان التشبع بالتراث القومي لا يعني مطلقاً العبودية للماضي والتقاليد، ولا يعني فتور روح الابتكار والتجديد بل يعني العكس تماماً. والواقع ان الذين يفقدون روح التجديد وروح الابتكار هم الذين لا يفهمون ماضي الامة وروحها، ولا يفهمون من ذلك الماضي وتلك الروح الا القشور والمظاهر الجامدة.

ان اتصالنا بروح الأمة وتراثها يزيد في اندفاعنا ويقوي انطلاقنا، فلا نكون حائرين لأننا نكون واثقين ان كل شيء فينا سيأتي ملائماً لروح أمتنا. اننا عندما نطلق من اساس متين هو التشبع بروح امتنا، ومعرفة واضحة لانفسنا ولواقعنا، واحساس صادق بحاجاتنا، لن نكون عرضة لأخذ الافكار المصطنعة وتقليد الآخرين، وانما تأتي أفكارنا طبيعية ومبتكرة لانها نتيجة لشعورنا الصادق وحاجاتنا الصادقة. ان شعورنا بهذه الصلة القومية العميقة بأمتنا هو الذي يفتح عيوننا على حاضرنا الأليم وهو الذي يرينا التناقض بين واقعنا وحقيقتنا، وهو الذي يحملنا مسؤولية انقاذ الأمة وبالتالي هو الذي يوصلنا الى الانقلاب.

الصلة القومية تقود الى الانقلاب وتساعد على تحقيقه: ان الصلة القومية التي توصل الطليعة من الأمة الى التفكير الانقلابي هي نفسها التي تساعد اكبر مساعدة على

تحقيق هذا الانقلاب. لاننا بانقلابيتنا نمثل ارادة الامة كلها، وهذه الارادة التي لم تتوضح بعد الا عند القليل، والتي لا تزال مبهمة عند الكثيرين نعرف انها متمثلة في حركتنا، ونعرف ان كل خطوة نخطوها ستلاقي صدى في النفوس وستحرك وتراً حساساً، وان كل يوم يمر علينا في نضالنا سيفتح عقولاً جديدة ويوقظ نفوساً جديدة. وبما اننا بنينا انقلابيتنا على صفتنا العربية، وانطلقنا الى المستقبل بنسبتنا الى أصلنا، فاننا حتماً سنتكلم اللغة التي يفهمها الشعب وحتماً سنجد سبيلاً الى سمعه وقلبه.

الانقلابيون صورة سباقة لمجموع الامة: اننا نعرف بأن هذه الفئة القليلة من الانقلابيين الذين تضمهم حركة البعث العربي هم قلة في الظاهر، قلة في البدء، ولكن صفتهم القومية الصادقة تجعلهم صورة مصغرة وسباقة لمجموع الامة. نحن نمثل مجموع الامة الذي لا يزال غافياً منكراً لحقيقته ناسياً لهويته، غير مطلع على حاجاته، نحن سبقناه فنحن نمثله، لذلك بيننا وبينه تجاوب عميق، حتى عندما نتصارع، حتى عندما يبطش بنا، هو منسجم معنا لأن طريقه هو طريقنا الآن، وان لم يدر في الوقت الحاضر فسيعلم ذلك في المستقبل. انما ايماننا يختلف عن الايمان السحري لأنه مبني على أرسخ قواعد العلم، على الوقائع. هذه العقيدة هي اننا نمثل مصلحة الأمة وارادتها، اذن نعتمد على تأييدها، وهذا التأييد الذي هو في حالة الكمون سينتقل الى حالة الظهور والفعل.

فقوانا ليست هي هذه القوى المنظورة المحدودة، قوانا لا حد لها في غزارتها. وأضيف اننا نعتمد على قوة اخرى هي ان حركتنا في اتجاه التقدم الانساني. فهدفها ان ترتفع بالامة من حالة التأخر الى حالة العمل والجد والابداع، والتاريخ هو في هذا الاتجاه ونحن نمشي باتجاهه ومنطق التاريخ يقضي بأن تنهض الامة العربية وان تحتل مكاناً خلاقاً ايجابياً، وان تقوم بدورها وتنشىء، فالتاريخ ايضاً يساعدنا.

هناك عدد كبير في امتنا اصبح فاقد السيطرة على نفسه وعلى رأيه ونضارة شعوره، استعبدته المصالح وجمدته الاعتبارات الاصطلاحية، ففقد الحركة الحيوية اللازمة لكي يتمرد على المصالح الخاصة، لكي يتمرد على الاعتبارات الاجتماعية

الكاذبة، لأن كل تمرد من هذا النوع يهدده في مصالحه ونفوذه ووجاهته، وهو يستمد وجوده ومركزه من هذه الأوضاع والاعتبارات الزائفة لأنه لا يؤنس في نفسه القدرة على التحرر من مصالحه، فهو ينظر الى الامة بمنظار نفسيته، ويرى الامة على شاكلته عاجزة عن التحرر والتمرد على واقعها كما هو عاجز عن التمرد على واقعه. فأعداء الفكرة الانقلابية في بلادنا او الذين يتمنون ولا يستطيعون السير في طريقها، هم انفسهم أعداء القومية العربية، فلو كانت هذه الصلة حية لأنتفضوا وشعروا بألم الواقع وبعار الحاضر، ولشعروا بالمسؤولية المترتبة عليهم من ضرورة تبديل هذا الحاضر بصفتهم جزءاً من هذه الامة، ولا ستطاعوا بالتالي ان يبدلوا نفوسهم وواقعهم ويتمردوا على مصالحهم.

صراع بين معسكرين، والظفر للانقلابيين: عندما تتصارع فكرتان في حياة الامة، فكرة جامدة بالية وفكرة جديدة حية، عندما ينشطر المجتمع الى معسكرين، احدهما يدافع عن القديم والجمود والمصالح الخاصة والثاني يدافع عن القيم الجديدة، عن التجرد والمثالية، التجرد والتضحية، يكون هذا الانقسام في الامة شكلياً وموقتاً في الواقع، لأن نفس المعسكر القديم المدافع عن الجمود والمصالح الخاصة فيه بذور امكانيات نشوء الفكر الجديد، فكأن المعسكر الثاني هو التجسيد والتوضيح لهذه البذور والامكانيات الخيرة والكامنة فيه، وكأن معسكر الجمود والنفعية والمحافظة في صراعه مع المعسكر الثاني انما يصارع نفسه ويغلبها، ويتصارع مع غرائز الخير والحياة فيه لكي تستيقظ هذه الغرائز الخيرة ولكي ينميها الصراع ويقويها ويسمح بتفتحها الكامل. ان الحركة الانقلابية في حيويتها وعنفها وصبرها وايمانها، هي التي تتمكن اخيراً من ايقاظ وتحقيق هذه الامكانيات الموجودة في نفس كل عربي. بهذا المعنى نستطيع ان نثق ونؤمن بأن معركتنا ظافرة لأن كل يوم يمضي عليها يضيف الى جيشها جنوداً أيقظهم صبرها واستمرارها واشعاعها وأرجعهم الى نفوسهم، أي إلى الصف النضالي الانقلابي.

ان حركتنا انقلابية عربية، وقد بينا العلاقة بين الانقلابية والصفة القومية وقلنا ان انقلابيتنا تنبع من صلتنا القومية وشعورنا بفقر الواقع وفساده وضرورة تبديله والقيام

بانقلاب يرجع الى الامة حقيقتها ويظهر كفاءتها الحقيقية وروحها واخلاقها، والآن نتساءل عن وسيلة الانقلاب؟ صحيح ان الانقلاب فكرة ولكن لابد لهذه الفكرة من اشخاص يفهمونها ويؤمنون بها ويمثلونها ثم يحققونها. اذن للانقلاب أدوات حية من البشر هم الذين يعتنقون فكرته ويناضلون في سبيل تحقيقها. وبمقدار ما يكون اعتناقهم للفكرة عميقاً ونضالهم في سبيلها صادقاً، يكون الانقلاب قوياً كاملاً. فالانقلاب اذن هو صورة للذين يؤمنون به ويعملون له، وليس هو معجزة تهبط من السماء او حادثة خارجة عن ارادة البشر وعن اعمالهم. وهذا يؤدي الى نتيجة اولى وهي ان الانقلاب يجب ان يتحقق اولاً في نفوس الفئة القليلة التي تؤمن به وتبشر به العدد الاكبر، وتعمل على تحقيقه في مجموع الامة، وكل تساهل في صدق تمثل هذه الفضائل في نفوس الانقلابيين يهدد الحركة بالفشل والزيف. ولا يعقل ان نطلب من الامة ان ترتفع الى مستوى لانكون نحن قد بلغناه، ولا نكون قد برهنّا للآخرين بانه قابل البلوغ...

لا انقلاب بدون صراع : لاشك ان الغرض الظاهر للانقلاب هو ازالة الاوضاع المصطنعة المفروضة على الأمة والتي تشوهها سواء أكانت هذه الاوضاع سياسية او اجتماعية او اقتصادية. ولكن الاوضاع تتمثل في أشخاص، وهي عبارة عن عقلية اشخاص ومصالحهم وعاداتهم، يألفون هذه الاوضاع ويحرصون عليها، ويدافعون عنها، فلا يمكن محاربة هذه الاوضاع الا من خلال الذين يتمسكون بها، ويستفيدون منها. اذن حركة الانقلاب لا بد ان تهز كل الذين يستسلمون للاوضاع الفاسدة، ولا بد ان تعاكسهم، حتى تخلق في الأمة رد فعل للمرض عندما يستيقظ الفكر الحر والخلق القويم وتستيقظ الروح السليمة. فالانقلاب ليس له الا معنى واحداً واضحاً صريحاً هو الصراع والمعاكسة للعقلية والخلق والمصالح السائدة، والبعث يولد من هذا الصراع.

وأن الذين يحسبون ان مجرد تبديل في الاوضاع السياسية يوصل الامة الى هدفها يخطئون ايما خطأ، فلو فرضنا ان الاوضاع السياسية في البلاد العربية تغيرت فجأة بفعل صدفة من الصدف، فنعتقد ان هذا التغيير لن يتناول الا الظواهر، لأن

الامة لم تقطع بعد مرحلة الصراع الذي يحرر فكرها ويقوم خلقها ويزيل التشويه عن روحها. فالواقع الفاسد ليس شيئاً مادياً متجسماً في الاوضاع السياسية او الاجتماعية فحسب، وانما هو شيء معنوي يشترك فيه الجميع بنسب مختلفة، ويمكن القول ان كل فرد يحمل أثراً من آثار هذا الواقع. فالفرد الانقلابي هو الذي يصارع هذا الواقع في نفسه قبل ان يصارعه في المجتمع والاوضاع المادية. وان كل الذين لا يصارعون هذا الواقع، ويحيون حياة طبيعية هادئة مريحة هم ضمن الواقع الفاسد الذي يجب ان نحاربه، اذ لو لم يكونوا منه لوجب ان تتحول حياتهم الى ألم ونضال.

واضيف ملاحظة اخيرة وهي ان مجتمعنا المتأخر المريض يعني وجود اكثرية ضعيفة جاهلة مستعبدة لا تقدر مسؤ ولياتها ولا تعي وجودها على حقيقته، لذلك تبقى الاقلية هي التي يمكن ان يتوفر فيها الوعي والشعور بالمسؤ ولية، وهذه الاقلية هي التي تنقسم في الواقع الى معسكرين: المعسكر الانقلابي، والمعسكر النفعي والمعاكس لكل تجدد ولكل تبديل عميق في حياة المجتمع. فالمشكلة في مجتمعنا اذن هي مشكلة القيادة، مشكلة الافراد الذين تتوفر فيهم الشروط لقيادة المجتمع. واذا كان مجتمعنا ما زال متأخراً حتى الآن فلأن هؤلاء الافراد لا يحققون في انفسهم الشروط الفكرية والاخلاقية والروحية اللازمة لملء مركز القيادة، والصراع هو بين القادة الصادقين والقادة الكاذبين.

١٠ أيلول ١٩٥٠

من معاني الانقلاب

لن أطرق في هذا الحديث[1] موضوعاً شاملاً كاملاً، بل أفضل أن آخذ بعض ما توحيه فكرة الانقلاب التي يقوم البعث العربي عليها.

ايها الاخوان: لنحاول أن نتخلص من أفكار اصطلاحية كثيرة ومن نقل العبارات المألوفة، والالفاظ المجردة، ولنحاول أيضاً ان نرتفع قليلاً فوق المشاكل القريبة العارضة، لنحاول ذلك كله، لكي نقترب من حقيقة مشكلتنا الكبرى، ومن حقيقة قضيتنا كامنة حية تنشد الحياة الصحيحة، وتشق طريقها بنفسها وبجهدها واثقة مؤمنة.

ما هو الانقلاب؟ هل تقف عند حدود التعريفات السياسية؟ هل يبقى فهمنا مقصوراً على البرامج السياسية، وما تحويه من مشروعات ومقترحات، لتنظيم الحياة العامة في مختلف نواحيها؟ أم نفهم من الانقلاب شيئاً اعمق وأصدق؟

اننا نفهم من الانقلاب هذه اليقظة الحقيقية التي لم يعد مجال لانكارها، والتشكك فيها، يقظة الروح العربية في مرحلة فاصلة من مراحل التاريخ الانساني. الانقلاب في حقيقته هو هذه اليقظة، يقظة الروح التي تراكمت عليها أثقال الاوضاع الجامدة الفاسدة، وحالت زمناً طويلاً دون ظهورها ودون انبثاقها واشعاعها. هذه الروح، تشعر أخيراً بالخطر الكبير، بالخطر الحاسم، فتنتفض انتفاضة حاسمة. وانتفاضتها هذه، وسيرها لن يكون الا في تيار معاكس للأوضاع التي عاقت ظهورها، والتي اثقلت عليها الاحمال، وشوهت طريقها، السير في طريق معاكس للأوضاع الراهنة، للأوضاع الفاسدة المريضة الزائفة، هذه المغالبة للتيار بقصد ان تستيقظ بقايا الروح الاصيلة في كل مكان توجد فيه، وتتجمع وتتكتل، لابد من هذا السير المعاكس للمادة، الذي يحيا في كل خطوة من خطاه، الذي ينبه ويوقظ، الذي يرد الى القوى الغافية والكامنة انتعاشها، وجديتها، وصحوها، وشعورها باستقلالها،

---

(١) حديث القي في مكتب البعث العربي في حمص.

وقيمتها، وتأثيرها. فالانقلاب قبل ان يكون برنامجاً سياسياً واجتماعياً هو هذه الحركة الدافعة الاولى، وهذا التيار النفسي القوي، هذه المغالبة التي لابد منها، والتي لايفهم أي بعث للأمة بدونها، ذلك ما نفهمه من الانقلاب.

اذن فنحن لانحارب الاوضاع الراهنة لانها فاسدة فحسب، بل نحاربها لاننا مضطرون الى ان نحارب، لانه لابد لنا من ان نحارب، لابد للأمة من أن تستكشف في نفسها بقايا القوى الصادقة، وأن تستخرج من اعماقها كنوز الحيوية الكامنة، اننا نناضل ونكافح الاوضاع السياسية والاجتماعية الزائفة، الفاسدة، لا لمجرد ازالتها وتبديلها، بل أيضاً لكي تعود للأمة وحدتها في هذا النضال. فالأمة أنكرت ذاتها نتيجة الغفوة الطويلة، ونتيجة التشويه الطارىء عليها حتى لم تعد تعرف ذاتها، ولم يعد يعرف بعضها بعضاً، لقد انقسمت أيما انقسام، فتناثرت اجزاؤ ها وأفرادها، وهبطت الى مستوى وضيع والى سجن الانانية، وسجن المصالح الصغيرة، وسجن اعتياد الجمود والقعود. وفي مثل هذا المستوى لا تنشأ وحدة بين الامة، ولا توجد الحرارة الكافية للتعارف والتآلف بين هذه الملايين من العرب. لابد اذن من غليان، لابد من مستوى مرتفع، مضطرب، متحرك، لابد من مشاق نجتازها، لابد من سير طويل يدخل فيه الفكر مع الخلق مع الايمان، وأن نجرب ونخطىء، ونصحح اخطاءنا. هكذا نتعارف، وهكذا يعود بعضنا الى بعض، فتتوحد الامة في طريق النضال والمشاق.

هذا بالنسبة للأمة كمجموع، وأما بالنسبة الى أفرادها، فالانقلاب الذي عرَّفناه بأنه مغالبة للتيار، هو وحده الذي يكوِّن الشخصية العربية من جديد، هو الذي يلقي على كل فرد تبعة أعماله، وهو الذي يطلق الفكر حراً، مستقلاً، ويقيم الخلق مسؤولاً جدياً، وهو الذي يفجر نبع الايمان في الروح، لأن مثل هذا السير الطويل الشاق، لا يستغني عن الايمان، بل ان مادته ودمه ينبعان من هذا المصدر الروحي.

فالانقلاب اذن طريق، طريق الى الغاية المنشودة، الى المجتمع السليم الذي ننشده. ولكنه ليس طريقاً من الطرق، انما هو الطريق الوحيد. لهذا السبب الذي ذكرته ـ حتى لو ازيلت هذه الاوضاع من امامنا بمعجزة من المعجزات ـ فلن نكون

الامة المطلوبة ولن نصل للأهداف المطلوبة، ولن نبني المجتمع المطلوب. ولكن الامة التي نريدها، والمجتمع الذي نريد نبنيه،متوقف علينا نحن، متوقف على جهودنا، على صدقنا، على وعينا، ولا يهبط من السماء، ولا يخرج بشكل آلي، ولكنه في فكرنا، وخلقنا، اذن لابد ان نمشي في هذا الطريق.

مغالبة التيار هي، في مثل حالتنا، المقياس الوحيد الذي يميز بين الصدق والكذب، بين الجد واللهو. عندما نجد الاستعداد لمغالبة التيار، عندئذ تصبح الاقوال والافعال والبرامج، وكل شيء آخر، ثانوية، ويصبح الشيء الوحيد الملموس الراهن الذي يمكن ان نطمئن الى وجوده هو ان نجد من يستطيعون تحمل هذه التبعة، ومن يسيرون في طريق معاكس للوضع القائم في البلاد العربية، وعندها تنشأ تباعاً، وتنبت الفضائل المطلوبة لاكمال الطريق، وللبناء الجديد في نهاية الطريق. فالانقلاب هو مغالبة الحقيقة للواقع، لأن للأمة حقيقة رغم تخلفها ورغم تشوهها، وهذه الحقيقة تعلن عن نفسها مهما تكن سيطرة الواقع. والانقلاب هو هذا الاعلان، هذا الاثبات لوجود الحقيقة. الانقلاب هو مغالبة المستقبل للحاضر، لأن اهدافنا المستمدة من اعماقنا ومن روحنا شعت وانطلقت تسبقنا، لتغرينا بالسير نحوها والتسابق اليها، هذا هو المستقبل، فالانقلاب هو اذن مغالبة هذا المستقبل، الذي هو حقيقة انفسنا واهدافنا، للحاضر المزيف، للحاضر الغريب عن حقيقتنا.

ايها الاخوان: الماضي شيء حقيقي، وشيء اصيل في حياة امتنا، ومن العبث ومن الخطل ومن العقم في التفكير ان ننكر هذه الحقيقة، اننا نقصد بالماضي ذلك الزمن الذي كانت فيه الروح العربية متحققة. وماذا نقصد نحن بالمستقبل، وما هو هذا المستقبل الذي يغرينا ويدفعنا الى النضال ان لم يكن هو الزمن الذي يجب ان تتحقق فيه روحنا الأصيلة. فماضينا بهذا المعنى الصافي الصادق، أرسلناه أمامنا، اشعاعاً ينير لنا الطريق ولم نتركه وراءنا نندب عهده ونستصرخ عونه، وننتظر بجمود وخمول ان يأتي هو الينا، وان ينزل الى مستوانا. ليس هذا هو الماضي، الماضي كحقيقة للروح العربية، كحقيقة متحققة للروح العربية لايمكن ان يأتي، ولا يمكن ان يرجع ويهبط وينزل، وانما علينا نحن ان نسير نحوه سيراً تقدمياً الى الامام، وان

نرتفع اليه ونصعد، وأن نسلك طريقاً وعرة متعبة حتى ننمي فينا الفضائل والمواهب والقوى التي تؤهلنا اخيراً لان نفهمه، فنمتزج به ونلتقي معه. فالسير التقدمي، والسير الصاعد في طريق الانقلاب هو السبيل الوحيد لالتقائنا بماضينا. وهذا الالتقاء لايكون الا ارتقاء، ولا يكون هبوطاً وانحداراً، او جموداً وامعاناً في الجمود والقعود.

الى جانب هذه النظرة نحو الماضي التي نضعه في مستقبل بعيد يستثير فينا الهمم، نرتفع اليه ونبلغه بعد الجهد، ونستحقه استحقاقاً كريماً، توجد النظرة الاخرى التي تعكس ظلال الحاضر السوداء، البشعة، الثقيلة، على ذلك الماضي، فيفهم من الماضي انه استمساك بالحاضر وتشبث عنيد للاحتفاظ به، والاغراق في اخطائه ومفاسده. فكيف يكون هذا الماضي انطلاقاً روحياً، وفكراً مبدعاً وخلقاً قويماً مستقلاً، وايماناً حياً فياضاً؟ التشبث بالاوضاع الراهنة، المحافظة عليها، الدفاع عن هذه الاوضاع التي تهدد العرب بالانقراض، ليس هذا هو الماضي، بل انه هو الحاضر، هو الواقع الفاسد، هو النفعية، هو عبودية المصالح. اما الماضي الحقيقي فهو الذي يدعونا حنيننا اليه، الى أن نسعى ونجد، ونناضل ونرتفع. هذا هو الماضي الروحي الحر السليم الذي كان للعرب. لقد كان هذا الماضي عهداً تحققت فيه الروح، اي انه كان هو نفسه انقلاباً بلغ فيه الفكر حريته واستقلاله، ونضارة احساسه بالحياة وبالعلم فأبدع ونظم، وانسجم مع قوانين الحياة والطبيعة، وبلغت فيه الشخصية حريتها وفرديتها وجديتها ومسؤوليتها، فانطلقت تعمل اعمالاً حرة، وتقف مواقف بطولية وتتجاوز حدود الانانية الى الانسجام مع الارادة العامة والانسجام مع المجموع، وبلغت فيه الروح ينبوعها الصافي فامتلأت خصباً وتجدداً، وعرفت قدرها الازلي، فأشبعت بالايمان.

لقد كان ماضينا انقلاباً، ولن نبلغ مستواه، ولن نلتقي به الا عن طريق الانقلاب. فالانقلاب الجديد هو السير الواعي الجاد، المؤمن، نحو هذا المرتفع الذي يحل فيه التناقض وتوحد الاضداد، ويلتقي الماضي بالمستقبل، وتتصالح الامة مع نفسها في الابداع وأداة الرسالة.

يسألوننا، ايها الاخوان، ماذا تقصدون بالرسالة، الرسالة العربية الخالدة؟

الرسالة العربية ليست ألفاظاً نتغنى بها، ليست مبادىء توضع في البرامج، ليست مواد للتشريع، كل هذه أشياء ميتة زائفة، لان بيننا وبين الوقت الذي نستطيع فيه ان نشرع من وحي روحنا ورسالتنا مسافة طويلة، وفاصلاً كبيراً. ما هي اذن الرسالة الآن؟

هي حياتنا نفسها، هي ان نقبل بتجربة لهذه الحياة، بتجربة عميقة صادقة ضخمة جسيمة متكافئة مع عظمة الامة العربية، متكافئة مع عمق الآلام التي يعانيها العرب، متكافئة مع جسامة الأخطار التي تهدد بقاء الأمة. هذه التجربة الحية الصادقة، التي تردنا اخيراً الى ذواتنا، والى واقعنا الحي، وتحملنا مسؤولياتنا وتضعنا في طريقنا الصحيح، لكي نكافح هذه الامراض وهذه الحواجز، وهذه الاوضاع الزائفة، نكافح الظلم الاجتماعي والاستثمار الطبقي، وعهود النفعية والرشوة والاستغلال ونكافح الاستبداد، وتزييف الارادة الشعبية وامتهان كرامة الفرد العربي كمواطن وانسان، في سبيل مجتمع حر يسترد فيه كل عربي شعوره بذاته ووجوده وكرامته، بفكره ومسؤولياته. . التجربة التي نكافح فيها تقطيع اوصال الامة العربية الى اقطار ودويلات مصطنعة مزيفة، حتىٰ نصل الى توحيد هذه الاعضاء المتناثرة، حتى نصل الى حالة سليمة طبيعية لايتكلم فيها عضو مبتور باسم الكل، حتى نتخلص من هذا الوضع الغريب الشاذ ـ عندها يستقيم للعرب ان يجتمعوا كلهم فتستقيم نفوسهم، وتتصحح افكارهم، وتتقوم اخلاقهم، ويتفتح مجال الابداع امام عقولهم، لانهم أصبحوا كائناً طبيعياً سليماً، امة واحدة. فهذه التجربة السليمة الصادقة لمكافحة هذه الاوضاع حتى نصل الى الوضع السليم، تلك هي الرسالة العربية. والرسالة هي ما يقدمه جزء من البشر الى مجموعة الانسانية، ولا يعطى معنى الرسالة لشيء ضيق اناني وانما لابد لها من المعنى الانساني الشامل الخالد. قد تتساءلون كيف تكون رسالتنا هذه في معالجة مشاكلنا، فأقول لكم بأن العرب عندما يقدمون على هذه التجربة، وهم في الواقع قد بدأوا فيها وانغمسوا فيها، ولن يتراجعوا مطلقاً، عندما يقومون بكل ذلك، فانه لن يقتصر عمل هذه التجربة على حل مشاكلهم فحسب، بل يخرجون منها بتجربة انسانية عميقة تخلق فيهم شخصية

مشبعة بآلام الحياة الانسانية ومعرفة اسرارها، ومداواة امراضها، فيقدمون للعالم وللانسانية كلها ثمرة هذه التجربة الخالدة.

شباط ١٩٥٠

حول الانقلاب

قلنا ان البعث العربي فكرة مدفوعة الى التحقيق في العمل، والبعث العربي لذلك حركة، حركة انقلابية، وعرفنا الانقلاب بأنه هو التغيير الحاسم في مجرى حياة الامة، اي تحول حاسم يختلف عن التطور. وقلنا انه يلزم لتحقيق الانقلاب وجود وسائل، اي خلق جيل واع يبعد الخطر عن امته ويشعر بمسؤوليته لتحويل مجرى حياتها، ومؤمن بتحقيق ونجاح الانقلاب.

اذن أعطينا ثلاث صفات لهذا الجيل: ١ ـ الوعي للشروط التاريخية والاجتماعية، أي أنه عارف لماذا. كان هذا التحول ضروريا للامة. ٢ ـ الاخلاق، أي ان عليه أن يكون في الطليعة وان يخرج من العدد المنفعل المستسلم للأوضاع. ٣ ـ الايمان، اي انه لايكفي ان يكون فاهما لضرورة التحول ومقدرا لمسئوليته بل يؤمن بأن القدر والتاريخ وكل الظروف مهيأة لنجاح هذا الانقلاب. ومنها وصلنا الى القول بأن الجيل الجديد هو وسيلة الانقلاب، ويعتمد هذا الجيل على الفرد، لان الوعي والايمان يفتش عنهما في الافراد لا في المجتمع.

بعد ذلك تكلمنا في الحقيقة والواقع بالنسبة للشعب، فحقيقته شيء وواقعه شيء آخر، لان واقعه مفروض عليه فرضا من قبل الفئات المستثمرة والقوى الاجنبية. ان حقيقته قد طمست ولا زالت، كما ان التفاعل والاصطدام بين حقيقته وواقعه يجلو حقيقته ويهيؤه لتحقيق الانقلاب. ونظرتنا الى الشعب نظرة تفاؤل وايمان، ولمجرد تجسيد الجيل الجديد لفكرة الانقلاب، نجد الشعب يتنبه ويمشي في طريق الانقلاب. ونحن ننفي التشاؤم وسوء الظن بالشعب وبأخلاقه لان واقعه الفاسد عارض طارىء، ولان حقيقته كامنة تتجلى مع التجارب والآلام. فنفسية الانقلابي هي نفسية التفاؤل والايمان اي يؤمن بأن الانقلاب قدر تفرضه شروط التاريخ ومواهب الامة نفسها، ويؤمن بأن الشعب مستعد لتلبية هذا الانقلاب.

ثم تعرضنا الى مبررات هذا الايمان. هل هو، استنادا الى تفسير معين للتاريخ، تفسير جبري، اي ان تطور التاريخ يؤدي حتما الى هذا المصير؟ قلنا ان لا موجب

عندنا لمثل هذا التفسير، فالعربي الواعي المؤمن اليوم، لا حاجة له لايجاد مبرر في الماضي لنهضته، بل يجد من الواقع نفسه مبررا للنهضة. فالسند هو الجيل الجديد الانقلابي، الذي أصبح حقيقة لايجادل فيها والذي يتكون ويتكاثر ويترابط في مختلف الاقطار. هذا وحده مبرر ودليل على ان الامة قد نضجت وانتجت هذا الجيل، وهذا يدل على انها سائرة نحو المستقبل. فمبررات الانقلاب هي في الواقع نفسه لا في التاريخ.

ما دام الانقلاب هو من أجل بناء مستقبل جديد يختلف عن الحاضر اختلافا جوهريا فما هي معالم هذا المستقبل؟.. نحن لا نقول ان معالمه محددة منذ البدء ومرسومة منذ الماضي، وعندها يكون الانقلاب رجعة كلا، نقول ان معالمه وخطوطه تحددها حاجات الامة التي تهتدي اليها بملء الحرية دون ان تكون مقيدة بأي قيد. فالامة عندما تعي ذاتها ومكانتها في العالم وفي الزمن وتريد أن تتحرر من المرض والنقص تخلق وسائل تحررها ولا تستمد هذه الوسائل من اي شيء سابق. وقلنا ان هذه هي الطريقة الوحيدة التي تضمن مجيء هذا الانقلاب وهذا المستقبل منسجما مع روح الامة وأصالتها. اي بقدر ما تكون الامة حرة بالسعي نحو مستقبلها تكون منسجمة مع نفسها مخلصة لشخصيتها وعبقريتها وبالعكس، اذا وضعت قيودا لنفسها تخون شخصيتها وتبتعد عن روحها، وفي الماضي عندما كانت الروح العربية متجلية بقوة اوجدت لنفسها وسائل تحقيق ملائمة لظروف الزمان والمجتمع. والوسائل ليست من نفس جوهر الروح، أي ليست شيئا أصيلا، أما الاصل فهو المستوى الروحي، فالعرب عندما يسترجعون المستوى الروحي العالي ويتفوقون عليه تكون الوسائل متلائمة مع روحهم بالنسبة للعصر. عندما نمشي بالابداع والحرية وتلبية حاجات صادقة وعميقة في حياتنا الحاضرة نلتقي بالروح التي كانت مهيمنة على ماضينا.

عام ١٩٥٠

علاقة التنظيم بالعمل الانقلابي

تعلمون ان مرحلة الانقلاب في حياة الامة، هي المرحلة التي يكون التشويه والانحراف قد طرأ على مختلف الاوضاع فيها، ليجعلها متناقضة مع مصلحة الشعب متعارضة مع التقدم والنهضة والانبعاث القومي. وتمكن الفساد التشويه والانحراف وانتشاره يحدث هزات في حياة الشعب، ويخلق نوعا من الاضطراب والشعور بالحاجة الى تبديل الاوضاع ومقاومة الفساد. ولكن هذا الشعور لايتبلور بشكل واضح واع، الا عند اقلية من ابناء هذا الشعب، تدرك واقع امتها وتصمم على تبديله. وتتقدم الصفوف للنضال في سبيل قلب هذه الاوضاع وتغييرها، وتتجه الى الشعب لتنقل اليه وعيها، عاملة على تنبيهه وتثقيفه وتوضيح واقعه له، جاهدة لتسير بالشعب في طريق النضال المنظم.

فمن خصائص المرحلة الانقلابية اذن، ان تكون قيادة الحركة الشعبية بيد أقلية، اذ لو ان اكثرية الشعب كانت قادرة على وعي مساوىء الاوضاع حق الوعي، ولو انها كانت قادرة على تنظيم صفوفها حق التنظيم، ولو انها كانت تسير من نفسها في طريق النضال الجدي لتبديل الاوضاع، اذن لما كانت المرحلة انقلابية، ولما كانت الامة بحاجة لانقلاب في حياتها وأوضاعها للنهوض، بل لسارت اليه وتقدمت، عن طريق التطور الطبيعي. ولكن مثل هذا الوعي الشعبي العام، ما زال غير متوافر، والحياة السياسية ضمن شروط النظم القائمة، ما زالت قاصرة عن تمثيل ارادة أكثرية الشعب وعن ايصال صوتها، بل تمثل في كثير منها، مصالح أقليات مستغلة ومعادية لمصلحة الشعب الى حد كبير. وفي مثل هذه الحال، يأتي العمل الانقلابي في كل بلد، وفي كل شعب، وهو من جهد أقلية منه. ولكنها أقلية من نوعية خاصة. اقلية واعية لواقع أمتها مؤمنة بقضية بلادها وبحقوق شعبها، متجاوبة كل التجاوب مع حاجات الشعب العميقة وأمانيه. هذه الاقلية تتقدم هنا لتمثيل الشعب، قبل ان يفوضها الشعب تفويضا صريحا بهذا التمثيل، وهي التي تبدأ بان تتجه للشعب لتوقظه على واقعه ولتنظم نضاله وتقوده في طريق الانقلاب.

وقضية التنظيم تطرح منذ البداية في العمل الانقلابي . والا فكيف تستطيع هذه الاقلية الصغيرة ان تكون قوة وان تنهض بأعباء النضال الفعال، وكيف للعشرات او المئات ان يقفوا في وجه الفساد وان يصارعوا الرجعية والاستعمار ومصالحهما الكبيرة الكثيرة، وكيف يقاومون ما خلفته عصور الانحطاط من جهل وانقسامات ومن فوضى مستعصية على العمل المنظم وحائلة دون تعاون الشعب ومشاركته، وكيف تستطيع هذه القلة بالتالي ، ان تضم حولها قوة شعبية متكافئة مع ما تصدت له من صعوبات وأخطار، كيف تستطيع كل هذا اذا لم تستنجد بالتنظيم، تستنفد به كل كفاءاتها وامكانياتها، وتعوض عن قلة عددها وفقر وسائلها، وتفتح أمام عملها طريق النمو المضطرد. فالحركة الانقلابية اذا لم تقم على تنظيم متين واع، تبدأ عملها ثم تتبعثر جهودها وتضيع بين شتى الاعمال الارتجالية، وتمضي دون ان تخلف اثرا في حياة الامة. فالتنظيم شيء اساسي وحيوي يرافق العمل الانقلابي بل هو من طبيعة هذا العمل ويستمد من فكرته الانقلابية.

ويجدر بنا هنا ان نسجل ملاحظة، حتى لانترك اي مجال للالتباس وسوء الفهم . وهي اننا لانعتبر للتنظيم قيمة في حد ذاته، اي لانراه منعزلا عن الفكرة التي يرتبط بها ويستلهم منها قواعده وحدوده . فبتجريد التنظيم عن الفكره تصبح قيمته فنية بحته، يمكن ان تستخدم للخير وللشر في آن واحد، فعصابات الاشقياء تستند في اعمالها الى التنظيم . ومعناه وصلاحه متوقف على الفكرة التي توحي به وتشرف عليه وتمده بالروح . فالتنظيم لايخلق شيئا من العدم، والتنظيم ليس كل شيء في العمل الانقلابي ، وهو لايعني ان هذه الاقلية الانقلابية، ترتجل فكرتها وحركتها ارتجالا ، او تعود للتنظيم لتخلق بواسطته حركة من العدم.

ان التنظيم، اي تنظيم كان، يعجز عن خلق شيء من العدم، ولكن الحركة الانقلابية كما ذكرنا، انما تقوم في أساسها على مسلمة، على ان ثمة تجاوبا بين الاقلية الانقلابية، التي كانت أسبق من غيرها الى وعي الواقع والشعور بالمسؤولية واقدرعلى ذلك، وبين بقية افراد الشعب، تجاوبا في الروح والحاجات والاماني . الاقلية الانقلابية لاتبتدع شيئا من نفسها ولا ترتجل، ومهمتها في الواقع ان تترجم

حاجات الشعب العميقة، هذه الحاجات التي تكون غامضة ومجزأة بالنسبة للشعب الذي لم يبلغ بعد الحد الكافي من العلم والوعي او من القدرة على التعبير عن هذه الحاجات، وان عبر بين الحين والحين، بانتفاضات وحركات آنية تنم عن اتجاهه وعن حيويته وطاقته النضاليه، كما تعبر بشكل جزئي وغامض بل ومشوه أحياناً عن اهدافه التي يسعى اليها. ثم تأتي هذه الاقلية، التي هي من هذا الشعب، والتي يفترض فيها انها شاركت الشعب انتفاضاته ونضاله البدائي (وهذه الاقلية كانت في الاصل موزعة وغير متعاونة، ثم تعارفت وتوحدت بنتيجة التجربة والمراس الطويل والوعي. واصبحت قادرة على قراءة ما يعتلج في قلوب ابناء الشعب) لتتعرف من خلال آلام الشعب وانتفاضاته الارتجاليه، على اهدافه الحقيقية وعلى امكانياته وقدرته على تحقيق هذه الاهداف. فعندما نقول أن الاقلية الانقلابية لا بد وان تعتمد اعتمادا اساسيا على التنظيم، فلانها تبدأ من اعتمادها على ذلك التجاوب العميق بينها وبين أكثرية الشعب الساحقة، وتعرف ان طريقها الى قلوب الشعب مفتوحة، وان التنظيم هو الذي يمكنها من الوصول الى الشعب ومن قيادته، كما يمكنها من اختصار الزمن وتسهيل عقبات الطريق. وما مهمة الانقلاب الا حشد القوى وتسهيل الطريق وازالة العقبات من طريق الشعب الذي يناضل في سبيل تحقيق اهدافه القومية.

واذا كان التنظيم لا يخلق شيئا من العدم، فان هذا لايتناقض مع كون التنظيم الانقلابي ذاته عملا خلاقا. وذلك بمعنى ان هذه القوى والطاقات النضالية الكامنة في نفوس الشعب تبقى غير متحققة بغير هذا التنظيم الانقلابي. ووجودها هكذا كامنة، مثلها كمثل رجل يحتفظ بمبلغ من المال في صندوقه دون ان يستعمله، فلهذا المال وجود ولكنه غير محقق لقدرته الشرائية وغير مستثمر. وقوة الشعب النضالية يكون وجودها هكذا كامنا او مهدورا، والاقلية الواعية اول من يشعر بهذه القوة النضالية الكامنة في قلب الشعب، ولكنها اذا لم تنقل هذه الطاقة الى حيز التحقق، تبقى وكأنها غير موجودة. عمل هذه الاقلية هو الذي ينقل امكانيات الشعب ويجعل منها حقائق راهنة، ويخلق منها عملا ونضالا بناء، ومثل هذا العمل

الانقلابي المنظم عمل خلاق.

لننتقل الان من التحليل النظري، الى الواقع الذي نحياه، لنرى ماهو موضع التنظيم في حياة شعبنا وفي حياة هذه الحركة الانقلابية. لسنا بحاجة الى تكرار اوصاف هذا الواقع، فهو واضح يفرض نفسه على كل شاهد وبكل ما فيه من عيوب ونقائص. وعلينا ان نقيم قواعد وركائز وقلاعا ضمن هذا الواقع المملوء بالفساد والنقص والتخلف والجهل والميوعة، وعلينا ان نبثها هنا وهناك وفي كل ناحية، لكي تكون منطلقا للحياة الجديدة وللتوجيه الجديد الذي نريد نشره بين ابناء شعبنا، لنجذب الى هذه الركائز ولنكتل في هذه الحصون العناصر الاسلم من غيرها والاقل مرضا وتشويها والاقدر من غيرها على التفاهم والتعاون والأكفأ للعمل المنظم الواعي. وبهذا العمل تتسع وتنمو هذه الركائز والحصون، لتصل بالنتيجة الى تبديل حياة الشعب بكاملها وتغيير أوضاع البلاد كلها، ونصل بالتالي الى خلق حياة جديدة لامتنا.

وهذه الركائز لم نسمها قلاعا وحصونا، الا لما ننشده من ان تكون متينة جدا لكي تصمد لمقاومة الفساد، والاعداء الخارجيين والاخطار المستمرة، وهذه العناصر الانقلابية لكي تنمو في عملها ونضالها، ولكي تتقدم ولا تكتفي بالصمود، يجب ان تكون من نوع خاص متميز، فلا يكفي ان تكون صالحة سليمة، بل يجب ان يكون النظام الذي تتبعه في عملها، صحيحا وعقلانياً ومتينا ومضمون الاستمرار والنجاح.
وهنا لابد من الاصرار على دور العلم والثقافة، ودور الخبرة والتجربة، وكثيرا ما رددنا ان البعث لايمكن ان يكون الا على اساس العلم والمعرفة والكفاءات الفنية، اذ كيف يمكن ان نحقق انقلابا في حياة امة تخلفت مئات السنين عن مستوى البناء والابداع واعرضت عن المساهمة في الحضارة الانسانية، بل كيف يمكن ان نرفع امتنا التي كانت سباقة ومجلية، من جديد الى مستوى الابداع وخلق الحضارة، دون ان نعتمد كل الاعتماد على اساس متين من العلم والثقافة والخبرة الفنية، وهذا ما يجب ان يقوم عليه التنظيم الانقلابي ليكون قادرا على خدمة اهداف الانقلاب وتحقيقها. فنحن هنا بحاجة للكفاءة والعلم وللافادة من خبرة وتجارب الشعوب

المناضلة والامم المتحضرة، وهذه التجارب تعطينا قواعد ودلائل نسترشد بها في تنظيمنا ونقتدي بها في عملنا على ان نلائم بينها وبين اوضاعنا ونعدل منها حسب ظروفنا، وهناك اشياء عامة ومشتركة لايستغنى عنها في اي بلد بالنسبة لاي شعب، وهناك قواعد اساسية خرجت من خبرة وتجارب طويلة للامم التي سبقتنا في مجال الحضارة.

اذن فعملنا يجب ان يقوم على الاختصاص وان يسير في دأب واستمرار. وتنظيمنا يجب ان يكون متناسق الحلقات والاجزاء كالجسم الحي، كل عضو فيه يقوم بمهمته الخاصة ولكن ضمن المخطط العام الذي يضمن الحياة والنمو الكامل لهذا الجسم. والشيء الذي نريد الالحاح عليه هنا، لاننا قلما نوفيه حقه من الاهتمام والتقدير، هو ان التنظيم الانقلابي الذي نحتاجه ولم نبلغ بعد مستواه، يتطلب انقطاع افراد للعمل الحزبي انقطاعا تاما، ليجعلوا من العمل الحزبي الانقلابي شاغل حياتهم، منه يعيشون ويكسبون رزقهم، وفيه يضعون جميع امكانياتهم وكفاءاتهم وآمالهم وطموحهم. وبمثل هذا وحده، يمكن ان تنشأ عند هؤلاء الافراد، خبرة قومية نضالية عميقة، نتيجة الاستمرار الطويل والدأب والممارسة ومواجهة المشاكل يوميا، والوقوع في الاخطاء الكثيرة وتصحيح هذه الاخطاء بالتجربة والممارسة والمراقبة، والاتصال اليومي المباشر بحياة الشعب والتعرف الى مشاكله، والصلة الدائمة بحياة الحزب ومعاناة كل مشاكله وقضاياه للخروج من كل هذا بخبرة جديدة في كل يوم وكل سنة. وعلى هذا الاساس يستطيع الحزب ان يخلق افرادا يكونون في البدء آحادا ثم يصبحون عشرات ثم مئات والوفا، ويكون لكل فرد من هؤلاء، بنتيجة هذه الممارسة وهذا الايمان الذي تعزز بالعمل النضالي المتواصل، من الخبرة والكفاءة ما يعدل الفا ويستطيع ان يخلق الحركة والحياة في ألف آخرين وان يكون مصدر اشعاع وتوجيه ووعي وقوة لمجموع الشعب. فالشباب المثقف الذي وعي ان مكانه التاريخي هو في هذه الحركة الانقلابية، فتقدم اليها وسار في طليعتها، يجب ان يكمل هذا الوعي بالعمل النضالي الشعبي الانقلابي المنظم. فلا يقف عند هذه المرتبة الاولى من الوعي، بل يرتفع الى مرتبة اخرى،

ليعرف كيف تكون مشاركته على اقوى وأحسن شكل، وليجعل مشاركته اقوى مردودا واعمق اثرا في حياة الامة في هذه المرحلة.

تموز ١٩٥٥

الباب الرابع

الرسالة العربية الخالدة



حول الرسالة العربية

الرسالة العربية ايمان قبل كل شيء ولا يعيبها هذا اوينقص من قدرها، فالحقيقة العميقة الراهنة هي أن الايمان يسبق المعرفة الواضحة. وان من الاشياء ما هوبديهي لايحتاج الى براهين ودراسات، انه يدخل القلب ويمتلك العقل دفعة واحدة. فالرسالة شيء ملازم للأمة، ومن حقها أن تطمح الى بلوغها كما يحق لكل فرد أن يطمح الى المروءة والبطولة. ولكن في الواقع ثمة فرقا هو أن الحق قد يبقى عند الكثيرين نظريا لايتحقق في العمل، فمن حق كل فرد أن يطمح الى البطولة ـ كما قلنا ـ ولكن كل الناس ليسوا أبطالا، فكل امة من حقها أن تطمح في أن تكون لها رسالة، ولكن الامم ليست كلها على السواء ذات رسالات، أو ليست رسالاتها متساوية في درجة النضج وفي مدى التحقيق والشمول.

ان علينا أن نفرق بين معنى الحياة وبين الرسالة فلكل فرد مهما صغر شأنه ومهما قلت مواهبه معنى لحياته، ولكل أمة مهما ضاق نشاطها وقلت مواهبها معنى يستخرج من حياتها، غير أن هذا ليس هو المقصود بالرسالة. فالبطولة عند الافراد ليست مجرد معنى الحياة انها الحد المعين الذي يبلغه تكامل شخصية الفرد ونضجها وأشعاعها حتى تصل الى درجة التأثير والتوجيه واثارة الاعجاب، وهي عند الامة أن تخرج من نطاق النشاط المادي والانانية الضيقة وترتفع الى مستوى التوجيه الانساني والاشعاع على غيرها من الامم.

وشعار البعث العربي لايرمز الى أشياء مقبلة بعيدة عن الواقع، بل يهدف في الدرجة الاولى الى تلبية حاجات الحاضر وضروراته، وهو يعني ان الامة العربية واحدة، فلا نعترف بهذه التجزئة المصطنعة العارضة. واننا نسعى الى تحقيق هذه الوحدة ليس في الارض فحسب بل أيضا في الروح والاتجاه.

أما الرسالة الخالدة فالقصد منها أن هذه الامة لاتعترف بواقعها السيء وموقفها المنفعل ولا تتنازل عن مرتبتها الاصيلة بين الامم، بل تصر على انها لاتزال هي هي في جوهرها، تلك الامة التي بلغت في أزمان متعددة مختلفة من التاريخ درجة تبليغ

رسالتها، فهي اذن بصلتها ببعضها وبماضيها لا تزال واحدة ولا تزال فيها الكفاءة لاسترجاع تلك المرتبة التي فقدتها مؤقتا. فهذه الامة التي تستيقظ اليوم وتتحفز للنهوض ليست هي بنت اليوم، بل هي نفسها قبل ألف وقبل ألوف السنين، ميزتها وحدة الاصل والعنصر يوم كانت الوحدة هي الرابطة المكينة التي تجمع الافراد وتطبعهم بطابع واحد وتخلق فيهم نواة واحدة، ثم صقلتها وغذتها وحدة اللغة والروح والتاريخ والثقافة، ولما فقد هذا العنصر مكانه الرئيسي بين العوامل المكونة للأمم فقدت الأمة شيئا من تجانسها الضيق غير أنها عوضت عنه بتنوع في المواهب والكفاءات وانطلاق في الفكر وتسام في المعنى الانساني. فهذه الامة التي أفصحت عن نفسها وعن شعورها بالحياة افصاحا متعددا متنوعا في تشريع حمورابي وشعر الجاهلية ودين محمد وثقافة عصر المأمون، فيها شعور واحد يهزها في مختلف الازمان ولها هدف واحد بالرغم من فترات الانقطاع والانحراف.

ولكن هل يستتبع تبنينا لماضي الامة واعتبارنا انه يؤلف وحدة حية مع حاضرها ومستقبلها، اننا نوافق عليه وعلى كل ما جاء فيه؟ وهل حياة الامة مسيرة بقدر خارج عن ارادتنا، وأن كل مرحلة هي نتيجة حتمية للمراحل التي سبقتها؟ أم أن على الامة ان تساهم الى حد بعيد في خلق مصيرها فاذا انحرفت عنه وتلاشت مساهمتها في صنع قدرها، فانما ذلك لمرض طارىء تجب معالجته. فهذا الماضي كان يمكن لبعضه أن يكون خلاف ما كان ولبعضه الآخر ان يكون أقوى وأكمل مما كان! نحن سادة مصيرنا وصانعو قدرنا ندرك ادراكا عميقا ان الامة الحية هي التي تحيا الآن والتي ينفسح أمامها مجال الحياة للمستقبل، وانها الامة التي تخدم ماضيها باستخدامها اياه لاباستسلامها له، والامة الحية تنمو وتتكامل ويكون ماضيها مهما سما دون حاضرها ويكون مستقبلها أمامها لا وراءها.

وفكرة الرسالة تقود حتما الى تكوين نظرة الى الماضي وعلاقته بالحاضر والمستقبل، فالاتجاه الشيوعي ينكر كل ماض، بمعنى انه لايقر بصلاح أي ماضي، فهو يدعو الى بناء جديد من أساسه عنه مختلف الامم، وهناك اتجاه آخر ينكر الماضي عامة في مظاهره فقط وفي الواقع ينكر الماضي العربي، وهذا الاتجاه هو

الاتجاه المعجب بالغرب وحضارته، والذي يدعو الى اهمال الماضي وتناسيه وأخذ الحضارة الغربية بكليتها، فهو يعتقد أن فساد الحاضر في المجتمع العربي ليس نتيجة انحراف ومرض أصاب الامة، بل هو نتيجة منطقية لبذور من الفساد كانت منذ البدء في حياة العرب، اولامكانيات من الخطأ والانحراف تضخمت ونمت مع الزمن حتى وصلت الى هذا الحاضر، وهناك اتجاه ثالث هو اتجاه البعث العربي الذي لايتعصب لنظرية معينة ولا يقول بالاخذ المصطنع، بل يعتبر حياة الامة كجسم حي كان صحيحا ثم اعتل، ويعتبر ان التقدم يعني معالجة المرض والعودة بالامة الى الوضع السوي السليم.

هذا الموقف الاخير يعترف بالماضي دون أن يرى فيه الكمال ويعتبره مرحلة لايمكن أن تسترجع ولكنها تستطيع أن تؤثر، وأن لها في الحاضر صلات ووشائج حية، وهي وان كان تجاوزها واجبا، فليس بترها واستئصالها ممكنا ولا مفيدا. فنحن ننظر الى الماضي لنفيد منه لا لنفيده، لانه بغنى عنا، ولنعين الاسس التي يجب أن نبني عليها مستقبلنا هذا منذ الحاضر، فهذه الأسس يجب أن تكون مطلقة ثابتة فلا خير في أساس يتبدل مع الزمن ويصلح لقسم من المواطنين أولنوع من التفكير، كما انها يجب أن تكون أسسا حية، معجونة بدم الواقع منسوجة بنسيج التجارب.

لقد أفصح الدين في الماضي عن الرسالة العربية التي تقوم على مبادىء انسانية فهل معنى ذلك بأنه يتعذر على هذه الرسالة أن تكون قومية؟ واذا اعتبرناها قومية فكيف فهمها غير العرب فوسعتهم وطبعتهم بطابعها، وهل الرسالة شيء ينتهي في وقت ما ام انها تتجدد وتتكامل مع الحياة؟ واذا افترضنا ان مضمونها واحد فما معنى خلود الرسالة، هل هو جمودها اي انها تحوي أشياء لا تزيد ولا تنقص أم يعني انها فوق الاشياء وانها نزوع ومهمة؟

هذه كلها أسئلة تطرح بصدد الرسالة العربية، ويمكننا أن نجيب بأن الرسالة يجب أن تفهم على انها نزوع واستعداد أكثر من كونها أهدافا معينة محدودة. ولا بد لنا ونحن في معرض الكلام عن الرسالة العربية في الماضي من أن نرسم صورة موجزة سريعة للفترات الرئيسية الممثلة لحياة الامة العربية والمفصحة عنها حتى

الآن .

ان الجاهلية متمثلة بالشاعر الجاهلي ، فهو لسان حال القبيلة متصل بها قلما ينفصل عنها او يستقل بالكلام لانه يتكلم أكثر الاحيان بلسان الجمع . فالجاهلية تمثل تجانس المجموع الى حد بعيد وضيق هذا المجموع ايضا ، فليس للفرد في الجاهلية مكان ، انها طغيان المجموع على الفرد ، فالقيم تستمد من هذا المجموع والفرد متقيد بها ، والجاهلية تمثل أيضا تجاهلا للقدر كأنه لم يكن بينها وبينه أي صلة او أي تعارف واضح على الاقل . والجاهلي في شعره وتفكيره وسلوكه يعيش في عزلة المكان ووحشة الزمان ، لايتصل بالماضي ولايتعرف على المستقبل او يتوقع منه شيئا ، كما لا يتصل بالعالم المأهول النائي ولا يدرك سر الكون الواسع المحيط به . في حياته نقطة مضيئة واحدة هي سلسلة الحاضر ، انها مسرح نشاطه وبطولته ولا يمكننا أن نتصور بطلا جاهليا بدون جمع يشاهدون بطولته ويصفقون له .

ثم يظهر الاسلام فيحدث انقلابا في حياة العرب وفي أنفسهم . فالقيم لم تعد تستمد من المجموع ، كما ان الفرد ليس هو الذي يفرضها . انها تصدر من مكان هو فوق المجموع والفرد معا ، وفي هذا ضمان لحرية الفرد وانسجامه مع المجموع في آن واحد . أما صدر الاسلام فانه من ناحية اخرى يمثل اتحاد النفس العربية مع القدر بعد ان كانت متجاهلة له ، فتصبح ارادة القدر هي ارادتها بعد عزلة المكان ووحشة الزمان ، ويصبح العالم كله ، لا بل الكون وكل ما هو منظور وغير منظور مسرحا لنشاطه ولتطبيق هذه القيم الجديدة التي ظهرت في الحياة العربية .

والحاضر الذي كان النقطة الوحيدة التي يتمسك بها الجاهلي وينقذ بها نفسه من النسيان والعدم ، أصبحت في نظر العربي الجديد المسلم هي النقطة المظلمة وحدها وكل ما عداها مضييء ، لانها هي مكان التجربة والامتحان ، والهوة السحيقة التي لاتجتاز الا على جسر من الجهاد والتقوى . لقد تبدل القلق الخارجي في نفس العربي الجديد وحل محله القلق الداخلي ، كما تبدلت عزلة المكان ووحشة الزمان بعزلة الفكر ووحشة في النفس والضمير فلم يعد الرجل يطمئن بسهولة الى قيمة أعماله ، ويقتنع بموافقة المجموع او القبيلة ، بل لم يعد يقتنع بتلك القيم التقليدية ،

بل لم يعد يقنعه شيء غير رضا ذلك الضمير الصعب الممعن في التشدد.

هذه الفترة التي انتقل فيها العربي من الجاهلية الى الاسلام، من حياة سجينة في قيم المجموع وتقاليده الى حياة تتحقق فيها الحرية الفردية والمساواة بين الافراد كانت قصيرة جدا لم يلبث العرب بعدها ان غرقوا في بحر لانهاية له من الشعوب الغريبة المختلفة. ومنذ أن فقدوا بعد سنوات معدودة شعورهم بوحدتهم القومية وغرقوا في تلك اللجة المتباينة المتماوجة من الشعوب، عادوا الى عصبيتهم الجاهلية والى صراع القبائل وتنافسها، فعندما لا تتوافر الحياة القومية على شكلها الصحيح تعود الأنانية الضيقة والنظرة المحدودة. ولقد تلت هذا عصور الضعف، وتبدأ منذ ان فقد العرب هذا التجانس القومي وخير من يمثل هذه العصور هو المتنبي. قد يرى في هذا مفارقة لان المتنبي شاعر القوة غير انه في الحقيقة رد فعل لعصر الضعف، لذلك فهو يمثله تمثيلا صادقا.

في هذا العصر تنعكس الآية، فالقيم لاتستمد من المجموع لانه تفكك وانهار وقام على أنقاضه أفراد يمثلونه، والفرد يستمد القيمة من نفسه ولا ينشد الا البطولة والقوة للقوة، وهكذا لم تعد القيم فوق الفرد والمجموع معا بل أصبحت قيما فردية يخلقها الفرد لنفسه، وبعد ان كانت المساواة في الجاهلية على حساب الحرية، أصبحت الحرية في عصر الضعف على حساب المساواة، فالفرد يرفض التساوي مع غيره لأنه لايجد مجموعا حيا ينتسب اليه، وهو وحيد لذلك يقول بمبدأ التفاوت ويتخذ لنفسه مثلا أعلى يعلو بنسبة افتراقه عن مثل الآخرين واختلافه عنهم واحتقاره لهم، وللمتنبي في التعبير عن هذا أقوال كثيرة.

ان غايتنا من هذا العرض هي ان نعبر عن روح العربي، فنرى في أي وسط وضمن أية شروط تطمئن الروح العربية وتأخذ مداها وحريتها وتنطلق على سجيتها.

الجاهلية تمثل وسطا عربيا صرفا غير انه ضيق محدود، فقد كثرت التقاليد وبولغ بالاستسلام للماضي وللقيم الموروثة حتى تعذر وجود الفرد الذي هو وحده يحيي المجموع ويجدده. فالجاهلية تمثل جسما حيا قويا ولكنه سجين تعوقه العوائق فكان لابد له من ان يتخطاها ويفلت من القيود. ثم أعقبت ذلك فترة قصيرة تحققت فيها

مطالب الروح العربية في الحرية والمساواة وفي انطلاق النفس العربية والفكر العربي الى ما هو أثبت وأوسع من القيم النسبية الواهية، فارتبطت بقيم مطلقة ثابتة شعر العربي بالارتياح اليها والاطمئنان فأعطى كل ما عنده. ولما فقد الكيان القومي عاد الفرد الى الوحشة واليأس.

قد يكون هناك بعض الشبه بين نفسية المتنبي مثلا وبين الجاهليين ولكنه شبه ظاهري خداع. ففي الجاهلية ضيق ينبىء عن أمل واسع وثورة تتهيأ، في حين أن ثورة الفرد التي يمثلها المتنبي ثورة يائسة الى أبعد حدود اليأس، لأن العلاقة الحية التي لايمكن للفرد أن يعيش بدونها وهي الارتباط بمجموع حي، قد فقدت في عصر الضعف وطغيان العناصر الاجنبية وتفكك الكيان العربي.

ان غايتنا من عرض هذه الصورة البسيطة لفترات رئيسية من حياة الامة العربية - كما قلنا - أن نستخلص منها ما يفيدنا في حاضرنا فكيف يكون حاضر البعث الجديد؟

انه لايزال مترددا حائرا فيه ميل الى سيطرة قيم المجموع كما في الجاهلية. فالبعث الجديد مهدد بأن يخنق نفسه ويغل نشاطه اذا تبنى هذا الطغيان للمجموع على الفرد، والمجموع لاينتج غير قيم نسبية، لذلك يكون البعث مهددا بأن يقوم على أسس متقلقلة لا تصمد للزمن ولا تصلح لكل الحالات. ويبدو هذا جليا عندما نرى البعض يقولون مثلا بأن العروبة فوق الجميع، فهم يقصدون بالعروبة ما يقرره المجموع. وفي مثل هذا القول خطر. فنحن نؤمن بأن العروبة فوق الجميع بمعنى انها فوق المصالح والانانيات والاعتبارات الزائفة الزائلة، ولكن شيئا واحدا نؤمن بأنه فوق العروبة، ألا وهو الحق. فالعروبة يجب أن ترتبط بمبدأ ثابت يكون هو الضامن الوحيد لتجدد ولتكامل ولاستمرار حياتها نحو النمو والاتساع، فيجب أن يكون شعارنا: الحق فوق العروبة الى ان يتحقق اتحاد العروبة بالحق.

ان الرسالة العربية اليوم هي في ان يتطلع العرب الى بعث أمتهم، فهذا خير ما يقدمونه للانسان لأن القيم الانسانية لايمكن أن تخصب وتثمر الا في أمة سليمة. فعلى العرب أن يحيوا حاضرهم حتى يستطيعوا ضمان حياة مستقبلهم لان المستقبل

لن يأتي ما لم نتوصل الى أن نحيا حاضرنا بآلامه ومآسيه.

ان الرسالة العربية الخالدة هي في فهم هذا الحاضر وتلبية ندائه استجابة لضروراته. والخلود ليس شيئا بعيدا في الأفق أو خارج نطاق الزمن. انه ينبعث من أعماق الحاضر، فاذا فهمه العرب بصدق وعاشوه باخلاص فانهم سيؤدون رسالتهم الخالدة. انهم اذا عرفوا هذه التجربة ومروا بها حتى نهايتها، وتغلبوا على ضعفهم وتقاعسهم ونفسيتهم السطحية الزائفة، لايكونون قد بنوا أمتهم فحسب وأنشأوا كيانا قوميا بل يكونون قد قدموا للانسانية كلها بنتيجة هذه التجربة أدوات صالحة أيما صلاح ومهيأة أيما تهيئة لحمل أعظم الرسالات وأصدقها.

عام ١٩٤٦

معنى الرسالة الخالدة

طالما وجه إلي أعضاء الحركة وأصدقاؤها السؤال عما نعني بالرسالة الخالدة. وكنت دوما أجيب جوابا بسيطا لهؤلاء الذين يظن أكثرهم ان الرسالة العربية الخالدة هي حضارة وقيم معينة يستطيع العرب في المستقبل عندما يبلغون المستوى الراقي السليم المبدع ان يحققوها وينشروها بين البشر، واعتبرت هذه النظرة بعيدة عن الحياة وعن التجربة، ورأيت أنهم يحسبون الرسالة شيئا جامدا منفصلا عن نفوس أبناء الامة وحياتها وتجاربها. فكنت أجيب دوما بأن رسالة العرب الخالدة ليست للمستقبل وانما هي الآن في طور التحقيق. انها هذا الاقبال من العرب على معالجة مصيرهم وحاضرهم معالجة جدية جريئة وهذا القبول بأن تكون نهضتهم نتيجة التعب والالم، هذا التحسس بالآفات والمفاسد التي انتابت حياتهم ومجتمعهم، هذه الصراحة في رؤية عيوبهم، هذه الجرأة في الاعتراف بها، وهذا التصميم الرجولي على ان ينقذوا أنفسهم بقواهم الذاتية غير معتمدين على قوى أجنبية او على سحر، هذه التجربة المرة المملوءة بالكوارث... هذا الحاضر الذي يحياه العرب الآن هو بدء الرسالة الخالدة، لأنهم في هذه التجربة سيعرفون من جديد ما معنى العمل والتضحية، ما معنى التفكير السليم المستقل الذي لايخاف ضغط الغوغاء، ما معنى الخلق الحر الذي لايستسيغ التقليد. في هذا الحاضر الذي يبدو أسود قاتماً بشعا فقيرا، تكمن الكنوز الوفيرة، الكنوز الروحية والخلقية والفكرية للنوع السليم من العرب، ففي كل عربي بذور السلامة والصحة.

ان القيم التي نتغنى بها والتي نعرف معرفة سطحية جامدة ان جدودنا الابطال قد مثلوها، ثم نعجز عن تحقيق جزء بسيط منها في حياتنا، علينا أن نستكشفها من جديد، وهذا هو معنى التقدمية التي تظهر للعقول القاصرة بأنها تنكر التراث القومي والاخلاق القويمة، بينما هي في الحقيقة وصول صحيح إلى القيم الحقيقية الكامنة في النفس العربية والتي لايمكن أن ترجع الينا من نفسها دون أن نتعب ونصعد اليها،

وأن نشعر بأننا ولدنا بها ولادة جديدة واكتشفناها اكتشافا جديدا .

أيها الاخوان، في الوقت الذي تكثر فيه موجات التشاؤم والتخاذل، وتتكاثر فيه الكوارث والنكبات، يشعر العرب الصادقون بأن يوم الخلاص قد قرب، لأن الطريق قد فتح لتهتز النفس العربية أخيراً، لتهتز اهتزازا عميقا، لتتذكر ذاتها ومهمتها وتنتفض بانطلاق وحيوية وايمان مستعذبة كل ألم أو تضحية في سبيل ان تحقق رسالتها في الوجود. في هذه الاوقات التي تكثر فيها المصائب ويكثر المتشائمون يجب أن يظهر المؤمنون الحقيقيون، ولا يأتي الايمان الحقيقي الا بنتيجة التجربة والمعاناة، ونتيجة الامتزاج الفعلي بين الافراد وبين مصير امتهم. عندما يتم هذا الامتزاج نستطيع أن نثق بأن العرب يسيرون إلى ظفر محقق في آخر هذه التجربة، وانهم سيحملون ثمارا روحية وخلقية وفكرية لاتغذي مستقبلهم فحسب وانما بمقدورها أن تنقذ الانسانية مما ينتابها من اضطراب في القيم، ومن تشويه فيها لأن هذه التجربة التي يمر العرب بها اليوم لااعتقد بأن أمة غير العرب قد عانتها، فاذا كان ابتلاؤها بهذه المصائب اليما موجعا، فعلينا أن ننظر أيضا إلى حكمة القدر الذي يوصل الامة العربية للعظمة والمجد حتى في أوقات محنتها وتأخرها، فارتقاؤها يكون عظيما وقيمتها أيضا عظيمة، ولا تكون الآلام عميقة إلى هذا الحد الا لكي نستكشف كنوزا عجزت عن الوصول اليها امم غيرنا. وما هذه التجارب التي يفرضها القدر علينا الا في سبيل أن نخرج من بعد طول القعود والسبات بتجديد واكمال للرسالة وللقيم وللحضارة العربية التي انما قدر لها أن تتغذى دوما بآلالام والاتعاب .

عام ١٩٥٠

الرسالة الخالدة

يحسب البعض ان الرسالة شيء جامد وانها عبارة عن أهداف منفصلة عن الحياة، وينتظرون يوما من الايام أن تستطيع الامة العربية بلوغ المستوى الذي يؤهلها لحمل هذه الرسالة.

ان الرسالة العربية الخالدة بادئة منذ الآن، فهي ليست شيئا منفصلا عن العرب في هذه المرحلة القاسية المملوءة بالامراض. الرسالة العربية بدأت منذ أن بدأ العرب، وخاصة منذ أن بدأ الجيل الجديد يدرك بجرأة ووعي ان حياة الامة العربية لا يمكن أن تستمر في هذا الطريق المعوج المنحدر، وانه لابد من حركة انقاذ، أي لابد من الانقلاب الشامل.

عندما بدأ العرب يواجهون مشكلاتهم بجرأة وصدق وصراحة ووثقوا بأن حل هذه المشكلات سوف يأتي من داخلهم، لا مِن معجزة أو من دولة خارجية وانما بتعبهم وثباتهم، عندها بدأت الرسالة الخالدة تتحقق على الارض العربية.

فنحن لا نفهم من الرسالة انها الحضارة التي لانستطيع الآن تحقيقها بل ونكاد لا نحسن فهم حضارة الآخرين. الرسالة شيء أعمق وأصدق من ذلك. انها تجربة حية، تجربة أخلاقية ونفسية تقوم بها أمة عظيمة وتضع في هذه التجربة كل حياتها.

انها تدخل هذه التجربة بايمان، وتسعى للتغلب على كل المفاسد بنفسها وقواها الذاتية، دون موارية او خداع او انصاف حلول او حلول سطحية.

ان هذا الطريق سيوصل العرب الى تغذية الروح الانسانية بكاملها لأنهم يكونون قد جربوا أعظم تجربة، ولأن آلام العرب لم تمر على أحد من البشر او امة من الامم.

فمن هذه المشاكل القاسية والمعقدة ومن مواجهتها بالصدق والصراحة، ومن الاتكال على قوى الامة وحدها، من كل هذا سيخرج العرب في النهاية وهم أرفع روحا، وأعمق حسا وشعورا، وأوسع وعيا وأكثر واقعية من أكبر امة على وجه الارض.

عندها يستطيعون أن يقدموا للانسانية ثمرة جديدة هي نتيجة هذا التوحيد بين

النظرة المثالية والواقعية، هي ان يغذوا الروح بقوة العمل، وأن يرفعوها الى مستواها الرفيع العالي، وهي ان لا تؤمن بمبدأ الا اذا كانت تستطيع تحقيقه. عندها لا تكون الرسالة حضارة فحسب، وانما كنز روحي.

٢٣ نيسان ١٩٥٠

نظرتنا الى الدين

قبل ان نتحدث عن موقف الدولة العربية المقبلة من الدين وعن مركز الدين في حياة الامم والشعوب بصورة عامة، وعن مركزه في حياة الامة العربية، أحثكم في هذه المرحلة، مرحلة التحرر والانبعاث، على أن تجعلوا ثقافتكم ثقافة متينة، وان تستزيدوا دوماً من الثقافة والفكر وان تتسلحوا بحرية التفكير قبل كل شيء، فبدون حرية التفكير لايمكن أن تصلوا الى الحقيقة.. الى الحل الناجع لكم ولأمتكم.

الدين كما يظهر لنا من استعراض تاريخ البشر منذ أقدم العصور الى اليوم، هو شيء أساسي في حياة البشر. فاذن بهذه الكلمة نطرح جانباً ذلك الاستخفاف الرخيص بالدين الذي يظهر عند بعض الشباب السطحيين. فموضوع الدين هو موضوع جدي ولا يمكن أن نحله بكلمة أو بحكم سطحي عابر، ولكن يجب أن نفرق بين الدين في حقيقته ومرماه، وبين الدين كما يتجسد أو يظهر في مفاهيم وتقاليد وعادات ومصالح، في ظرف ومكان معينين.

المشكلة اذن هي في الفرق بين حقيقة الدين وظاهر الدين، لأن له حقيقة وله ظاهر، والمشكلة تنشأ عندما يكون الفرق بين حقيقة الدين وبين مظهره فرقاً واسعاً جداً، يبلغ أحياناً حد التناقض، يكون المظهر احياناً مخالفاً كل المخالفة لمرامي الدين الاصيلة ولحقيقته، وحينئذ تتكون الازمة عند الشعوب والافراد. والازمة تتمثل بأشكال مختلفة عند الناس، حسب مستويات الناس الفكرية وحسب تجردهم عن المصالح، او عبوديتهم للمصالح الخاصة. فالمسألة معقدة يدخل فيها الفكر والعلم، ويدخل فيها الهوى والعاطفة وتدخل فيها المصلحة والمنفعة، وعلى الشباب العربي اليوم أن ينظر بكل ترو وهدوء، ونزاهة في الحكم وصفاء في الذهن.. ينظر الى هذه المشكلة، ويعرف ما هو نصيب الهوى فيها وما هو نصيب المصلحة الخاصة. عندها يستطيع ان يصل الى حكم قريب من الصحة والفائدة العامة.

في حياتنا القومية حادث خطير وهو حادث ظهور الاسلام.. حادث قومي،

وانساني عالمي . ولا أجد أن الشباب العرب يعطون هذا الحادث حقه من الاهتمام . لا أجد أنهم يدرسونه ويحيطون بكل ظروفه وتفاصيله وملابساته ، لان فيه عظة بالغة ، فيه تجربة هائلة من تجارب الانسانية يمكن أن تغنيهم وتغني ثقافتهم العملية والسياسية وكل شيء .

هل يفكر الشباب أن الاسلام عند ظهوره هو حركة ثورية ، ثائرة على أشياء كانت موجودة : معتقدات وتقاليد . . ومصالح؟ . . وبالتالي هل يفكرون بأنه لايفهم الاسلام حق الفهم الا الثوريون؟ . وهذا شيء طبيعي لان حالة الثورة هي حالة واحدة لاتتجزأ ، وهي حالة خالدة لاتتبدل ، فالثورة قبل ألف سنة وقبل ألفي سنة وقبل خمسة آلاف سنة ، والآن وبعد ألوف السنين : الثورة واحدة ، لها نفس الشروط النفسية ، ولها نفس الشروط الموضوعية أيضاً الى حد كبير . فمن الغريب العجيب ، وهذا ما يجدر بكم أن تفكروا فيه وتتأملوه ، ان المدافعين الظاهرين عن الاسلام الذين يتظاهرون بالغيرة اكثر من غيرهم وبالدفاع عن الاسلام ، هم أبعد العناصر عن الثورة في مرحلتنا الحاضرة ، لذلك لايعقل ان يكونوا فهموا الاسلام . ولذلك من الطبيعي جداً أن يكون أقرب الناس الى الاسلام فهما وتحسساً وتجاوباً هو الجيل الثوري ، الجيل الثائر على القديم الفاسد طبعاً . وهذا مالا نراه ، أي أن الجيل الثائر ليس كله ولا أكثره معترفاً بهذه الصلة بينه وبين الاسلام ، في حين أن الذين يدعون هذه الصلة ويتشبثون بها هم أعداء الثورة ، هم ممثلو الاوضاع القديمة التي يجب أن تزول لكي تنهض الامة العربية .

انكم بلا شك تعرفون بعض الاشياء الاولية عن الاسلام ، وأرجو أن تكونوا عارفين لكل الاشياء . أول ما تعرفونه عن الاسلام أن هذه الحركة التي نادى بها فرد واحد في البدء ، وآمن بدعوته أفراد قلائل ، واحداً بعد الآخر ، وأفراد أكثرهم ضعفاء بالنسبة الى مجتمعهم ، وأنهم جاهروا بهذه الدعوة وتحملوا الاذى والضغط وتحملوا الشيء الكثير مدة لا تقل عن ثلاث عشرة سنة في مكة حتى الهجرة ، وبعد الهجرة ينتقل الاسلام الى دور من القوة النسبية : اذ لم يعد المسلمون تلك الفئة المحصورة في بحر من الاعداء ، بل كونوا لأنفسهم جماعة كلها مؤمنة . فهل يحق لمن لم يعرف

الاضطهاد، ولمن لم يرض أن يكون من الفئة القليلة المجاهرة بالحق في وجه الفئة الكبيرة الضالة. . هل يحق له أن يتكلم باسم الاسلام؟ وان يعتبر الاسلام ملكه الخاص. .؟ وانه هو المدافع عنه؟. . أنا لا أعتقد ذلك، لا أعتقد أن ذاك الحق يمكن أن يعطى فعلا الا للمضطهدين. . الا لذوي المبدأ والشجاعة الذين يجاهرون بعقيدة يؤمنون بها ويرون فيها الخير للمجموع، وان كان أكثرية الناس حولهم وجملة الاوضاع المحيطة بهم هي ضدهم، تؤذيهم، وتضغط عليهم، وتكافحهم. هؤلاء لهم الحق لان المبادىء والدعوات سواء أكانت دينية أو اجتماعية أو قومية أو فكرية. . المبادىء والدعوات معيارها العمل وليس معيارها الكلام، فالكلام لايكلف شيئاً. الكلام سهل سواء أكان شفهياً أو مكتوباً، لا يكلف اكثر من الجهد اللازم لكي نتفوه بهذا الكلام أو نكتبه على الورق، ولكن قيمة المبادىء هي عندما تمتحن بالعمل. فاذا قبلنا بهذا المقياس تنقشع من على أعيننا غشاوات كثيرة. ونكتشف زيفاً كثيراً وتضليلاً كثيراً أو جهلاً وغروراً عند الذين يتوهمون أو يدّعون بأنهم أنصار المبادىء ودعاة المبادىء، ولكنهم لم يختاروا الطريق الصعب بل اختاروا السهولة والسير مع التيار الناجح، وأن يكونوا مؤيدين ومدعومين بكل ما في المجتمع من وسائل الراحة والحماية، وان لا تهدد راحتهم او مصالحهم أو كبرياؤهم بأي أذى. . نكتشف بأن هؤلاء ليسوا هم اجدر من يدعي الدفاع عن المبادىء او الانتصار لها.

فلو تخيلنا ان المسلمين الاولين الذين عرفوا النضال من أجل المبدأ، وذاقوا كل مرارته، واجتازوا امتحانه، ودفعوا ضريبته. . هذه الفئة أو بعض أفرادها لو جاؤوا اليوم، وهبطوا على حياتنا العربية الحاضرة. . تصوروهم بنفسيتهم المناضلة الثائرة، بشعورهم الحاد بالحق، وبأن الحق شيء مقدس لا يكفي ان نعرفه، بل نعرفّه للآخرين، وأن نستميت في سبيله حتى يظفر ويهتدي به الآخرون، وهذه نفسية المؤمن بدعوة حقة. لو جاؤوا اليوم، اي وسط يستطيبونه ويهدأون اليه، ويشعرون اليه بالقرابة؟ هل هو وسط الظلم الاجتماعي، وسط الاغنياء والوجهاء والمستثمرين للشعب والذين ينامون ملء جفونهم بينما تسعون بالمئة من شعبنا العربي يعيش حالة

البؤس والمرض والذل؟ . . هل يستطيعون ان يعيشوا مع هذه الطبقة من المستغلين والمتربعين على الزعامات؟ . . اومع حماة هذه الطبقة الذين يدافعون عنها تارة باسم الدين وتارة بأي اسم آخر؟ . أنا اعتقد بأن المسلمين الاولين لو رجعوا اليوم لما استطابوا العيش الا في القرى المظلمة البائسة مع المظلومين والمستعبدين، الا في السجون مع المناضلين، فأصحاب دعوة الحق هم دوماً الى جانب الحق.

الشباب مطالبون بأن ينظروا هذه النظرة النظيفة، بأن لا دين مع الفساد والظلم والاستثمار، وان الدين الحقيقي هو دوماً مع المظلومين ومع الثائرين على الفساد. وهذا يعني ان كثيرين شوهوا الدين في بلادنا وفي ارضنا كما شوهه كثيرون في غير بلاد وغير أراض. فالدين المسيحي في اوروبا، حتى اليوم، بأكثرية ممثليه الرسميين هو الى جانب الفساد والظلم يحميهما ويعطيهما مبررات البقاء، لذلك فقد نفوذه وطغت موجة الالحاد في الغرب ليس عبثاً بل لهذا التناقض، لان الدين بممثليه وقع في التناقض: لان الدين وجد ليشجع المحبة والاخاء، ليحمي الضعيف، ولكن أصبح بممثليه سياجاً لكل هذه المساوىء.

فالازمة اذن ليست بسيطة. . هي أزمة انسانية، أي أنها تمس أعماق الضمير الانساني في الافراد، ولكن قد يفهمها عدد قليل من الافراد على حقيقتها، بينما أكثر الناس يفهمونها فهماً سطحياً. والفهم السطحي هو ان نستنتج بسرعة، بأنه ما دام مظهر الدين في هذا الوقت وما دام ممثلو الدين الرسميون هم في صف الواقع الفاسد وليسوا في صف الثورة على الفساد فاذن الدين من أساسه فاسد ولا وجوب له ولا خير فيه، لذلك يجب التخلص من الدين لانه سلاح بيد الظالمين والمفسدين. هذه هي النظرة السطحية والاستنتاج الخاطىء جداً، وهذه هي النظرة التي توقفت عندها الشيوعية. ولذلك فالشيوعية ليست عميقة في كل نواحيها ـ ولو انها في كثير من نواحيها جد عميقة ـ ولكنها بقيت سلبية في كثير من المواقف: لاحظت الماركسية وملاحظتها حقة، بأن الدين أصبح في أوروبا سلاحاً بيد الظالمين المستثمرين المستعمرين لابقاء الشعب رازحاً تحت الاستثمار والاستعباد،

وهذا حق ـ هذه الملاحظة صحيحة ومن صميم الواقع ـ فقالت: الدين أفيون الشعوب. . هو المخدر. . السم الذي يمنع الشعب من الثورة، ولذلك أعلنت الالحاد كعقيدة. . الحاد بكل شيء خارج عن المحسوس. هذه نظرة عاطفية، فيها الهوى والحقد، وعصارة الالم من الظلم وأوضاعه: بما ان الدين واجبه الحقيقي، ومرماه الاصلي الحقيقي هو اشاعة العدل ورفع الظلم، وبما ان الدين أصبح اداة للظلم، اذن يجب ان يتحرر منه البشر.

هذه النظرية السطحية السلبية نحن لم نتوقف عندها ولم ننخدع بها، بل تجاوزناها منذ بدء حركتنا، ومنذ وضعنا التعابير الاولى البسيطة عن حركتنا. ليس فيها هذه السلبية، بل مشينا الى آخر الطريق، ووجدنا بعد اليأس الامل والتفاؤل بالانسان، ووجدنا بعد النقمة والحقد. . وجدنا ينبوع المحبة والاخاء. لم نحكم حكماً نهائياً على وضع عارض ومؤقت ومشوه، وبالتالي كانت فكرتنا فكرة روحية. الا انه يجب ان نفرق بين تفكيرنا نحن وبين تفكير آخرين اذ بينهما من الفرق ما بين الأبيض والاسود. فنحن عرفنا واختبرنا صحة الحملة السلبية على مظهر الدين في هذا العصر، الحملة السلبية التي ذكرناها الآن عرفناها واختبرنا صحتها، ووافقنا على أنها مشروعة في حملتها على مظهر الدين، ولكننا تجاوزناها وقلنا: ليس قدراً على الدين ان يبقى متحجراً دوماً. الدين قادر على ان يعود الى حقيقته اذا وجد أفراداً مؤمنين متجردين يعيدون الى الدين صفاءه الاول. الدين شيء أساسي وسيرجع الى جوهره متغلباً على النقمة.

هناك فرق بين هذه النظرة التي هي نظرتنا، وبين الذين يوافقون على مظاهر الدين دون أن تنشأ في نفوسهم هذه المعركة التي عانيناها، ودون أن ينظروا الى تشويه مظاهر الدين، ودون أن يثوروا وينقموا، ويتغلبوا على هذه النقمة تغلباً ايجابياً. قلنا ان الدين شيء أساسي وسيرجع الى جوهره متغلباً على النقمة. . وحاربنا هذه المظاهر الفاسدة لكي يعود الدين الى صفائه. أما الذين لايشعرون بأن ثمة معركة يجب أن يخوضوها، ولم يتجاوبوا مع هذه النقمة المشروعة التي تنشأ في قلوب المظلومين والذين رأوا في الدين في هذا العصر سلاحاً يستند عليه

الظالمون. . ان الذين لم يشعروا بهذه النقمة ولم يتجاوبوا معها، ولم يصلوا الى اعماقها لكي يتغلبوا عليها بحل ايجابي متفائل مؤمن بأن بعث الدين يكون بازالة هذه المفاسد والمظالم، وأن ألف حجة في الدفاع عن الدين لاتغني ولا تساوي حجة عملية واحدة تزيل شيئاً من مظالم الحياة، فهم أعداء الدين، لن ينفع الوعظ والترديد بأن الدين خير وبركة، وبأن فيه الكمال كل الكمال. . ان هذا لايغني شيئاً، وهو يستغل سواء أراد الذين يتكلمون ذلك أو لم يريدوا، فان مستغلي الاوضاع الفاسدة سيستغلون هذا الفساد لكي يخدروا الشعب، ولكي يمنعوا الشعب من الثورة على ظالميه ومستعبديه.

هناك نظرة سطحية جداً الى مظاهر الالحاد في حياة هذا العصر سواء في الشرق او الغرب، نظرة استنكار واشمئزاز من كل مظهر الحادي بأنه هذا هو الشر العميم دون ان نبحث عن أسباب هذا الالحاد وهذه المظاهر الالحادية، ولكن متى عرفنا بأن الاوضاع الجائرة هي أهم سبب في هذه المظاهر، وأن ما جاء في الحديث كما يذكر: «كاد الفقر يكون كفراً» معناه ان الاوضاع الجائرة تخرج الانسان عن دينه، فاذن كيف يسمح بعض الناس لأنفسهم ان يحكموا براحة وبساطة، وبدون ان يتعبوا أنفسهم في البحث والتفتيش عن الاسباب، أن يكفّروا فلانا ويرموا آخر بالزندقة، ويثوروا على الالحاد وغير ذلك؟. . . وهم لم يتنازلوا أن يروا ما هي الاسباب التي تؤدي الى المظاهر الالحادية ولم يتنازلوا أن يتعبوا عقولهم. . لماذا اليوم توجد مظاهر الحادية وفي الماضي لم تكن موجودة. .؟ في الماضي كانت أوضاع سليمة أو شبه سليمة لم تكن تستوجب هذه الثورة وهذه النقمة.

ونحن لا نرضى عن الالحاد، ولا نشجع الالحاد، ونعتبره موقفاً زائفاً في الحياة، موقفاً باطلاً وضاراً وكاذباً. اذ أن الحياة معناها الايمان، والملحد كاذب: انه يقول شيئاً ويعتقد شيئاً آخر. . انه مؤمن بشيء. . . مؤمن ببعض القيم. ولكننا ننظر للالحاد كظاهرة مرضية يجب أن تعرف أسبابها لتداوي، ولا ننظر اليه كشر يجب أن يعاقب لان ذلك لا يخفف الالحاد بل يزيده، فعندما نبحث عن الاسباب، نستطيع أن نزيل الالحاد.

قلت بأن الالحاد موقف كاذب وهذا يعني أن الملحد انسان متناقض يدعي شيئاً ويعمل خلافه. فالثورة على الدين في أوروبا هي دين، هي ايمان بمثل وبقيم انسانية رفيعة، وهي اقرب الى الدين في حقيقته الاصيلة. وهذه الثورة حملت بذور الخلق والاصلاح، لأنها هزت المجتمع والافراد هزاً عنيفاً، وأرجعتهم الى نفوسهم، وبينت لهم التضليل الذي كان ينطلي عليهم، وحررتهم، حررت انسانيتهم.. حررت شخصيتهم. ولكن هذا موقف ناقص. حينما طلبت منهم ان يرفضوا الدين نبهتهم الى نصف المشكلة فقط. الدين في الاوضاع الحاضرة هو الذي يخلق المشكلة، هو الذي يساعد على بؤسهم وعبوديتهم، ولكن عندما تستيقظ الشعوب وتسترد حقوقها وكرامتها لايمكن ان تقنع بالالحاد، وعندها تخطو الخطوة الجديدة وتكمل النقص بالخطوة الايجابية، وتعود الى دين واضح سليم منطبق تمام الانطباق على مراميه الاولى.

آذار ١٩٥٦

قضية الدين في البعث العربي

ان أول ما أريد ان أنبه اليه هو ان ثقافة الاعضاء والشباب القومي بصورة عامة لا يجوز ان تبقى ثقافة منفعلة[1]، كأن ينظر الى قضية الامة العربية على أنها تحتوي مشاكل نظرية وعناوين لمشاكل يمكن ان تحل بجواب يعطى من شخص او من صحيفة أو مجلة كتلك الاسئلة التي توجه عادة الى المجلات والاذاعات، فذلك لايكون ثقافة. . . وهذا هو النوع الرائج في وسطنا، ويكتفي به عامة الناس والذين لايعتبرون القضية قضية جدية تتعلق بمصيرهم بل تتحول في الواقع بالنسبة اليهم الى كلام وتسلية بالكلام والنقاش لتمضية الوقت والاكتفاء بمفاهيم رائجة سطحية جدا وخاطئة من أساسها، والدوران في نطاق هذه المفاهيم العامية السطحية واحتدام الجدل بين وجهات نظر وآراء ليست هي في الواقع لا وجهات نظر ولا آراء. ان الذي يهمنا نحن بالدرجة الاولى هو تكوين الجيل العربي الجديد الذي تلقى عليه مهمة الانقلاب العربي وايصال القضية القومية الى الظفر والنجاح، يهمنا أن يكوّن هذا الجيل لنفسه ثقافة حقيقية متميزة تميزا واضحا عن العامية المسيطرة على مجتمعنا.

وباختصار: كيف يجب أن نفهم الثقافة؟ هي أولا مشاركة في الجهد وليست انفعالا وتكيفا، أي، ان الذين عليهم أن يتثقفوا يتوجب عليهم ان يتعبوا وأن يتقاسموا الجهد مع مثقفيهم وان يمشوا بأنفسهم خطوات جديدة في طريق المعرفة والتثقف اذ لا يجدي قضيتنا شيئا ان نجمع شبابا لا يعملون أكثر من حفظ بعض الشعارات والكليشهات والاجوبة العامة الموجزة التي يمكن أن تفهم على أي شكل أي ان لا تفهم مطلقا. على الشعب العربي ان يفهم ان الثقافة هي نوع من أنواع النضال، النضال مع النفس، النضال مع الفكر لكي يتعب في تحصيل المعرفة ولكي يجرؤ على تبديل الاسس السطحية في التفكير الشائع التي هي في داخله لكونه ابن وسطه، لكي يعيد النظر في كل الامور الاساسية حتى يصل الى النظرة الجديدة،

---

(١) حديث القي على الاعضاء والانصار في طرابلس.

النظرة الانقلابية التي أوجدها الحزب في المجتمع العربي الجديد، والتي لايعني وجودها بأن جميع المنضوين تحت لواء الحزب او المناصرين لاتجاهه قد فهموها وحققوها في أنفسهم وعاشوها بعمق. فكل شيء يمكن ان يستعار وان يقلد الا الفكر: على كل شخص، على كل فرد ان يملكه شخصيا، اي ان يمشي هذا الطريق من أوله بنفسه وبجهده الخاص حتى يصح أن يعتبر هذا الشخص انقلابيا وان تكون نظرته أصيلة نابعة من نفسه لا مجرد تقليد واستعارة.

من المهم جدا أن نعود دوما الى أنفسنا بالنقد الذاتي حذرا وحيطة لكي نهدم بعد كل خطوة نخطوها ما يعلق بنا من اصطناع وتزييف وتقليد اذ ليس أسهل من أن يستسلم الانسان للتقليد والتزييف لان فيهما الراحة والكسل. فالحركة الصادقة الحية هي التي تبقى في صراع مستمر مع نفسها كما هي في صراع مستمر مع أعدائها ومع الاوضاع والقيم الفاسدة التي عليها ان تحطمها. لذلك رأيت من الواجب ان ابدأ جوابي على الاسئلة بهذا التنبيه لكي تحتاطوا كثيرا لأنفسكم وترفضوا رفضا باتا وجازما أن تكون فكرتكم وان يكون ايمانكم بالحركة شيئا غير نابع من نفس كل منكم وشيئا سهلا يحفظ بالذهن ويلوكه اللسان ولكنه عديم الصلة بالحياة.

١ ـ السؤال الاول: عن موقف الحزب عندما يصل الى الحكم ويحقق أهدافه او يبدأ في تحقيق الانقلاب العربي، وكيف يكون موقفه من الدين بصورة عامة؟

للاجابة على هذا السؤال لابد من ملاحظة اولى وهي ان لا فرق في نظرة حزبنا بين المرحلة التي تسبق وصوله الى الحكم بالشكل الكامل وبين المرحلة الثانية والاخيرة التي هي مرحلة التحقيق الايجابي، تحقيق الانقلاب العربي الشامل. فعمل الحزب اذن واحد في المرحلتين ومنطقه واحد ونضاله أيضا واحد. كثيرا ما رددنا خلال نضال الحزب هذه الفكرة بأن حزبنا سيعد أو هو مكلف بأن يعد الانقلاب العربي منذ اليوم الاول الذي ظهر فيه باعداده ادوات الانقلاب التي هي نفوس الشباب، اذ لايمكن التفريق بين الانقلاب وأدواته. فكما تكون الادوات يكون الانقلاب، وقد يكون التعبير غير دقيق، اي ان أعضاء الحزب المناضلين الذين نسميهم أدوات الانقلاب يطلب من الحزب أن يربيهم في تفكيرهم وفي سلوكهم

التـربيـة الانقـلابية الصحيحة حتى يستطيعوا أن يحققوا الانقلاب عندما تتوافر جميع الشروط لهم. للانقلاب شروط على نوعين: شروط ذاتية وشروط موضوعية ـ شروط ذاتيـة يجب أن تتحقق في نفـوس الانقـلابيين، في نفـوس أعضاء الحزب وأنصاره، وشروط موضوعية تتعلق بالظروف الخارجية والظروف الداخلية ونمو المجتمع والثروة وشتى النـواحي. فلو أهملنـا الشـروط الـذاتية وتوفرت الشروط الموضوعية فلن يكون ثمـة انقـلاب لانـه لن يكـون ثمـة من يؤمن بهـذا الانقـلاب، ومن يعي أهدافه ومن يتصف بأخلاقه وبالاخلاص له حتى يحققه. لذلك استطيع أن أعود الى المقدمة عن الثقافة واقول بأن من أهم عناصر الثقافة التي يجب ان تطلبوها انتم هو النضال نفسه، هو العمل والمشاركة في حمل المسؤوليات والاتصال الحي بالواقع ومواجهة مشاكله وصعـوبـاتـه والاهتـداء بالـوعي والارادة الى ايجاد الحلول المناسبة لها بشكل يقوي التيار الانقلابي ويوصل الانقلاب الى أهدافه. هذا عنصر أساسي من عناصر الثقافة الجديدة التي نطلبها للجيل الجديد اذ ان كل ثقافة تنحصر في الذهن والتفكير فقط دون مشاركة فعلية وعملية، ليست ثقافة ناقصة فحسب، بل هي ثقافة مختلة ومنحرفة من أساسها لان عنصر العمل مفقود فيها.

المشكلة الدينية هي بلا شك من أبرز المشاكل في المجتمع العربي الحديث، لذلـك لايعقـل أن يتجـاهلها حزبنا وان يتهرب من ايجاد الحلول لها. لهذه المشكلة تعبيرات مختلفة، تعبير فكري يتصل بصميم عقيدتنا الانقلابية وتعبير أخلاقي عملي يتنـاول تصـرفاتنا وردودنا على المشاكل الواقعية التي نواجهها. مهمة الحزب هي أن يضـع للعـرب في هذه المـرحلة الخطيـرة صورة كاملة لمشـاكل حياتهم والحل لهذه المشاكل، واجبه ان يضع لهم صورة كاملة للحياة الانسانية. فهل الدين شيء ثانوي مصطنع في حياة الانسان والامم؟ هل هو شيء عارض ولو انه دخل حياتهم منذ الوف السنين؟ واذا نظرنا اليه على انه شيء غير أصيل، غير أساسي ولا يلبي حاجة صادقة وعميقة في النفس فهل يمكن أن ينتهي ويزول مع ما وراءه من تاريخ حافل طويل منذ آلاف السنين؟

ان الحزب لا يرى هذا بل يرى ان الدين تعبير صادق عن انسانية الانسان، وانه

يمكن ان يتطور ويتبدل في أشكاله، وان يتقدم او يتأخر ولكنه لايمكن ان يزول.

اذن فالدين في صميم القضية العربية والمواطن العربي الذي نعمل لتكوينه لم نرض له ان يتكون تكوينا ناقصا اوزائفا، وأن نكتم عنه جانبا من الحقيقة او نصف الحقيقة فنعطيه فكرة تخدمه وقتا من الزمن ثم لاتعود صالحة، عندها نصل الى الشيوعية وفلسفتها، فنحن منذ بدء حركتنا نظرنا الى الشيوعية كشيء خطير وجدي وجدير بأن يعتبر، وبالرغم من كل النواحي الايجابية الخطيرة التي أتت بها فلسفة ماركس فقد اعتبرناها ناقصة لانها لم تعبر عن كامل الحقيقة بل أخفت بعض نواحيها، وقد يكون قصدها من وراء ذلك تقوية العمل وتركيز العزم على مجال محدود من الاهداف القريبة لكي يكون مردود العمل أكبر ونزوعه أقوى وأفعل، تاركة للزمن فيما بعد ان يصلح ما أهملته وان يكملها. .

فالماركسية تقوم على أساس نفي وانكار كل معتقد يتجاوز الطبيعة والمادة والاشياء المحسوسة كما هو معروف، وليس هذا في الماركسية نتيجة عجز عن الفهم، كلا بل له دافع عملي وهو: ما دام الدين قد استخدم خلال التاريخ، وبصورة خاصة خلال التاريخ الحديث حيث تفاقمت الفروق الطبقية والاستغلال الطبقي، ما دام قد استخدم لابقاء الاستغلال واستمراره ودعمه واستخدم لمنع التحرر البشري وكان في صف التأخر والعبودية والظلم، لذلك رأت الماركسية ان تنسفه نسفا. فالدافع اذن دافع عملي وليس عجزا عن فهم أهمية الدين وحقيقته. ولكننا نحن لانقر هذا الدافع على ما فيه من واقعية، اذ انه ينبىء عن ضعف ثقة بالانسان بأنه لا يتحمل هضم الحقيقة الكاملة. فنحن مع تبنينا للنظرة السلبية الى الدين، اي رغم معرفتنا الطريقة الرجعية التي استخدم الدين بها ليكون داعما للظلم والتأخر والعبودية، نثق رغم ذلك بأن الانسان يستطيع أن يثور على هذه الكيفية في استخدام الدين، وعلى هذا النوع من التدين الكاذب والمشوه وأن يعطي في نفس الوقت للدين الحقيقي الصادق حقه.

ونحن لا نجهل بأن نظرتنا هذه تتطلب من الجهد والحذر اضعاف ما تتطلبه النظرة الشيوعية التي تخلصت من المشكلة بأن رفضتها تماما وألقتها جانبا. اما نحن

فالمشكلة بالنسبة لنا أعقد بكثير لاننا كما قلنا في مرحلة الانقلاب، الانقلاب العميق الجذور في كل الامور الاساسية التي ترتكز عليها حياة العرب والتي يؤلف الدين جزءاً منها. فلو اكتفينا مثلا بالنظرة السطحية وقلنا ان الدين رغم كل انحرافاته وتردياته والاشكال التي يستغل بها ضد مصلحة الشعب وضد التقدم وحرية الانسان، هو بهذه الصورة المشوهة وضمن هذا الاطار الرجعي، شيء صادق وأساسي لا يستغنى عنه وانه متأصل بأعماق الانسان، لذلك فنحن نوافق عليه بهذه الصورة ونتبناه! لو مررنا على الدين هذا المرور السريع لأدى الأمر بنا الى أن نلتقي مع الرجعية وان نقبل كل أمراضنا الاجتماعية والفكرية والاخلاقية وان نكون قد بقينا في أرضنا لم نغير في حياة العرب، وهذا تزوير كبير للحقيقة، وقتل بل خنق للانقلاب قبل ان يولد.

فكرتنا ايجابية تنتهي دوما الى تقرير الحقائق الايجابية، ولكن يجب أن لا ننسى بأن بين وضعنا الان وبين هذه الحقائق الايجابية التي يجب أن نصل اليها عندما يتحقق الانقلاب العربي، مسافات شاسعة يجب أن يبقى فيها التوتر شديدا بين وضعنا السلبي المريض الذي نعيشه وبين المرامي الاخيرة لفكرتنا، وان تكون لدينا الشجاعة الكافية واليقظة التامة لكي نتبين كل مفاسد أوضاعنا ونحاربها محاربة لا هوادة فيها، وان نشق من خلال هذه المعركة السلبية التي نحارب فيها المفاهيم البالية المشوهة، طريق القيمة الايجابية التي سنصل اليها آخر الامر. كثيرا ما قيل لنا، خلال السنوات التي مر بها الحزب في نضاله، من جماعات رجعية، متأخرة في عقليتها، استغلالية في سلوكها تمثل المصالح والعقلية والاوضاع التي يتوجب علينا القضاء عليها، كثيرا ما قيل لنا: ما دامت نظرتكم ايجابية وما دمتم تعرفون قيمة الدين فما الفرق بيننا وبينكم؟

الفرق كبير جدا، هو الفرق بين النقيضين. نحن نعتبر ان الرجعية الدينية تؤلف مع الرجعية الاجتماعية معسكرا واحدا يدافع عن مصالح واحدة، وانها أكبر خطر يهدد الدين. ان هذه الرجعية التي تحمل لواء الدين في يومنا هذا وتتاجر به وتستغله وتحارب كل تحرر باسمه وتدخله في كل صغيرة وكبيرة لكي تعيق الانطلاقة الجديدة، هي أكبر خطر على الدين، وهي التي تهدم مجتمعنا وتشوهه، فلو لم نكن

نحن ولـو لم تكن حركتنـا موجـودة لتهدد المجتمع العربي بأن يشوهه الالحاد، اذ اننا بمقـاومتنـا الـرجعيـة الـدينيـة بدون اعتدال وبدون مسايرة وبمواقفنا الجريئة المؤمنة منها، ننقذ مجتمعنا العربي من تشويه الالحاد.

ولكن هذا شيء والسلوك والتصرف شيء آخر، او بالاصح يجب علينا أن نعرف كيف نترجم فكرتنا ترجمة عملية وكيف يجب ان يكون تصرفنا العملي مؤديا الى الغاية المطلوبة: ان جمهور شعبنا ما زال متأخرا وما زال خاضعا لمؤثرات رجال الدين من شتى المذاهب والطوائف. فلو اننا ذهبنا الى جمهور الشعب، وليس لنا غنى عنه اذ بدونه لا نستطيع ان نحقق أي تبديل أساسي في الحياة العربية، لوذهبنا اليه بأفكار فجة وبأساليب غير محكمة وتصرفنا تصرفات هي أقرب الى ردود الفعل والنزق والمرض النفسي منها الى الايمان بحركة منقذة، فأخذنا نطعن بالدين ونتبجح بالكفر ونتحدى شعور الشعب في ما يعتبره هو مقدسا وثمينا، نكون بدون فائدة وبدون أي مقابل أغلقنا أبواب الشعب في وجه الدعوة وأوجدنا ستارا كثيفا بيننا وبينه حتى لا يعود قابلا او مستعدا لان يسمع منا شيئا أو أن يسايرنا في نضالنا ودعوتنا.

فالمناضل البعثي يجب أن تتوافر فيه شروط صعبة جدا وتكاد تكون متناقضة، فهو حرب على كل تدجيل باسم الدين والتستر وراءه لمنع التطور والتحرر والابقاء على الاوضاع الفاسدة والتأخر الاجتماعي، ولكنه في الوقت نفسه يعرف حقيقة الدين وحقيقة النفس الانسانية التي هي ايجابية قائمة على الايمان لا تطيق الانكار والجحود، وان جمهور الشعب ليس هو العدو بل هو الصديق الذي يجب أن نكسب ثقته. صحيح انه مضلل مخدوع ولكننا نحن لا نستطيع أن نكشف له انخداعه الا اذا فهمناه وتجاوبنا معه وشاركناه في حياته وعواطفه ومفاهيمه، فنحن في كل خطوة نخطوها نحوه نستطيع ان نطمع بخطوة من جانبه يأتي بها الينا، لذلك يكون المناضل البعثي مهددا دوما بالخطر: فهو ان سلك هذا السلوك مهدد بأن يتزمت وان ترجع اليه عقليته الرجعية التي ثار عليها، وهو ان سلك سلوكاً آخر معاكسا، ان شهر السيف على المعتقدات الخاطئة مهدد بأن يصبح سلبيا وان يخون ما في فكرة البعث من ايجابية فيلتقي بهذا مع السلبية الشيوعية التي رفضناها او ان يلتقي مع أي شكل من

أشكال التحرر الزائف المقتصر على التظاهر والتبجح. إذن على المناضل البعثي، عندما يحارب الرجعية ويصمد أمام هجماتها وافتراءاتها وتهيجاتها واثاراتها، ان يتذكر دوما انه مؤمن بالقيم الايجابية والقيم الروحية وانه انما يحارب تزييف القيم من قبل الرجعية ولا يحارب القيم نفسها. وانه عندما يساير جمهور الشعب ويتصرف تصرفا حكيماً معه دون أن يجرح عواطفه لكي ينقله تدريجيا الى مستوى الوعي اللازم، عليه انّ يتذكر انه رجل ثائر متحرر لايقبل لنفسه ولا لأمته مستوى رجعيا رخيصا من الاعتقاد ولا صورة مشوهة للعقيدة الروحية، وان مسايرته للشعب ليست الا وسيلة مؤقتة لكي يهيئه لأن يفهم الامور الصعبة. ان ثقة البعثي بالانسان عامة وبالانسان العربي خاصة يجب أن تغريه دوما بالمزيد من الجرأة في مكافحة المعتقدات الخاطئة الجامدة، وان لايحسب ان الامة العربية لا تتحمل هذه الكمية من الثورة والتحرر فهي خصبة عميقة، وهي مختزنة لتجارب مئات السنين من الآلام، مئات السنين من التأخر والظلم، لذلك فهي مهيأة كل التهيؤ لان تتفجر وان تبلغ مستوى روحيا فيه كل الجرأة.

نيسان ١٩٥٦

الباب الخامس

في القوميَة العَربيَة



القومية حب قبل كل شيء

أخشى أن تسف القومية عندنا إلى المعرفة الذهنية والبحث الكلامي فتفقد بذلك قوة العصب وحرارة العاطفة. كثيرا ما أسمع من الطلاب أسئلة عن تعريف هذه القومية التي ننادي بها: أهي عنصرية تقوم على الدم، أم روحية تستمد من التاريخ والثقافة المشتركة، وهل هي تنفي الدين أم تفسح له مكانا؟!

وكأني بهم يعلقون ايمانهم بالقومية على درجة التعريف من الصحة والقوة. مع أن الايمان يجب أن يسبق كل معرفة ويهزأ بأي تعريف، بل انه هو الذي يبعث على المعرفة ويضيء طريقها.

القومية التي ننادي بها هي حب كل شيء. هي نفس العاطفة التي تربط الفرد بأهل بيته، لان الوطن بيت كبير والأمة أسرة واسعة. والقومية ككل حب، تفعم القلب فرحا وتشيع الامل في جوانب النفس، ويود من يشعر بها لو ان الناس يشاركونه في الغبطة التي تسمو فوق أنانيته الضيقة وتقربه من أفق الخير والكمال، وهي لذلك غريبة عن ارادة الشر وأبعد ما تكون عن البغضاء. اذ ان الذي يشعر بقدسيتها ينقاد في الوقت نفسه الى تقديسها عند سائر الشعوب فتكون هكذا خير طريق إلى الانسانية الصحيحة... وكما ان الحب لايوجد الا مقرونا بالتضحية فكذلك القومية، والتضحية في سبيلها تقود إلى البطولة. اذ ان الذي يضحي من أجل أمته، دفاعا عن مجدها الغابر وسعادة مستقبلها، لأرفع نفسا وأخصب حياة من الذي يحصر تضحيته في شخص واحد.

ان الذي يحب لا يسأل عن أسباب حبه. واذا سأل فليس بواجد له سببا واضحا. والذي لايستطيع الحب الا لسبب واضح يدل على ان الحب في نفسه قد فتر او مات.

فكيف يجوز لبعض الشباب ان يتساءلوا عن الحجة الدامغة التي تقنعهم بأن حبهم لأمتهم العربية يجب أن يغلب حبهم لأي شعب آخر، ويرجح على كل ميل لهم نحو طائفة او عشيرة او اقليم؟ وكيف يجوز لهم أن يتساءلوا فيما اذا كان للعرب

فضائل جديرة بالحب؟ ان الذي لايحب امته الا اذا كانت خالية من العيوب لا يعرف الحب الحقيقي. وفي رأيي أن السؤال الوحيد الذي يجوز للشباب أن يطرحوه على أنفسهم وعلى أساتذتهم هو هذا: ما دمنا نحب أمتنا بخيرها وشرها ففي أي طريق نستطيع أن نحول هذا الحب إلى خدمة نافعة وعلى أي اسلوب؟

الحب، أيها الشباب، قبل كل شيء. الحب أولا والتعريف يأتي بعده. اذا كان الحب هو التربة التي تتغذى قوميتكم منها، فلا يبقى مجال للاختلاف على تعريفها وتحديدها. فتكون روحية سمحة بمعنى انها تفتح صدرها وتظلل بجناحيها كل الذين شاركوا العرب في تاريخهم وعاشوا في جو لغتهم وثقافتهم أجيالا فأصبحوا عربا في الفكرة والعاطفة. ولا خوف ان تصطدم القومية بالدين فهي مثله تنبع من معين القلب وتصدر عن ارادة الله، وهما يسيران متآزرين متعانقين، خاصة اذا كان الدين يمثل عبقرية القومية وينسجم مع طبيعتها.

عام ١٩٤٠

القومية قدر محبب

قلما يفكر المرء بالاشياء البسيطة مع ان في بساطتها سرا يفوق الاسرار. من ذا يفكر باسمه ووجهه؟ انهما قدر يلازمه طوال ثواني حياته. القومية كالاسم الذي يلصق بنا منذ ساعة ولادتنا ومثل قسمات الوجه المقدر علينا حتى من قبل أن نولد في وراثة أبوينا وأجدادنا. اننا نألف اسما ولا نجيب الا اذا نودينا به ولو كنا نفضل عليه أسماء أحسن وقعا. كما نقبل بوجهنا ونستشف به خفايا نفسنا وصورة شخصيتنا ولو انه لايحقق دوما كل شروط الجمال.

متى انتبه الانسان إلى قدره يخرج من حالة الحياة السطحية ويدخل في جريان الحياة الحارة القوية، فاذا رافق عنده هذا الانتباه الى القدر، القبول به، اتخذت حياته اتجاها واتسمت بالرجولة.

القومية للشعب كالاسم للشخص والملامح للوجه، هي قدر قاهر يسيّر مجموعة من البشر في مجرى من الحوادث والظروف فريد، وينسج عليه غلافا من الصفات متميز الشكل. وكما ان من العبث ان يضيع المرء عمره في اللهف والاسف ـ لو ولدت في غير هذا البيت ووجدت على غير هذه الصورة ـ فان من الجهد الضائع أيضا ان يحاول الانسان التحلل من رباط قوميته التي احكمت شدها به أصابع القرون، ولكان أجدى به أن يقول: ما دامت طريقي معينة، ومسرح نشاطي محددا، فلأملأ كل خطوة من خطوات الطريق بأقصى جهودي، ولأظهر على هذا المسرح كل بطولتي، هذا هو قدري فلأكن به خليقا.

هبوا امرءاً تستيقظ فيه قوميته، ولم تتضح له ارادة هذا القدر فيقبل بها ويريدها، أي رجل هو؟ إلى أي تاريخ ينتمي؟ ماذا يهبه الماضي من فخار ويرتب عليه الحاضر من مسؤولية؟ أية أماني تجتذبه إلى المستقبل وتعلو به فوق حدود فرديته وأنانيته؟ هل له مميزات تبين له في االحياة اتجاهه وتضيء له سبيله؟ أو بتعبير آخر، هل له اسم، هل له ملامح؟

انني كلما فكرت في حالة امرىء كهذا ترتعد فرائصي ذعرا من صورة الشقاء

الذي يضمه وصقيع العزلة التي تنأى به. . . أي ضيق في أفقه وأي فقر في روحه، وأية تفاهة وشحوب في حياته؟ يعيش عمره وهو لايدري انه فرع من نبتة تغور أصولها في احشاء الماضي، وتمتد أغصانها على امتداد العصور، ولا يعلم انه واحد من الملايين الذين تعاقبوا خلال القرون والاجيال فحرثوا الارض وشادوا العمران وأعملوا الفكر وأذابوا الارواح وحاربوا وسقطوا صرعى الحروب، كل ذلك ليكتبوا تاريخ أمتهم سطرا سطرا، وليرفعوا بنيانها حجرا حجرا، وليوضحوا عبقريتها ويتابعوا رسالتها. وكل هذه الملايين جاهدت وجالدت وصارعت العواصف وصمدت للنكبات لكي تخرجه من ظلمة العدم إلى نور الحياة، لكي تلده هو، هذا الغافل الناسي، لتغني حياته بحياة الملايين، وتدعم نشاطه بجهود مئات الاجيال ولتحمله مسؤولية الماضي وشرف هذه المسؤولية، لتوجد له اسما ينادى به وملامح تعرفه بين الامم، كيلا يبقى زيدا أو بكرا من الناس، بل ليستطيع القول إذا تفاخرت الشعوب: انا عربي.

قد يكون قاسياً هذا القدر الذي ألقى بنا في عصر الضعف والمذلة والتأخر والتفرقة، بدلا من أن يوجدنا في عصر الوليد أو الرشيد، فنستند إلى دولة عزيزة منيعة، وشعب ناشط موحد الكلمة، وحضارة ساطعة الضياء. وقد يكون القدر أحيانا قاسيا ولكنه عادل أبدا، فهو لايوزع البطولة الا بنسبة الصعوبة، ولا يورث المجد الا بقدر الجهد. فلن تكون في نظره بطولة الذين يجاهدون اليوم ليحرروا بلادهم من استعمار الاجنبي وخطر التجزئة وينشلوها من هوة الجهل والفقر، بأقل من بطولة قتيبة وابن نصير. واذا كان عصر الرشيد والمأمون قد اتسع لانتاج الفلسفات والآداب، فسيكون كل واحد من أبطال اليوم في نظر الجيل الآتي موضوع ملحمة خالدة وتكون تضحيته منشأ فلسفة جديدة.

عام ١٩٤٠

في القومية العربية

اذا كان في اهتمام الشباب ببحث القومية ما يدعو إلى الاستبشار فان في طريقة بحثهم لها ما يدعو الى كثير من الحذر والقلق. فلقد أصبحت القومية عندهم نظرية من النظريات، يمكن الاخذ بها كما يمكن رفضها، ان لم أقل موضوعا من موضوعات الانشاء وبابا من أبواب الصحف والمجلات.

ان اقبالا شديدا كالذي نراه على هذا الموضوع ليخيف أكثر مما يطمئن، لأنه كثير الشبه بالاقبال على زي جديد من أزياء اللباس واللهو. والزي الجديد سرعان ما يصبح قديما ويهجر بمثل الشدة التي قبل بها.

كل ذلك لأن «قوميتنا» أيضا تأتينا من الخارج بدلا من ان تنبعث من أعماقنا. ان الشجرة التي تفصل عن الارض ـ مهما عظم حجمها ـ لا تلبث أن تجف وتخف حتى تبددها الرياح وتستحيل هباء. . بينما البذرة التي تولد في الخفاء، ما تزال تنمو وتشتد حتى تزدهر ويملأ أريجها الفضاء. . . أنجعل قوميتنا وهي أساس حياتنا نظرية من النظريات فنتركها عرضة لتقلبات المنطق والذوق والهوى فننادي بها اليوم ونؤثر عليها الأممية والشيوعية غدا، ونعتنق الدعوة الدينية بعد غد؟ أنفهمها فهما ضيقا فنساويها بأجزائها وعناصرها ونخير بين ان نسخر لها الفكر والفن ونضحي من أجلها بالحرية وبين أن نستعظم التضحية فنقدمها ذبيحة لكل هذه الأشياء؟.

أنحصرها في ساحة محدودة من الوعي ونسجنها في تعريف كما فعل علماء الكلام بالدين قديما، فنحكم عليها بالهزال والفقر، والنضوب والعقم، ونقضي على جذورها المستترة في ظلام الارض، وبراعمها الخبيئة في وهج النور؟

ان هذه القومية التي تأتينا من اوروبا مع الكتب والمجلات تهددنا بخطر مزدوج، فهي من جهة تنسينا شخصيتنا وتشوهها، ومن جهة أخرى تسلبنا واقعنا الحي وتعطينا بدلا منه ألفاظا فارغة ورموزا مجردة. فبحث القومية على الاسلوب الاوروبي يعللنا بآمال كاذبة، فيوهمنا اننا نبلغ ما بلغته الامم الاوروبية العظمى بأخذنا بعض مظاهرها ـ أي بضرب من السحر ـ كما انه يورثنا امراضا ومشاكل وهمية فنشعر بنفس

الامراض والمشاكل التي تعانيها تلك الامم.

ان الخطر الأكبر هو الايغال في التفكير المجرد. التفكير المجرد يوهمنا ان الواقع جامد ساكن عام في مادته الاولى، نستطيع أن نحلله ونشرحه الى عناصر مستقلة، نعيد تركيبها ونبدل بعضها من بعض كما يحلو لنا، مع ان الواقع الحي كل متماسك منسجم، حي بتماسكه ووحدته، سابق لكل تحليل، ذو فردية كاملة بذاتها. التفكير المجرد يعري الاشياء من لحمها ودمها ويفقدها لونها وطعمها، ويبعدها عن الدقة والضبط، فالاضداد تتشابه، والمتفاوتات تتعادل، لأنها أصبحت كلها ألفاظا، واللفظة تساوي لفظة مثلها.

أية آلة دقيقة محكمة الصنع هي هذه القومية التي تحتم، كلما عرضت مسألتها في مكان، أن تنتج عنها نفس النتائج وتجابه ذات المعضلات؟ ان الذين يدخلون القومية في هذا الجو المجرد المفرغ من الهواء، لا يخطر ببالهم أنهم بنقلهم لفظة من موضع إلى آخر يزعزعون الجبال ويزلزلون الأرض، وانهم باهمالهم لفظة أخرى يقطعون اوصال الحياة ويحزون في شرايينها، ويحلون في ساعة ما نسجه الزمن في دماء أجيال. وان في مقارنة القومية بالدين والتقاليد والفن مثلا ما ينم عن اخلال بدقة التفكير وفهم جزئي للقومية كأنها شيء مستقل عن الدين والتقاليد والفن، مع أنها التربة التي تنمو فيها مواهب أمة ما في كل الميادين. وعلى هذا لا يعود جائزا أن تختلق خصومة بينها وبين أحد أجزائها الأصيلة المنبعثة منها، ولا ان نساويها به. ان التفكير المجرد منطقي مع نفسه اذ يقرر ان القومية لابد ان تصطدم بالدين مثلا لأنهما يختلفان في المنبع والمظاهر.

ولكن لنهجر اللفظ قليلا ولنسم الاشياء بأسمائها وصفاتها المميزة، فنستبدل بالقومية «العروبة» وبالدين «الاسلام» تظهر لنا المسألة تحت ضوء جديد، فالاسلام في حقيقته الصافية نشأ في قلب العروبة وأفصح عن عبقريتها أحسن افصاح وساير تاريخها وامتزج به في أمجد أدواره، فلا يمكن أن يكون ثمة اصطدام. وبعد فهل القومية محصورة بالارض كما يظن، بعيدة كل البعد عن السماء، حتى يعتبر الدين شاغلا عنها مبذرا لبعض ثروتها، بدلا من اعتباره جزءا منها مغذيا لها ومفصحا عن

أهم نواحيها الروحية والمثالية؟

إن القومية العربية ليست نظرية ولكنها مبعث النظريات، ولا هي وليدة الفكر بل مرضعته، وليست مستعبدة الفن بل نبعه وروحه، وليس بين الحرية وبينها تضاد، لأنها هي الحرية، اذا ما انطلقت في سيرها الطبيعي وتحققت ملء قدرتها.

ثمة فرق جوهري بين الجسم الحي، مهما كان ضئيلا بسيطا وبين الجسم الآلي الذي يريد تقليد الحياة والتشبه بها، مهما أتقن الصانعون صنعه وأفرغوا فيه فنهم ومهارتهم. الآلة خارجة عن مجرى الحياة وغير متصلة بالزمان. فلا يحسب الذين يستعيرون النظريات القومية والفلسفية الاجنبية ويكدسونها بعضا فوق بعض ليركبوا منها القومية العربية، انهم بوضعهم الثياب الجميلة على عصا يوهموننا بأنها تحيا. اننا لا نزال نشعر أن هناك جسما حيا أهملوه وتعاموا عنه، انه ما زال عاريا. قد يكون هزيلا ولكنه جميل، وجماله لا لشيء، سوى انه حي.

كثيرا ما نسمع: «أأنتم أفضل من هذه الامة أو تلك! انها مرت على هذه المراحل ونجحت بهذه الأساليب!».

لسنا ندعي اننا أفضل من غيرنا، لكننا مختلفون عنهم: وهذا الاختلاف هو الذي يجعلنا عربا ويجعلهم غير عرب. ولسنا نقول بضرر الاطلاع على النظريات الرائجة عندهم بل نعتقد ان فائدة هذا الاطلاع يجب أن تبقى سلبية، اي ان نعرف بواسطته كل الاشياء التي ليست لنا، فان ذلك يقربنا من فهم حقيقتنا وحاجتنا.

كل تفسير للقومية العربية لاينبعث من صميمها، انبعاث الغرسة من الارض والسنبلة من القمحة يكون تفسيرا ضالا جامدا ميتا. وكل نظرية عن العروبة يصح أن تقال على السواء عن فرنسة القرن الثامن عشر وعن اليونان في عهد افلاطون، نظرية زائفة آلية، لأنها لاتنبىء عن خصائص المكان ولايستشف منها انسياب الزمن. وليكفوا عن التذرع بالاشياء الخالدة المشتركة اذ لاشيء خالدا ومشتركا بين البشر غير التحول والاختلاف.

لايصبح العرب قوميين باعتناقهم فكرة القومية فهي ليست فكرة. ولا بعملية حب وايمان وارادة، فهي شروط لازمة للقومية ولكنها ليست اياها. جعل القومية فكرة

تعتنق يضيف الى طوائف العرب طائفة جديدة ويضع على النفس العربية طلاء فوق القشور الموجودة التي تغشاها، ويزيدنا تفرقة ويباعد ما بين التجانس وبيننا. لايحتاج العرب الى تعلم شيء جديد ليصبحوا قوميين، بل الى اهمال كثير مما تعلموه حتى تعود اليهم صلتهم المباشرة بطبعهم الصافي الاصيل. القومية ليست علما بل هي تذكر، تذكر حي.

وهذه المعجزة التي يسعون اليها ويتلوون على ألف شكل لكي يعثروا عليها، ما عسى تكون دهشتهم عندما تظهر فيهم نقية، كاملة، بسيطة بساطة المعجزات، اذا هم تركوا الحياة تستعيد فيهم عفويتها وحريتها وتملأ كل سعتها. عبثا ينشدون قوميتهم بتحليلها من الخارج الى عناصرها، وتركيبها تركيبا صنعياً مستوحى من الكتب والتفكير المجرد ومثال الامم الأجنبية، انهم لن يجدوها الا في داخلهم مركبة وواحدة معا كما هي في الواقع وككل شيء حي متداخل الاجزاء، لا يفصل عنها جزء الا ويفقدها الحياة. هي في أعمالنا الماضية وآلامنا الحاضرة، في فضائلنا وعيوبنا، في تاريخنا المسطور في الكتب وتاريخنا المحفور على حنايا الضلوع، الذي يقرر أكثر اتجاهاتنا ويغذي معظم أحلامنا.

عام ١٩٤١

ذكرى الرسول العربي

الشخصية العربية بين الماضي والحاضر[1]- في مثل هذه الحفلات يخطر لي دوماً سؤال: ما هي قيمة الكلام؟ لم نعرف في تاريخنا زمناً كثر فيه الكلام وطغى على كل شيء مثل هذا الزمن الذي نعيش فيه، ومع ذلك فهو أقل العهود حيوية وانتاجاً، فهل يكون الكلام اذاً مساعداً على الشلل والعقم، بدلاً من ان يكون دافعاً الى العمل وخصب النفس؟ هناك فرق جوهري بين الكلام المرتبط بقائله الذي يعبر عن حاصل شخصية حية وعن موقفها الكلي من الحياة، وبين الكلام المنفصل عن الشخصية الذي لايعني غير ذهن يلهو ولسان يهذر. كان العرب شديدي التأثر باللفظ، لان الالفاظ كانت عندهم حقائق نابضة مترعة بالحياة، فكان يسمعها القلب لا الاذن، وتجيب عليها الشخصية كلها لا اللسان وحده، لذلك كان للفظة قدسية وكانت بمثابة تعهد، تربط الحياة وتتصرف بها، سواء حياة الفرد أم حياة الجماعة. فاللفظة التي كانت كالورقة النقدية تمثل قيمة معينة من الذهب، غدت اليوم مجرد قصاصة من الورق ليس وراءها ما يضمنها، فنحن نرى نفساً فقيرة الى حد العدم تستطيع ان تغرق ما حولها ببحر من الكلام، وليس من يطالب بأن يكون وراء الكلام عمل يضمنه، فلا غرابة في أن تفقد الثقة وتلتبس الامور ويكثر الغش والتلاعب وبالنتيجة الافلاس والفضيحة.

نحن أمام حقيقة راهنة هي الانقطاع بل التناقض بين ما ضينا المجيد وحاضرنا المعيب. كانت الشخصية العربية كلا موحداً، لا فرق بين روحها وفكرها، بين عملها وقولها، أخلاقها الخاصة وأخلاقها العامة، وكانت الحياة العربية تامة ريانة مترعة يتضافر فيها الفكر والروح والعمل وكل الغرائز القوية. أما نحن فلا نعرف غير الشخصية المنقسمة المجزأة، ولا نعرف الا حياة فقيرة جزئية، اذا أهلها العقل فان الروح تجفوها، وان داخلتها العاطفة فالفكر ينبو عنها: اما فكرية جديبة، أو عملية

---

(١) خطاب القي على مدرج الجامعة السورية في ٥ نيسان عام ١٩٤٣.

هوجاء، فهي ابداً محرومة من بعض القوى الجوهرية، وقد آن لنا ان نزيل هذا التناقض فنعيد للشخصية العربية وحدتها، وللحياة العربية تمامها. يجب ان تتحد الصلاه مع العقل النير مع الساعد المفتول، لتؤدي كلها الى العمل العفوي الطلق الغني القوي المحكم الصائب.

كان انتسابنا لأجدادنا الابطال انتساباً رسمياً لا اكثر، واتصال تاريخنا الحديث بتاريخنا المجيد اتصالاً طفيلياً لا عضوياً. اليوم يجب أن نبعث فينا الخصال ونقوم بالاعمال التي تبرر نسبنا الرسمي وتجعله حقيقياً مشروعاً. يجب ان نزيل ما استطعنا من حواجز الجمود والانحطاط حتى يعود الدم الاصيل المجيد فيتسرب الينا. يجب ان ننقي ارضنا وسماءنا حتى تستأنس ارواح الجدود الابطال فتهبط الينا وتستطيب الهيمنة فوقنا.

ظللنا زمناً طويلاً نعيش في جو ثقيل خانق، لانه كاذب: طلاق بين الفكر والعمل، بين اللسان والقلب، كل لفظة نقولها تحدث جلبة الوعاء الفارغ، ووقراً في الاذن والنفس، لانها مفرغة من معناها. كل كلمة نقرؤ ها تحدث ارتعاشاً في بصرنا وألماً، لانها تتراءى لنا كالشبح والظل، تذكرنا بشيء انقطع عهدنا به، وهي تحزننا كمرأى طلل هجره ساكنوه. فيجب ان نعيد الى الالفاظ معناها وقوتها، مقامها وحرمتها، ان نجعل لكل لفظة موقفاً في الحياة يقابلها. ان تجعل اللفظة مخبرة عن عمل قمنا به بعد ان كانت مذكرة بعمل عجزنا عنه، علينا ألا نقول الا ما نقدر على تحقيقه، حتى يأتي يوم نقدر فيه ان نحقق كل ما نقوله.

الاسلام تجربة واستعداد دائم – ايها السادة: ان حركة الاسلام المتمثلة في حياة الرسول الكريم ليست بالنسبة الى العرب حادثاً تاريخياً فحسب، تفسر بالزمان والمكان، وبالاسباب والنتائج، بل انها لعمقها وعنفها واتساعها ترتبط ارتباطا مباشراً بحياة العرب المطلقة، اي انها صورة صادقة ورمز كامل خالد لطبيعة النفس العربية وممكناتها الغنية واتجاهها الاصيل، فيصح لذلك اعتبارها ممكنة التجدد دوماً في روحها. لا في شكلها وحروفها. فالاسلام هو الهزة الحيوية التي تحرك كامن القوى في الامة العربية فتجيش بالحياة الحارة، جارفة سدود التقليد وقيود الاصطلاح،

مرجعة اتصالها مرة جديدة بمعاني الكون العميقة، ويأخذها العجب والحماسة، فتنشىء تعبر عن اعجابها وحماستها بألفاظ جديدة واعمال مجيدة، ولا تعود من نشوتها قادرة على التزام حدودها الذاتية، فتفيض على الامم الاخرى فكراً وعملاً، وتبلغ هكذا الشمول. فالعرب عرفوا بواسطة هذه التجربة الاخلاقية العصيبة كيف يتمردون على واقعهم وينقسمون على انفسهم، في سبيل تجاوزها الى مرحلة يحققون بها وحدة عليا، وبلوا فيها نفوسهم ليستكشفوا ممكناتها ويعززوا فضائلها. وكل ما اثمر الاسلام فيما بعد من فتوح وحضارات انما كان في حالة البذور في السنوات العشرين الاولى من البعثة، فقبل ان يفتح العرب الارض فتحوا انفسهم وسبروا اغوارها وخبروا دخائلها، وقبل ان يحكموا الامم حكموا ذواتهم وسيطروا على شهواتهم وملكوا ارادتهم. ولم تكن العلوم التي انشأوها والفنون التي ابدعوها والعمران الذي رفعوه، الا تحقيقاً مادياً جزئياً قاصراً لحلم قوي كلي عاشوه في تلك السنوات بكل جوارحهم وإلا رجعاً خافتاً لصدى ذلك الصوت السماوي الذي سمعوه، وظلا باهتاً لتلك الرؤى الساحرة التي لمحوها يوم كانت الملائكة تحارب في صفوفهم، والجنة تلمع من بين سيوفهم.

هذه التجربة ليست حادثاً تاريخياً يذكر للعبرة والفخر، بل هي استعداد دائم في الامة العربية - اذا فهم الاسلام على حقيقته - لكي تهب في كل وقت تسيطر فيه المادة على الروح، والمظهر على الجوهر، فتنقسم على نفسها لتصل الى الوحدة العليا والانسجام السليم، وهي تجربة لتقوية اخلاقها كلما لانت، وتعميق نفوسها كلما طفت على السطح، تتكرر فيها ملحمة الاسلام البطولية بكل فصولها من تبشير واضطهاد وهجرة وحرب، ونصر وفشل، الى ان تختم بالظفر النهائي للحق والايمان.

حياة الرسول خلاصة لحياة العرب ــ ان حياة الرسول وهي ممثلة للنفس العربية في حقيقتها المطلقة لا يمكن ان تعرف بالذهن، بل بالتجربة الحية. لذلك لايمكن ان تكون هذه المعرفة بدءاً بل هي نتيجة. فالعرب منذ ضمور الحيوية فيهم، أي منذ مئات السنين يقرأون السيرة ويترنمون بها ولكنهم لايفهمونها لان فهمها يقتضي درجة من غليان النفس قصوى، وحداً من عمق الشعور وصدقه لم يتوفر لهم بعد، وموقفاً وجودياً

يضع الانسان امام قدره وجهاً لوجه، وهم أبعد ما يكونون عن ذلك.

ان ارواح ابطالنا لتجفونا وتهجرنا منذ زمن طويل، لان البطولة لم تعد من مزايا العرب المألوفة، ويخشى ان يكون هذا التعظيم العامي للرسول الكريم معبراً عن القصور والعجز اكثر منه تقديراً للعظمة، فقد بعد عهدنا بالبطولة حتى أمسينا ننظر اليها نظرة خوف ورهبة واستغراب كأنها من عالم غير عالمنا، في حين ان التعظيم الحقيقي للبطولة انما يصدر عن المشاركة فيها وتقديرها بعد المعاناة والتجربة، فلا يقدر البطل الا الذي يحقق ولو جزءاً يسيراً من البطولة في حياته.

حتى الآن كان ينظر الى حياة الرسول من الخارج، كصورة رائعة وجدت لنعجب بها ونقدسها، فعلينا ان نبدأ بالنظر اليها من الداخل، لنحياها. كل عربي في الوقت الحاضر يستطيع ان يحيا حياة الرسول العربي، ولو بنسبة الحصاة الى الجبل والقطرة الى البحر. طبيعي ان يعجز اي رجل مهما بلغت عظمته ان يعمل ما عمل محمد. ولكن من الطبيعي ايضاً ان يستطيع اي رجل مهما ضاقت قدرته ان يكون مصغراً ضئيلاً لمحمد، ما دام ينتسب الى الأمة التي حشدت كل قواها فأنجبت محمداً، او بالاحرى ما دام هذا الرجل فرداً من افراد الامة التي حشد محمد كل قواه فأنجبها. في وقت مضى تلخصت في رجل واحد حياة امته كلها، واليوم يجب ان تصبح كل حياة هذه الامة في نهضتها الجديدة تفصيلاً لحياة رجلها العظيم. كان محمد كل العرب، فليكن كل العرب اليوم محمداً.

الاسلام تجدد العروبة وتكاملهاـ رجل من العرب بلغ رسالة سماوية فراح يدعو اليها البشر، ولم يكن البشر حوله الا عرباً فاستجاب للدعوة نفر قليل، وقاومها اكثرهم، فهاجر مع المؤمنين وحاربه المشركون الى أن انتصر الحق فآمن به الجميع. فملحمة الاسلام لا تنفصل عن مسرحها الطبيعي الذي هو ارض العرب، وعن ابطالها والعاملين فيها وهم كل العرب. مشركو قريش ضروريون لتحقق الاسلام ضرورة المؤمنين له، والذين حاربوا الرسول ساهموا في ظفر الاسلام كالذين ايدوه ونصروه. ان الله قادر ان ينزل القرآن على نبيه في يوم واحد، ولكن ذلك اقتضى اكثر من عشرين عاماً، وهو قادر ان ينصر دينه ويهدي اليه كل الناس في يوم واحد، ولكن

ذلك لم يتم في اقل من عشرين عاماً، وهو قادر ان يظهر الاسلام قبل ظهوره بعشرات القرون وفي أية أمة من خلقه، ولكنه اظهره في وقت معين وفي حينه، واختار لذلك الأمة العربية وبطلها الرسول العربي. وفي كل ذلك حكمة، فالحقيقة الباهرة التي لاينكرها الا مكابر، هي اذن، ان اختيار العرب لتبليغ رسالة الاسلام كان بسبب مزايا وفضائل اساسية فيهم، وان اختيار العصر الذي ظهر فيه الاسلام كان لان العرب قد نضجوا وتكاملوا لقبول مثل هذه الرسالة وحملها الى البشر، وأن تأجيل ظفر الاسلام طوال تلك السنين، كان بقصد ان يصل العرب الى الحقيقة بجهدهم الخاص وبنتيجة اختبارهم لانفسهم وللعالم، وبعد مشاق وآلام، ويأس وأمل، وفشل وظفر. اي ان يخرج الايمان وينبعث من اعماق نفوسهم، فيكون الايمان الحقيقي الممتزج مع التجربة، المتصل بصميم الحياة. فالاسلام اذن كان حركة عربية، وكان معناه: تجدد العروبة وتكاملها. فاللغة التي نزل بها كانت اللغة العربية، وفهمه للاشياء كان بمنظار العقل العربي، والفضائل التي عززها كانت فضائل عربية ظاهرة أو كامنة، والعيوب التي حاربها كانت عيوباً عربية سائرة في طريق الزوال. والمسلم في ذلك الحين لم يكن سوى العربي، ولكن العربي الجديد، المتطور، المتكامل. وكما نطلق اليوم على عدد من افراد الامة اسم «وطني» أو «قومي» مع ان المفروض ان يكون مجموع الأمة قومياً، ولكننا نخص بهذا الاسم الفئة التي آمنت بقضية بلادها لانها استجمعت الشروط والفضائل اللازمة كيما تعي انتسابها العميق الى امتها وتتحمل مسؤولية هذا الانتساب، كان المسلم هو العربي الذي آمن بالدين الجديد لانه استجمع الشروط والفضائل اللازمة ليفهم ان هذا الدين يمثل وثبة العروبة الى الوحدة والقوة والرقي.

انسانية الاسلام ـ ولكن هل يعني هذا ان الاسلام وجد ليكون مقصوراً على العرب؟ اذا قلنا ذلك ابتعدنا عن الحق وخالفنا الواقع. فكل امة عظيمة، عميقة الاتصال بمعاني الكون الازلية، تنزع في أصل تكوينها الى القيم الخالدة الشاملة. والاسلام خير مفصح عن نزوع الامة العربية الى الخلود والشمول، فهو اذن في واقعه عربي وفي مراميه المثالية انساني. فرسالة الاسلام انما هي خلق انسانية عربية.

ان العرب ينفردون دون سائر الامم بهذه الخاصة: ان يقظتهم القومية اقترنت

برسالة دينية، او بالاحرى كانت هذه الرسالة مفصحة عن تلك اليقظة القومية. فلم يتوسعوا بغية التوسع ولا فتحوا البلاد وحكموا استناداً الى حاجة اقتصادية مجردة، أو ذريعة عنصرية، او شهوة للسيطرة والاستعباد.. بل ليؤدوا واجباً دينياً كله حق وهداية ورحمة وعدل وبذل. اراقوا من اجله دماءهم، واقبلوا عليه خفافاً متهللين لوجه الله. وما دام الارتباط وثيقاً بين العروبة والاسلام، وما دمنا نرى في العروبة جسماً روحه الاسلام، فلا مجال اذن للخوف من ان يشتط العرب في قوميتهم. انها لن تبلغ عصبية البغي والاستعمار...

وطبيعي ان العرب لايستطيعون اداء هذا الواجب الا اذا كانوا أمة قوية ناهضة، لان الاسلام لايمكن ان يتمثل الا في الامة العربية، وفي فضائلها واخلاقها ومواهبها. فأول واجب تفرضه انسانية الاسلام اذن هو ان يكون العرب اقوياء سادة في بلادهم.

الاسلام كائن حي متميز بملامح وحدود ظاهرة بارزة، والكائن الحي المتميز الراقي في مراتب الحياة يكون هذا الشيء ولا يكون ذاك الشيء، هو يعني هذا المعنى ويناقض ذلك المعنى ويعاديه: الاسلام عام وخالد ولكن عموميته لاتعني انه يتسع في وقت واحد لشتىَ المعاني والاتجاهات بل انه في كل حقبة خطيرة من حقب التاريخ وكل مرحلة حاسمة من مراحل التطور يفصح عن واحد من المعاني اللامتناهية الكامنة فيه منذ البدء، وخلوده لايعني انه جامد لايطرأ عليه تغير او تبدل، وتمر من فوقه الحياة دون ان تلامسه، بل انه بالرغم من تغيره المستمر، ومن استهلاكه لكثير من الاثواب، وافنائه لعديد من القشور واللباب، تبقى جذوره واحدة، وقدرتها على النماء والتوليد والابداع واحدة لاتنقص ولا تفنى، هو نسبي لزمان ومكان معينين، مطلق المعنى والفعل في حدود هذا الزمان وهذا المكان.

فهل يدري اولئك الغيورون الذين يريدون ان يجعلوا من الاسلام جراباً يسع كل شيء، ومعملاً ينتج شتى المركبات والادوية، انهم بدلاً من ان يبرهنوا على قوته ويحفظوا فكرته من كل تغير طارىء، يقضون بذلك على روحه وشخصيته ويفقدونه مميزاته الحية واستقلاله وتعيينه، وانهم من جهة اخرى يفسحون المجال لدعاة الظلم وارباب الحكم الجائر، كي يستمدوا من الاسلام اسلحة يطعنون بها مادة الاسلام

نفسه، اي الامة العربية؟ . .

اذن فالمعنى الذي يفصح عنه الاسلام في هذه الحقبة التاريخية الخطيرة، وفي هذه المرحلة الحاسمة بين مراحل التطور، هو ان توجه كل الجهود الى تقوية العرب وانهاضهم وان تحصر هذه الجهود في نطاق القومية العربية.

العرب والغرب ـ منذ قرن ونصف قرن عاد اتصال الغرب بالعرب بواسطة حملة بونابرت على مصر، وقد رمز هذا الداهية الى ذلك الاتصال بأن علق لوحات كتبت فيها آيات القرآن الى جانب حقوق الانسان. ومنذ ذلك الحين ما برح العرب (أو الرؤساء الدخلاء على العروبة) يدفعون نهضتهم الحديثة في هذا الاتجاه الأشوه، فهم يجهدون انفسهم ويرهقون نصوص تاريخهم وقرآنهم ليظهروا ان مبادىء حضارتهم وعقيدتهم لاتختلف عن مبادىء الحضارة الغربية، وانهم كانوا أسبق من الغربيين الى اعلانها وتطبيقها. وهذا لايعني الا شيئاً واحداً: وهو انهم يقفون امام الغرب وقفة المتهم مقرين له بصحة قيمه وأفضليتها. ان الواقع الذي لامحيد عن الاعتراف به هو ان غزو الحضارة الغربية للعقل العربي في وقت جف فيه هذا العقل حتى أمسى قوالب فارغة، يسر لتلك الحضارة ان تملأ بمفاهيمها ومعانيها فراغ هذه القوالب. ولم تمض فترة من الزمن حتى انتبه العرب الى ان ما يخاصمون الاوروبيين عليه هو نفس ما يقول به هؤلاء، وانهم لايفرقون عن الاوروبيين الا بالكم، كما يفرق القليل عن الكثير، والمقصر عن السابق، ولن يتأخر الوقت الذي يعترفون فيه بالنهاية المنطقية لهذا الاتجاه، اي ان في الحضارة الاوروبية ما يغني عن حضارتهم. فحيلة الاستعمار الاوروبي لم تكن في انه قاد العقلية العربية الى الاعتراف بالمبادىء والمفاهيم الخالدة، اذ ان هذه العقلية معترفة بها وقائمة عليها منذ نشأتها. ولكن هي في اغتنامه فرصة جمود العقلية العربية وعجزها عن الابداع ليضطرها الى تبني المضمون الاوروبي الخاص لهذه المفاهيم. فنحن لسنا نخالف الاوروبيين في مبدأ الحرية، بل في ان الحرية تعني الذي يفهمونه منها.

ان أوروبا اليوم، كما كانت في الماضي، تخاف على نفسها من الاسلام. ولكنها تعلم الان ان قوة الاسلام (التي كانت في الماضي معبرة عن قوة العرب) قد بعثت

وظهرت بمظهر جديد هو القومية العربية.لذلك فهي توجه على هذه القوة الجديدة كل اسلحتها، بينما نراها تصادق الشكل العتيق للاسلام وتعاضده. فالاسلام الامي الذي يقتصر على العبادة السطحية والمعاني العامة الباهتة آخذ في التفرنج، ولسوف يجيء يوم يجد فيه القوميون انفسهم المدافعين الوحيدين عن الاسلام ويضطرون لان يبعثوا فيه معنى خاصا اذا أرادوا ان يبقى للامة العربية سبب وجيه للبقاء.

شرف العروبة: من هذه المفاهيم الاوروبية التي غزت العقل العربي الحديث فكرتان عن القومية والانسانية فيهما خطأ وخطر كبير.

فالفكرة القومية المجردة في الغرب منطقية اذ تقرر انفصال القومية عن الدين. لان الدين دخل على اوروبا من الخارج فهو اجنبي عن طبيعتها وتاريخها، وهو خلاصة من العقيدة الاخروية والاخلاق، لم ينزل بلغاتهم القومية، ولا أفصح عن حاجات بيئتهم، ولا امتزج بتاريخهم، في حين ان الاسلام بالنسبة الى العرب ليس عقيدة اخروية فحسب، ولا هو أخلاق مجردة، بل هو اجلى مفصح عن شعورهم الكوني ونظرتهم الى الحياة، واقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التي يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر، والتأمل بالعمل، والنفس بالقدر. وهو فوق ذلك كله اروع صورة للغتهم وآدابهم، وأضخم قطعة من تاريخهم القومي، فلا نستطيع ان نتغنى ببطل من ابطالنا الخالدين بصفته عربياً ونهمله او ننفر منه بصفته مسلماً. قوميتنا كائن حي متشابك الاعضاء، وكل تشريح لجسمها وفصل بين اعضائها يهددها بالقتل فعلاقة الاسلام بالعروبة ليست اذا كعلاقة اي دين بأية قومية. وسوف يعرف المسيحيون العرب، عندما تستيقظ فيهم قوميتهم يقظتها التامة ويسترجعون طبعهم الاصيل، ان الاسلام هو لهم ثقافة قومية يجب ان يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها فيحرصوا على الاسلام حرصهم على اثمن شيء في عروبتهم. واذا كان الواقع لا يزال بعيداً عن هذه الامنية، فان على الجيل الجديد من المسيحيين العرب مهمة تحقيقها بجرأة وتجرد، مضحين في سبيل ذلك بالكبرياء والمنافع، اذ لا شيء يعدل العروبة وشرف الانتساب اليها.

الانسانية المجردة: أما الخطر الثاني وهو خطر الفكرة الانسانية المجردة على النمط الاوروبي، فيؤدي في نتيجته العميقة الى اعتبار الشعوب كتلاً من البشر جامدة

متجانسة، ليس لها جذور في الارض، ولا يؤثر فيها الزمن، فيمكن ان تطبق على واحد منها الاصلاحات والانقلابات التي تنشأ من حاجات واستعدادات شعب غيره.

وبعد، فهل يحسب اصحاب النظريات الثورية في الاقتصاد والاجتماع انهم بالصاقهم ثماراً من الشمع على عود جاف ينفخ الروح في هذا العود، ويجعل منه شجرة حية؟ لايكفي ان تكون النظريات والاصلاحات معقولة في حد ذاتها، بل يجب ان تتفرع تفرعاً حياً عن روح اعم هي لها منبع واصل. يظن بعضهم اليوم ان ادخال الاصلاحات المختلفة على وضع العرب يكفي ليبعث الامة. ونحن نرى في هذا مظهراً من مظاهر الانحطاط، لانه نظرة معكوسة، ووضع للفرع مكان الاصل، وللنتيجة مكان السبب. فالواقع ان هذه الاصلاحات فروع لابد لها من اصل تنتج عنه كما تخرج الازهار من الشجرة، وهذا الاصل نفسي قبل كل شيء: هو ايمان الامة برسالتها، وايمان ابنائها بها. في الاسلام، كان الايمان باله واحد هو الاصل، وعنه تفرعت كل الاصلاحات التي طرأت على المجتمع العربي وقلبته. ولم يكن المسلمون الاولون في مكة يدرون ان موافقتهم على توحيد الله والايمان باليوم الآخر ستقودهم الى الموافقة عن كل التشريع الذي فصله الاسلام فيما بعد ونراهم مع ذلك يطبقون هذا التشريع تطبيقاً عفوياً، طوعياً منطقياً، لان موافقتهم الثابتة كانت ضمنية في الموافقة الاولى على الايمان باله واحد، فكل ما يأمر به هذا الاله هو حق وعدل.

ومهما قيل في تدخل العوامل السياسية والاقتصادية في مناهضة قريش للاسلام يبقى العامل الرئيسي عاملاً دينياً، أي فكرياً. وان الآخذين اليوم بالطريقة المشوهة في تعليل الدين تعليلاً مادياً ليخالفون واقع التاريخ والنفس الانسانية من جهة، ويطعنون العرب من جهة اخرى في اثمن مميزاتهم: في مثاليتهم. فلقد رأينا قريشا عندما اضطرتها مصالحها المادية ان تهادن الرسول في صلح الحديبية، تصر على ان تنكر عليه وحيه ودينه الجديد.

فمما تقدم يتضح سبب تعليقنا كل الاهتمام على الشعور القومي العميق الواعي، باعتباره اصلاً، لانه وحده الضامن للاصلاحات الاجتماعية ان تكون حية فاعلة جريئة، منسجمة مع روح الشعب وحاجاته، يحققها لانه يريدها.

الجيل العربي الجديد- ايها السادة: اننا نحتفل بذكرى بطل العروبة والاسلام. وما الاسلام الا وليد الآلام، آلام العروبة، وان هذه الآلام قد عادت الى ارض العرب بدرجة من القسوة والعمق لم يعرفها عرب الجاهلية، فما احراها بأن تبعث فينا اليوم ثورة مطهرة مقومة كالتي حمل الاسلام لواءها. وليس غير الجيل العربي الجديد يستطيع ان يضطلع بها ويقدر ضرورتها، لان آلام الحاضر قد هيأته لحمل لواء هذه الثورة، وحبه لأرضه وتاريخه قد هداه لمعرفة روحها واتجاهها.

نحن الجيل العربي الجديد نحمل رسالة لا سياسية، ايمانا وعقيدة لا نظريات واقوالا. ولا تخيفنا تلك الفئة الشعوبية المدعومة بسلاح الاجنبي، المدفوعة بالحقد العنصري على العروبة، لان الله والطبيعة والتاريخ معنا. انها لاتفهمنا، فهي غريبة عنا، غريبة عن الصدق والعمق والبطولة، زائفة مصطنعة ذليلة. لا يفهمنا الا المجربون والذين يفهمون حياة محمد من الداخل، كتجربة اخلاقية وقدر تاريخي. لا يفهمنا الا الصادقون، الذين يصطدمون في كل خطوة بالكذب والنفاق، والوشاية والنميمة، ولكنهم مع ذلك يتابعون السير ويضاعفون الهمة. لا يفهمنا الا المتألمون، الذين صاغوا من علقم اتعابهم ودماء جروحهم صورة الحياة العربية المقبلة، التي نريدها سعيدة هانئة، قوية صاعدة، ناصعة تتألق بالصفاء. لايفهمنا الا المؤمنون، المؤمنون بالله. قد لانُرى نصلي مع المصلين، او نصوم مع الصائمين، ولكننا نؤمن بالله لاننا في حاجة ملحة وفقر اليه عصيب، فعبئنا ثقيل وطريقنا وعر، وغايتنا بعيدة. ونحن وصلنا الى هذا الايمان ولم نبدأ به، وكسبناه بالمشقة والالم، ولم نرثه ارثاً ولا استلمناه تقليداً، فهو لذلك ثمين عندنا لانه ملكنا وثمرة اتعابنا. ولا أحسب ان شابا عربيا يعي المفاسد المتغلغلة في قلب امته، ويقدر الاخطار المحيطة بمستقبل العروبة تهددها من الخارج وخاصة في الداخل، ويؤمن في الوقت نفسه ان الامة العربية يجب ان تستمر في الحياة، وان لها رسالة لم تكمل اداءها بعد، وفيها ممكنات لم تتحقق كلها، وان العرب لم يقولوا بعد كل ما عليهم ان يقولوه، ولم يعملوا كل الذي في قدرتهم ان يعملوه، لا احسب ان شاباً كهذا يستطيع الاستغناء عن الايمان بالله، اي الايمان بالحق، وبضرورة ظفر الحق، وبضرورة السعي كيما يظفر الحق.

٥ نيسان ١٩٤٣

التفكير المجرّد

في بلادنا عدد غير قليل من المثقفين المشوهين الذين غدت الثقافة في ايديهم اداة ايـذاء. واريـد ان اخص بحديثي اولئك الذين عاشوا في وسط عائلي واجتماعي فقدت منه الروح العربية، ثم تعلموا في المعاهد الاجنبية أو في ديار الغرب وحرموا من الثقافة العربية حتى اذا وضعتهم ثقافتهم في مراكز توجيهية، اجازوا لانفسهم ابداء الرأي في صميم حياتنا القومية التي عاشوا غرباء عنها جاهلين لها، حاقدين عليها. ومن هؤلاء أخذت الحركة الشيوعية في بلادنا بعض عناصرها المثقفة، ومنهم نشأ ذلك الاتجاه الذي سميناه في بعض الكتابات السابقة بالتقدمية الزائفة المصطنعة، لانه تقدم ليس له جذور في نفوسنا، ولا يلبي حاجاتنا الحقيقية، وانما هو من الخارج، يلصق على حياتنا لصقاً.

ففقدان الروح العربية والثقافة العربية يقود الى الثقافة المجردة، فالشخص يكون ضعيفاً مجرداً فتدخل الثقافة الاجنبية عليه دون ان تجد مانعاً اورادعاً اومعدلاً، فيصبح معدوم الشخصية أمامها وتتحكم به في حين ان تثقف الفرد العربي بالثقافة الغربية مفيد له كل الفائدة شريطة ان تكون شخصيته قد تكونت، فالفرد العربي الذي له من ثقافته وروحه ما يكون رادعاً عن الوقوع في خطأ الثقافة الغربية ومصححاً لها وما يكون فيه من القدرة على تمثل تلك الثقافة تمثلاً فكرياً يجعله حاكماً فيها لا محكوماً لها فتكون اداة في خدمته ونفعه. الثقافة ليست شيئاً جامداً يدخل على الرأس ويستقر وانما هي حركة وحياة تتفاعل مع الشخص وتؤثر فيه، لها حاجات ومطالب ومستلزمات ولها وسط تنبت فيه وتتخذ معناها، فاذا دخلت الثقافة الغربية على عقل عربي غير مسلح بالثقافة العربية فانها تنقله إلى الحياة الغربية.

والثقافة بعد هي تعبير عن حياة حقيقية، فالثقافة الافرنسية تعبر عن حياة افرنسية نشأت في وسط فرنسي، عن حاجاتهم وعقيدتهم، فهي نتيجة لتقاليدهم السياسية الحاضرة والماضية وهي متداخلة في آمالهم واهدافهم. فالذي يتثقف الثقافة الفرنسية دون ان يكون له ذلك الرادع، وذلك الاساس العربي، فانه بطبيعة الحال ينخرط في

حركتها وآليتها فهو منقاد دون ارادة الى العيش في تاريخ تلك الثقافة وتقاليدها، وهذا ما نشاهده بين المثقفين بالثقافة الغربية المحرومين من الروح العربية والثقافة العربية، اذ نراهم يعيشون معنا في اجسامهم بينما فكرهم الذي تغذى بالثقافة الغربية منجذب الى وسطه الحي، وتفكيرهم هو في تاريخ الغرب وتقاليده وسياسته. ان في بلادنا عدداً غير قليل يعيشون بأجسامهم بيننا وبأفكارهم وارواحهم مع البلاد الاوروبية وهم مع ذلك يدعّون لانفسهم حق اعطاء الرأي في مشاكلنا وماضينا وحق التأثير في العمل والتوجيه فيه، ان هؤلاء المثقفين منقادون بطبيعة الأمر للعيش في وسط ثقافتهم وهذا الوسط هو الغرب. وليس من شك في ان هذا هو الشيء الطبيعي وهو المحبب الى نفوسهم، لان العالم الغربي الذي هو منبت ثقافتهم عالم قوي راق صاعد فحوادثه تشغل الارض وتهزها، في حين ان العالم العربي ليس له تلك الدرجة من الاهمية، فكيف يترك هؤلاء المثقفون ذلك الوسط الذي تغذوا من ثقافته وهو قسم فعّال تمثل عليه الاعمال الجسام، ويرضون بالعيش لهذه البلاد التي ليس لها بعد من شيء يذكر في كل نواحي الحياة.. فانتقالهم بالفكر والروح الى العالم الغربي طبيعي لسببين:

اولاً ـ ان ذلك اشهى اليهم، يغريهم بالاطلاع على الحياة التي تثقفوا منها ومعرفة مصير التاريخ الذي لم يدرسوا غيره ونتيجة الحضارة التي لم يطلعوا الا عليها. ثم انهم يجدون امر استخدام الثقافة الغربية لاصلاح الواقع العربي امراً صعباً جداً، ولا يمكن ان يفهموا المجتمع العربي، وكل منهم قد رسم حوله دائرة غربية. فتعلقهم بالغرب، ولو انهم كانوا في شعورهم وطنيين، هذا التعلق ناتج عن ان هذه الثقافة تحتاج الى وسطها الحي الذي نشأت فيه، وعلى الاخص لانهم يختارون الطريق السهل.

ولا يحتاج المثقف بالثقافة الغربية للابداع لفهم حياة الغرب لان هنالك من يقوم بذلك بدلاً منه، فهو يلتقط اتعاب الغربيين انفسهم، ولو طلب من نفسه ان يفكر في حياته هنا وطرق معالجتها، لأقتضى ذلك منه ابداعاً وتفكيراً شخصياً. هل هؤلاء هم في الواقع مجردون؟ كلا لانه ليس في الحياة انسان مجرد فذلك محض افتراض. ان للبشر عدا العقل والذهن، الغرائز والعواطف والارتباطات المادية والمعنوية بتاريخ ونمط من العيش ونوع من التفكير والفن.

فهـؤلاء المجـردون ليسـوا مجردين من العـواطف والتقـاليـد والـروح العربية فقط ولكنهم قد تبنـوا العـواطف والتفكـير والارتبـاطـات المعنوية الغربية. اذن لا يمكن ان يوجـد في الـواقع تفكير مجرد وانما تفكير مشوه. فهؤلاء مشوهون باستبدالهم بعواطفهم عواطف غيرهم.

ثانيـاً ـ ان الثقـافـة الغـربيـة تكـون مفيـدة لفرد عربي تكونت شخصيته، مثقف بالثقـافـة العـربيـة ومشبـع بالروح العربية وله اساس لا يستغني عنه انسان، فالاغذية لا تدخل اليه وتظل كما هي وتفرض نفسها عليه، بل تتحول الى الشكل الملائم لتنفع هذا الجسم، فالفرد العربي المثقف بالثقافة العربية عندما تدخله الثقافة الغربية تكون له طاقة وطريقاً وحافزاً عاماً في شخصيته، لانها ثقافة نشيطة راقية، فيستخدمها لمعالجة حياته العربية، ولا يعود شاقاً عليه ان ينظر الى ما حوله وواقعه ويسعى الى تفهم هذا الواقع والتأثير فيه بالفكر والعمل لانه يبقى عربياً ويتثقف بالثقافة الغربية. انه يتسلح باسلحة جديدة تمكنه من معرفة ذاته وفهم حاجاته وبالنتيجة التأثير في الواقع والعمل على اصلاحه. فالعملية شاقة ولا تحدث الا بوجود شخصية عربية مستقلة، فتكوّن الشخصية والحصول على الاساس الروحي والفكري ضروري لكي تصبح الثقافة الغربية نافعة. أما المثقفون ثقافة غربية فهم فاقدون لهذه الشروط، فحكمهم مشوه مغلوط مؤذ اذا لم نقل انه مغرض يتعمد الغرض، فهؤلاء لن نستطيع ان نقول عنهم بأنهم ضحوا بشخصيتهم العربية واكتسبوا غيرها لان الثقافة ككل شيء حي مرتبطة بوسط حي وتاريخ وروح وزمان ومجتمع، الثقافة الغربية مرتبطة بحياة الغرب ولها جذور عميقة في حياته، وهؤلاء ليس لهم جذور في واقعهم العربي ولكن جذورهم في تاريخ الغرب وحياته. لقد اهملوا العناية بثقافتهم فانقرضت فيهم لانه لم يتكون لهم هذا الاساس من روح البلاد التي يعيشون فيها، فهل يمكن ان يتفاعلوا مع تلك الثقافة الحية؟ هؤلاء المثقفون لايمكن ان يفهموا الثقافة الغربية فهما صحيحاً حياً لان هذه الثقافة لاتجد فيهم ارضاً خصبة، فهم ارض جدباء، وقد يلتذون بها ويسخرونها لنفع شخصي.. ولكن هل يتوصلون بها الى الابداع؟ كلا. لاننا لانجد الابداع يصدر الا من اهل

الثقافة الاصليين، واولئك ليس لهم جذور واتصالهم بالثقافة الغربية اتصال مصطنع، لايخصب النفس ولا يدفعها الى التوليد والابداع. فالثقافة الغربية لاتجعل من هؤلاء غربيين اصليين لذلك لايمكنهم ان يحملوا رسالتها على الاطلاق، فلن يحملوا الرسالة العربية ولن يستطيعوا حمل الرسالة الغربية، فهم ينقمون خفية على كل من تصدى لمثل هذا العمل وخاصة على الذين يقولون بأن للامة العربية رسالة. وسنأخذ نماذج من تفكير هؤلاء ونبين أغلاطهم ومغالطاتهم. ان ثقافة هؤلاء افرنسية مثلاً، فهم يرون في التفكير الذي تغذوا منه وفي الكتب التي قرأوها تلك النزعة البارزة وهي التفكير الانساني فينقادون الى تقليدها. فعندهم المسألة بالنسبة للعرب هي ان يهملوا الواقع بكل ثرائه وخصائصه، ولا يأخذوا الا الفكرة المجردة او اللفظة، فهناك الفكرة الانسانية وهناك الفكرة القومية ويقارنون بينهما مقارنة «نزيهة» و«مجردة» وهم مستعدون لان يقبلوا الفكرة الراجحة حجتها وفائدتها، فيرون ان القومية هي مبدأ محصور في أمة، والانسانية مبدأ شامل لجميع الامم، فيستنتجون ان فكرة الانسانية افضل من القومية ويأخذون بها. او ان الفكرة الانسانية هي الاصل والقومية هي الفرع، فنسبة القومية في عرفهم للانسانية كنسبة الفرع الى الاصل، ثم يعلنون سخطهم على القومية كأنهم يعيشون هناك. ومن المعلوم ان الحياة الغربية في هذا الزمن تشكو من التعصب القومي لا من القومية، من الغلو والافراط في هذا التعصب القومي. فشكوى الثقافة الفرنسية من هذا التعصب الذي كان داعية للحروب يتبناه المثقفون في بلاد تشكو من فقدان القومية لا من افراطها، من ضعفها لا من الغلو فيها. انهم يخشون ان يطغى التعصب القومي ويقود الى حرب على أمة اخرى وهم يعيشون في بلاد مجزأة مستعمرة لايمكن ان يكون منها خطر على غيرها الى زمن بعيد. هنا يظهر فساد التفكير المجرد متجاهلاً الفروق الاساسية الواقعية. لقد قرأوا في ثقافتهم ان القومية تؤدي الى اضطهاد البشرية والى الاستعمار، وانها تسخر لأصحاب رؤوس الاموال، وهذا كله واقع في بلاد الغرب وليس شيء منه في بلادنا. فخطؤهم انهم يتدخلون في امور بلادهم والتأثير في اتجاهها في حين يعيشون في غيرها، فهل يعقل ان تكون القومية العربية اليوم سبباً لطغيان العرب على غيرهم؟ ان

العرب لايطمحون الآن الا لجمع شملهم وتوحيد اقطارهم ورفع نير الاجنبي عنهم.

واذا سلكت بعض القوميات طريق التعصب والطغيان فهل من الضروري ان نسلك هذا الطريق؟ كلا. ان قوميتنا لها ضمانة من الماضي لانها مقرونة برسالة انسانية، وهذا شيء ينفرد به العرب وحدهم. انها رسالة روحية، فالعرب يتصورون قوميتهم وسيلة لتحقيق رسالتهم.

والضمانة في الحاضر هي ان الشعب الذي يعاني الظلم والضعف والتجزئة والحكم الاجنبي، تكون له هذه المعاناة وحدها فكرة واقية، لانه يستطيع بالقياس المنطقي وبالمشاركة الروحية ان يفهم ما هو وقع الظلم على غيره. فبناؤنا قوميتنا اليوم تدخل فيه هذه التجربة الاليمة التي جربناها، تجربة الضعف والانحطاط وتدخل في بناء دولتنا المقبلة، وتكون وازعاً ورادعاً عن كل فكرة تبغي السيطرة والتعدي على الاخرين. وليس في قوميتنا ما يسمح لأحد بأن يفكر في دفع خطر العرب ووضع حواجز لتوسعهم وطغيانهم، بينما هم يشكون اليوم من حكم الامم الاخرى لهم.

وقد كان الاحرى بهؤلاء لو انهم نظروا الى الامم التي اخذوا ثقافتهم عنها وتساءلوا، هل تخلت عن قوميتها؟ وهل تتنازل وتضحي بقوميتها في سبيل الانسانية؟ أم أنها متمسكة بقوميتها، وهي في كل مرة تنادي فيها بالانسانية تكون لها وراءها مطامع استعمارية للتوسع. فالتفكير الانساني الفرنسي الذي ظهر اثناء الثورة كان ممهداً للتوسع، وكذلك الحالة في اميركا اليوم، التي تنادي بفكرة الانسانية.

فكل هذه الدول الغربية لاتزال تحتفظ بقوميتها ولا تضحي بها في سبيل انسانيتها. بل لها تقاليد تصطبغ بالصباغ الانساني هي ذريعة للتوسع. وحالتها وأوضاعها مختلفة عن اوضاعنا، فهي بحالة قوة ونحن بحالة ضعف، وهي بحالة توسع ونحن بحالة تجزئة، فلا يعقل ان نفكر تفكيرها.

انهم يتركون الامم الكبيرة التي يجب ان تخفف من غلواء القومية ويأتون الى أمة لا تزال فيها الروح القومية في أول ظهورها فيقضون على هذه الروح باسم الانسانية.

فما هو تفكيرنا من الناحية الانسانية؟

نحن العرب اليوم بحالتنا الراهنة لاننكر اننا نعيش بين أمم وان لنا صلة بالانسانية، وهذا أمر واقع. ولكن هل من خير الانسانية ان يبقى العرب على ما هم عليه من ضعف وتأخر، أم أنه من خيرها يقظة العرب ووحدتهم حتى لايكونوا عبئاً عليها كما هم الآن؟

ان العرب الآن يؤذون الانسانية بضعفهم، لانهم لايحتلون مكاناً فعالاً بين الامم، فهم بحالتهم هذه يؤذون انفسهم وغيرهم، لانهم مجال تناحر الاطماع والاستعمار الذي دخل بلاد العرب.

فأكبر خدمة يقدمها العرب للانسانية هي ان ينهضوا بقوميتهم الى مستوى الانسانية.

عام ١٩٤٣

واجب العمل القومي

كيف يجب ان يكون موقف الشباب الواعي من قضيته القومية؟ كل سؤال اذا أحسن وضعه يتضمن في باطنه الجواب، اذن فلنحاول ان نضع سؤالنا بغاية ما يمكن من الدقة والضبط فنقول: كيف يجب ان يكون موقف الشباب العربي الواعي من قضيته القومية في مرحلتها الحاضرة؟

ونعتقد بأننا على هذه الصورة قد حددنا السؤال او المسألة بأكثر ما يمكن من الدقة، ومن وضعها على هذا الشكل نستخلص جملة نتائج. نحن سمينا هذا الشباب فقلنا عنه الشباب العربي، ووصفناه بالوعي، وطلبنا أن يكون له موقف من قضيته القومية، لا من شيء مجرد عام مبهم هو القضية القومية. لم نطلب منه موقفاً تجاه مسألة فلسفية هي القومية، بل طلبنا منه موقفاً من أمر حيوي ذي اتصال مباشر بحياته وقلنا من قضيته القومية. ولم نترك المسألة عرضة للابهام والتناقض، فحددناها بقولنا من قضيته القومية في مرحلتها الحاضرة.

فالنقطة الاولى، أي ما استنتجناه من قولنا الشباب العربي، هذه النقطة تبين لنا وضع الامة العربية الخاص، اذ نحن لانبحث في الشباب بصورة عامة، في شباب أية أمة من الامم في أي زمن من الازمان، بل نبحث عن شباب أمة معينة في وقت معين. وهذا يعني أننا نعرف الوضع الخاص لهذا الشباب بالنسبة لوضع أمته الخاص ايضاً، أي للفارق بينها وبين غيرها من الامم. فلو أردنا ان نصف هذه الامة وصفاً مجملاً لقلنا انها أمة عظيمة الماضي وهزيلة الحاضر ومجزأة في داخلها تخضع لحكم الاجنبي في اكثر اقطارها، ونتج من ذلك ان هذه الامة تريد ان تتحرر من الاجنبي وان توحد أجزاءها وتنهض من تأخرها لتستطيع تحقيق امكاناتها كلها وتسترجع هكذا رسالتها الخالدة بين الامم.

هذه الامة، الامة العربية التي نبحث الآن عن فئة منها، الشباب، تنظر من جهة الى ماضيها ومن جهة أخرى الى حاضر غيرها، فماضيها مجيد عظيم وحاضر غيرها كذلك. وكما أنها لا تستطيع تجاهل ماضيها وصم سمعها عن ندائه، فهي كذلك لا

تستطيع التعامي عن حاضر غيرها من الامم التي تحيط بها وتؤثر في مصيرها بشتى الطرق.

وكما ان البون شاسع بين هذه الامة وماضيها فكذلك البون شاسع بينها وبين حاضر غيرها من الامم. وهي انما تطلب غاية واحدة تبدو للنظرة الاولى مزدوجة. تطلب ان ترتقي الى ما يساويها بماضيها المجيد وبحاضر الامم الاخرى. . وهكذا يكون تذكرها لماضيها ووعيها لحاضر غيرها حافزاً مزدوجاً لها للنهوض. او نقول: يكون لها من هذا الوعي لحاضر غيرها والتذكر لماضيها حافز وضرورة قاهرة. تذكر الماضي يحفزها، ووعي حاضر الامم الاخرى يريها الضرورة القاهرة الى النهضة ويشعرها بها. وهذا الارتقاء الى مستوى ماضيها وحاضر غيرها هو بالنسبة لذلك البون الكبير لايكون بالنمو او بالتطور الطبيعي، فالشقة واسعة وبعيدة ولا بد من الانقلاب حتى يتحقق الارتقاء العسير.

فشباب هذه الامة اذا اعترفوا بصفتهم الاولى وميزتهم الاولى أي الصفة العربية، اي انتمائهم لهذه الامة، يجابهون بمجرد اعترافهم بهذه الصفة كل المشاكل التي تنتج عن تعريفنا لحاضر الامة العربية وعن وصفنا المجمل لحياتها. فلنأخذ النتيجة التي استخلصناها من الصفة الاولى وهي ان للأمة العربية وضعاً خاصاً يفرقها عن غيرها من الامم الحديثة. ماذا نرى؟

نرى ان الامم الراقية القوية في العالم الحاضر تتقدم دون حاجة الى الانقلاب، فحسبها بين حين وآخر ان تصلح بعض نواحي حياتها، بأن تستبدل بقوانين وأنظمة عتيقة قوانين أخرى اكثر ملاءمة للزمان، وان تستبدل بأشخاص قصرت كفاءتهم او تلوثت نزاهتهم اشخاصاً اكثر جدارة وأنصع صفحة.

هذا ما يجري في الامم الراقية القوية وهذا ما نلمسه ونسمع به يومياً، فإن رقي تلك الامم يجعلها في غنى عن الانقلابات العنيفة. والجسم السليم هو محافظ بطبيعته لا يرجو غير النمو الطبيعي لان فيه تكاملاً لصحته وسعادته، اما الجسم المريض، فالنمو الطبيعي بالنسبة اليه هو استفحال المرض وتفاقم الخطر. فالملاحظة الهامة في هذا البحث هي أن لا يؤخذ الشباب العربي بوهم امكان

مسايرته للامم الراقية، أو أن لا يؤخذ بوهم امكان معيشته كما يعيش الشباب في تلك الامم الراقية، فثمة اختلاف جوهري بين الحالتين. قد يكون الحياد السياسي أو الانقطاع الى شؤون العمل الفردي الخاص أمراً جائزاً بل واجباً عند تلك الامم ولكنه بالنسبة الينا والى حالتنا، اذا نحن أخذنا بوهم الشبه الظاهري وسولت لنا أنفسنا أن نعيش كما يعيش أهل الأمم الراقية، نكون قد جهلنا معنى الطور التاريخي الذي نجتازه. فكون أمم مختلفة تعيش في عصر واحد لايعني أنها في نفس الحالة وأن لها نفس الحاجات. وأعود واكرر بأن الامم الراقية في الغرب تستطيع التقدم دون حاجة للانقلاب، والتفكير الانقلابي فيها يكون شذوذاً مستهجناً ومخالفاً لطبيعة الاشياء، وتبذيراً للقوى في غير طائل، وانحرافاً عن الطريق السوي المنتج، في حين أن التفكير التطوري بالنسبة لحاجتنا، وعندنا، هو الشذوذ المرضي، هو التبذير للقوى، هو الانحراف عن الطريق السوي. فنحن بالنسبة لحالتنا لا نستطيع الا ان نكون انقلابيين نفكر تفكيراً انقلابياً، لان في ذلك وحده محاولة لمداواة المرض وايقافه عند حده، ومحاولة لتغيير كل وضع الجسم المريض وهزه هزاً عنيفاً حتى تتكون لديه حالة جديدة يظفر بها على المرض. فاذا أخذ الشباب بنتيجة ما يطلعون عليه وما يقرأونه من أخبار العالم الراقي، واذا توهموا ان غاية الحياة عندهم هي أن ينصرفوا للشؤون الخاصة والنجاح الفردي والى التفكير الحر المجرد كما هو شأن الشباب في تلك الامم، يكونون قد خانوا امتهم وخانوا انفسهم في آن واحد لأنهم لن يستطيعوا تحقيق ذلك النجاح الفردي والثقافة الحرة والابداع الخاص في امة هذه حالها، وهم علاوة على ذلك يتنكبون عن حمل اعظم مسؤولية واشرفها، مسؤولية جيل قدر عليه ان يحقق هذا الانقلاب التاريخي.

ينتج عن كل ذلك نتيجة اردنا الوصول اليها من الصفة الثانية لتعريف الشباب الواعي، فصفة الوعي هي التي تسمح للشباب بأن يكتشف حقيقة منزلته في امته وفي تاريخها، فاذا قدر الوعي للشباب، عرفوا ان هذه المرحلة التي تجتازها الامة العربية مرحلة ثورية نضالية بمعنى انها تهيئة للرقي، وليست بمرحلة رقي. وهنا يظهر الفرق مرة ثانية بين شباب امتنا وشباب الامم الاخرى.

فشباب هذه الامم الاخرى مكلفون بالرقي لابتهيئته، بمتابعته لا بتوفير شروط ظهوره. وأما الشباب في امتنا، الامة التي تشكو من التأخر ومن التجزئة ومن فقدان الحرية والسيادة، هذا الشباب لم يقدر له ان يستمتع بالرقي وأن يعيش عيشة استقرار ومدنية، ولكن قدره هو قدر جيل محارب، جيل مناضل يهيىء بنضاله الحرية والاستقرار والرقي للاجيال القادمة. والشيء الهام في حياة كل جيل هو:

اولا - ان يعي مهمته التاريخية الحقيقية في امته.

ثانياً - ان يقوم بها. ولا يفضل جيل جيلاً آخر بنوع المهمة التي قدرت له، بل يفضل الجيل الآخر بقدر وعيه لمهمته، وبقدر تحقيقه لها. ولا يفكر احد منا بأن يفضل جيل العلماء والكتاب والمتفننين الذين ظهروا في عصر المأمون مثلاً بنتيجة ازدهار الحضارة واستقرار الحياة على جيل العرب المجاهدين الذين لم تتوفر لهم الثقافة ولا الابداع الفني والفلسفي والعلمي لكنهم قاموا حق القيام بمهمتهم التاريخية بالنسبة لحياة امتهم، فكانوا بناة مستقبل طويل لها. اذن فليست القيمة في نوع المهمة بل في وعيها وفي حسن تحقيقها والاضطلاع بها. فاذا تبين لنا أن مهمة جيلنا اليوم هي انقلابية نضالية ووعيناها وهيأنا في انفسنا وتفكيرنا وفي شروط حياتنا كل ما يمكن ان يساعدها على التحقق نكون قد ملأنا مكاننا وقمنا بواجبنا. وليس يطلب منا ما هو مطلوب من أبنائنا بعدنا، أي ما يطلب من جيل الابداع في الحياة المتمدنة المستقرة. وكل ما يمكن أن نحلم به وأن نقوم به هو في الحقيقة الابداع في النضال، لان النضال لايعني شيئاً سلبياً جافاً بل هو حياة بكل معنى الكلمة، متسع لتحقيق المواهب ولتكامل الفضائل ونمو الحيويات على أوسع شكل.

قلنا ان الامم الراقية تتقدم دون حاجة لانقلاب، ويكفيها بين حين وآخر اصلاح بعض نواحي حياتها، كما يكفي الجسم السليم إن ينتبه بين حين وآخر لمعالجات جزئية وبسيطة ولوقاية نفسه من خطر الامراض، يكفي هذه الامم لتتقدم ان تبدل بين حين وآخر بعض الانظمة والاشخاص، وهذا هو التطور. ولكن حالة كحالتنا لايكفيها التطور بل يؤذيها وتستدعي الانقلاب. ليست المعضلة فيها معضلة انظمة وقوانين امست عتيقة بالية ولا معضلة اشخاص قصرت كفاءاتهم أو اشتبه في اخلاقهم، بل

المعضلة جوهرية وعامة واعمق بكثير من كل تلك المظاهر أي مظاهر القوانين والانظمة والاشخاص. فعندما نقول انقلاب نعني تغيير العقلية والخلق. وهذا لايتم من نفسه ولا يتم بالتطور الطبيعي. وقد قلنا ان الزمن يزيد الصحيح صحة كما يزيد المرض استفحالاً: فاذا كنا نشكو من تشويه قد انتاب جوهر امتنا أو على الاقل انتاب التفكير من اساسه، والخلق في صميمه، فليس تبديل الانظمة والقوانين والاشخاص بمبدل شيئاً في جوهر الحياة.

خلاصة القول في هذا الموضوع هو ان الشباب يجب أولا ان يتذكر صفته الاساسية، وهي انتماؤه لأمة معينة معروفة، وان يعرف صفته الثانية التي أهلته لها ثقافته، وهي صفة الوعي، فبالصفة الاولى يدرك الفارق بينه وبين القسم الآخر من العالم، بينه وبين الامم التي يطمح لبلوغ مستواها، ولن يبلغ مستواها بتقليدها. . . فلا بد لنا من جيل يناضل حتى تتهيأ شروط الرقي التي نماثل بها الامم الاخرى.

وبصفة الوعي ندرك، ان التاريخ أهلنا لهذه المهمة النضالية واننا لم نخلق لنعيش عيشة فردية حرة انعزالية منطوية على النفس، وانما عيشة اعتراف واضح مكين بالصلة التي تربطنا بأمتنا، واعتراف بهذا الدور الذي يقدره علينا التاريخ، فنرضى به طائعين بل فرحين مبتهجين لان قيمة العمل ليست في نوعه بل في اتقانه.

والصفة الثالثة التي بيناها في تعريفنا للشباب بقولنا: كيف يجب ان يكون موقفه من قضيته القومية، الصفة الثالثة هي هذا الموقف النفسي الذي لايجيز للشباب النظر لامتهم كنظرهم لأية أمة أخرى، فكونهم منها يرتب عليهم موقفا نفسيا، شعوريا وفكريا، يختلف كل الاختلاف عن الموقف الذي يمكن ان يقفوه من تاريخ الامم الاخرى وحاضر هذه الامم. فموقفهم من تاريخ أمتهم متصل بحياتهم مباشرة فلا يجوز لهم الحياد ولا التفرج ولا الاستخفاف لانهم مسؤولون عن هذه الصلة التي تربطهم بأمتهم اذ هي الشيء الوحيد الذي يبرر وجودهم ويجعل له معنى.

والصفة الرابعة في تعريفنا هي ان يدركوا قضيتهم القومية في مرحلتها الحاضرة. وعندما ينتبهون لذلك ينقذون أنفسهم من التخبط في الافكار المتناقضة، والآراء المتباينة، ومن نشدان الاعذار المختلفة لتجنب العمل. فنحن لانطلب من الشباب

أن يحددوا موقفا نظريا من قضيتهم القومية في كليتها بدون اعتبار للوقت الحاضر الذي نجتازه، اذ لو سمحنا بهذا الابهام في تحديد الموقف وصرفنا النظر عن أمر الزمان، الزمان الحاضر، لأجاز كل فرد لنفسه ان يتذرع بشتى الآراء فيفسر هذه القضية القومية بتفسيرات مختلفة وبالنتيجة يتعذر الحصول على موقف جدي . . . يجمع أفراد الامة.

اما اذا وضعناه على شكل القضية القومية في الحالة الحاضرة لنحول دون هذه المحاذير، فلا يمكن أن نبحث الانسانية في مرحلتنا القومية الحاضرة، ولايمكن أن نبحث في تقدم العلوم والمخترعات، ولا في أمور غيبية لاهوتية ولا في كل هذه الاشياء التي قد يجوز بحثها لأمم تخلصت وانتهت من دور النضال وتهيئة الرقي، وغدت في مرحلة الترف الفكري وتخمة السلطان والقوة، فيمكنها ان تبحث في شؤون الانسانية وعالم الغد والسلام والنظام وما الى ذلك. في هذا خطر كبير على الشباب اذا أجازوا لأنفسهم هذا الانفلات والتيه في التفكير، ولم يحصروا تفكيرهم وشعورهم بما تقتضيه القومية في المرحلة الحاضرة، فهي مرحلة استجماع للقوى في الداخل، مرحلة تقلص وحصر وتركيز لا مرحلة اشعاع وفيضان، وهي مرحلة اهتمام. بالنفس لا مرحلة غيرة على الآخرين.

عام ١٩٤٣

الجيل العربي الجديد

في حالة رقي الامة وقوتها تخف مسؤولية الفرد، اذ يكون قادرا على نفعها عاجزا عن الاضرار بها، ولا يكون ثمة تناقض او اختلاف كبير بين نفعه لها وانتفاعه منها، بل تنسجم المنفعتان في أكثر الاحيان. وبتحقيق الفرد شخصيته تتحقق شخصية أمته، وبقيامه بعمله الخاص يخدم الحياة العامة، وعندما يساهم في أوقات معينة ومناسبات محدودة في العمل العام، يعرف ان مساهمته اذ تضاف الى مساهمة الآخرين تؤدي بصورة أكيدة الى النتيجة العامة المطلوبة أو ما يقاربها.

ذلك ان الأمة في هذه الحالة تسيطر على مصيرها وظروفها الى حد كبير، فحياتها ايجابية، دافقة، وهي تصعد وكأنها من قوة اندفاعها في نزول. والفرد محمول على تيارها في هذا الصعود يخدمها بلا عناء ولا تكلف.

أما في حالة التأخر والضعف فتتضخم مسؤولية الفرد، اذ يرى كل حركة من حركاته قادرة على الاضرار بأمته، في حين تصبح خدمتها شاقة متعذرة، فاهتمامه بحياته الخاصة ونفعه الخاص لا يكون اهمالا للخدمة العامة فحسب، بل في أكثر الاحيان موجها ضدها. ولا يعود الفرد خلية في جسم الأمة، اذا تغذى غذاها في الوقت نفسه، بل خصما لهذا الجسم لايقوى الا من ضعفه ولا يسمن الا من جوعه. واذا أراد أن يدخل الحياة العامة رأى بعد حين أنه بالرغم من رغبته الخالصة في الخدمة، منقاد بمنطق قاهر خفي لان يسخرها لنفسه ومصلحته، ويعيش منها وعليها، بعد ان كان ينوي تسخير نفسه وعيشه لنفعها ولخدمتها، ويتضح له ان مساهمته في العمل العام بغية ايصاله الى هدف مشترك واحد للامة، لن تؤدي عندما تضاف الى مساهمة الآخرين، الا الى وصول بعض الافراد الى اهداف خاصة مختلفة، أي الى ابعاد الامة عن هدفها المطلوب.

ذلك ان الامة في هذه الحالة مُسيّرة منفعلة، خاضعة لسلسلة من العوامل والظروف البعيدة والقريبة، الداخلية والخارجية. فبين ظروف الامة ومصلحتها، بين قدرتها وارادتها تضارب وتناقض. أي أن عملها عكس نفعها، وواقعها نقيض

حقيقتها. وانما تقدر ما لاتريد وتريد ما لاتقدر عليه، فحياتها سلبية وتيارها غائر، اذا تصدى له الفرد شد اليه وغار معه. في مثل هذه الحالة لايجدي علم بعض الافراد وكفاءتهم واخلاص بعضهم الآخر ونزاهته، وغيرة الغيورين وتضحيات المضحين، لان الآلة الكبرى قادرة أن تتحمل مثل هذا الشذوذ لتتمثله وتهضمه وتطبعه بحركتها وتحوله الى غذاء لها بعد حين، كما يقدر المجتمع الراقي السليم على تحمل بعض الفاسدين وحتى على الافادة من فسادهم.

وكل علم يبقى ضمن اطار هذه الآلة هو ناقص، وكل اخلاص مشوب، وكل نزاهة مشتبهة. ولو كان العلم صحيحا لفك صاحبه من اسار هذه الآلة وأخرجه من سجنها ووضعه في موضع حر مجرد يشرف منه عليها ليحيطها بنظرته ويفهم سر تركيبها، ليعرف كيف يهدمها. ولو كان الاخلاص تاما لدفع صاحبه الى الانفصال عنها والتمرد عليها بدلا من تدعيم قوة الفاسدين. ولو كانت النزاهة حقيقية لحرص صاحبها على نظافة أمته أكثر من حرصه على نظافة سمعته.

ان حالة كهذه تجرف وتشل وتقنط العدد الاكبر. ولكنها قد تخلق افرادا قلائل وحيدين يصمدون ويعاكسون سيرها، فعندما يتخلى العدد الاكبر عن مسؤوليته يظهر هنا وهناك الفرد الذي يتحمل كل المسؤولية، أي مسؤولية الكل، وهذه خطوة اولى ومربية لأولئك الافراد يجب ان يعقبها تعارفهم وتوحيد جهودهم، حتى يكونوا القوة التي تحدث في نفوس الآخرين الثقة والاطمئنان الى ان كل جهد ينصب في هذه القوة مثمر، وانها القوة الوحيدة التي تثمر فيها الجهود. فالعمل ليس عاديا آنيا، بل تاريخيا، وليس سياسة بل رسالة لأنه مكلف بتصحيح انحراف عصور عديدة ماضية، وتهيئة انبعاث للأمة يؤتي أكله في عصور عديدة مقبلة، وليس ينجح فيه جهد افرادي واسلوب سطحي واعداد مرتجل، فلا بد اذن من جيل بكامله مهيأ لان يبدع في النضال ويستمر فيه الى نهايته.

اننا اذ نذكر الجيل العربي الجديد نعني به جيلا لم يتحقق بعد وان تكن له في واقعنا ممكنات، ومن العبث أن ننتظر ظهور هذا الجيل اذا لم تظهر فكرته. فالصفة المميزة له أنه فكرة كله، وان عمله اشعاع لفكرته، فاذا لم تكن لم يكن. ثمة عمل

يترسب منه ما يشبه الفكرة فهي من بقايا العمل وكدره وتفسخه، كعذر وتبرير. لذلك هي أسوأ ما فيه وهي دوما دونه، ليس العمل اشعاعا لها بل هي تقطير لظلمته.

ولا يفهم من الجيل الجديد انه جيل الشباب اذ ليس الشباب فكرة بل هو شرط مناسب لنموها، وقد يكون من الشباب من هم أشد من الشيوخ عداوة ومناقضة للجيل الجديد، لذلك لن تتحقق الفكرة العربية الجديدة الا في نوع معين من الشباب. واهمال هذا الفرق أدى الى فشل كل محاولات البعث التي قامت منذ سنين وما تزال لأنها اكتفت من الشباب برابطة السن وبرابطة أخرى لا تقل عنها خداعا: الثقافة الاصطلاحية. فالجيل الجديد يشترط أيضا وجود فهم معين للثقافة ونوع معين من المثقفين.

ان الوهم الذي ينسب الى السن الشابة قوة خارقة في حد ذاتها هو نفسه الذي ينتظر انتهاء الجيل القديم وموت آخر ممثل له. في حين ان هذا الجيل ليس مجرد أجسام مسنة، بل هو روح وتقاليد قادرة ان تتجسد في الاجيال الشابة الى ما شاء الله. فكما ان الجيل الجديد لا يوجد الا متى وجدت فكرته، كذلك الجيل القديم لايموت ما لم تمت روحه وتقاليده، او بالاحرى ما لم تقتل بظهور الروح التي تنفيها. وهذا يعني ان كل اصلاح لايتناول الفكرة الاساسية لحياة الامة هو سطحي فاشل وبالتالي ضار، وكل معالجة تهمل الجذر لتتلهى بالفروع هي اضاعة وقت. ومن هذا القبيل اهتمامنا الذهني (بالاخلاق) وفشلنا العملي فيها، فنحن نحسبها سببا وهي نتيجة، وما الفضائل المتعددة والمتنافرة أحيانا التي نطيل في ذكرها كلما كتبنا او خطبنا الا نتيجة طبيعية لموقف حيوي يجب أن يهيئه الفكر. وان هذه النظرة المعكوسة لتظهر في فهمنا لماضينا المجيد او لحياة أبطالنا، فنحن ننظر الى الابطال من خلال ضعفنا وانحطاطنا، لذلك نحملهم احمالا من الفضائل لايتناسب ثقلها مع ما كان لحياتهم من عفوية وطلاقة وتدفق، ولا يتفق تعددها مع ما كان لشخصيتهم من وحدة رائعة.

اذن فنحن لانطلب جيلا مؤمنا مخلصا جريئا صبورا مضحيا فعالا بل نطلب جيلا جديدا، اي ان يكون له موقف حيوي جديد يستنبع هو نفسه الفضائل التي يتضمنها ويحتاج اليها. ان هذا الموقف لن يكون الا موقفا فكريا يمكن تحديده

هكذا:

١ - لانهضة الا من الداخل، من داخل الانحطاط، تنبعث منه لتنفيه، وتستكشف اتجاهه لتعكسه، والجيل الجديد سيخرج من الواقع الفاسد ولكنه سيكون نقيضه، سيولد منه وينفصل عنه. وهو نتيجة للألم، ولا يشعر بألم الفساد الا من عاش فيه لا منه.

٢ - ولكن الفساد لا يؤلم دوما ولا يؤلم أيا كان: فالألم قد يخلق ويوضح ويرهف ويجسم ويملأ بالمعنى ويعطي اتجاها. فلا بد من ألم شديد فيه معنى وله اتجاه.

٣ - ان معنى الألم واتجاهه متوقفان على نوع الاحكام التي يصدرها الجيل الجديد. وحياة هذا الجيل متوقفة على حكمه، لذلك وجب أن يكون حكمه حيا.

من صفات الجيل المنحط انه يحكم على الحاضر حكم مؤرخ، انه مفسر لا مؤثر، يحول الاسباب الى أعذار وقد يحول الاعذار الى مبادىء فلسفية وقواعد أخلاقية. ليس من ضرر في ان يكون حكمنا اليوم على الجاهلية حكما تفسيريا فنستكشف فيها فضائل ونجد لعيوبها اعذارا، ولكن الاسلام حكم عليها حكما حيا وهكذا أدى مهمته. فالذين يحكمون على الجيل القديم هذا الحكم التفسيري هم منه وان كانوا شبابا يافعين، لا بل هم دونه لان القصور الذي اضطر اليه الجيل القديم اضطرارا تعمده جيل الشباب تعمدا. وبما ان التحقيق هو دون المثال دوما، فالجيل الذي يتخذ من النتائج التي وصل اليها الجيل السابق مثلا وغايات سيكون حتما دونه في الخلق والعمل معا.

فالغيرة على الجيل الجديد أي على المستقبل تفرض اسلوبا معينا في وضع المسائل وعرضها ومعالجتها لان ثمة فرقا كبيرا بين وضع المسألة بشكل يوصل الى ايجاد أعذار ومسوغات أو فضائل وحسنات للجيل القديم وبين وضعها بشكل يوصل الى تكوين عقيدة ومثل ومفاهيم تمكن الجيل الجديد من القيام بمهمته التاريخية.

٤ - ولا يكون حكم الجيل الجديد حيا الا اذا كان له في فكره ونفسه مجتمع مثالي يستمد منه قيمه ويسأله الحكم على تفكيره وعمله. فالمجتمع الواقعي يهدد الشباب بأكبر الخطر اذ هو من جهة يرشحهم لمهام الابطال ومن جهة اخرى يرضى

منهم بأبسط الاعمال. فلا بد من الترفع والتغاضي عن المقاييس الواقعية ومن استلهام مقاييس المهمة التاريخية، أي المقاييس الخالدة. فالخلود ليس سير الحاضر الى المستقبل بل نقل المستقبل الى الحاضر. وان ابطال العروبة في الماضي المجيد لم يخلدوا لانهم قاموا بالاعمال العظيمة بل قاموا بالاعمال العظيمة لانهم كانوا في حياتهم يعيشون في نطاق الخلود.

٥ ـ كل ما تقدم يوصل الى هذه النتيجة: بأن الجيل الجديد لن يكون الا بانفصاله عن الجيل القديم لا في الزمن الاصطلاحي، بل في الزمن النفسي والجوهر، أي في أصل الفكرة ونظام تكونها وصلتها العضوية بمعتنقيها. هكذا نعتبر أصغر تلميذ قابل لان تتجسد فيه الفكرة العربية الجديدة أثمن وأنفع لأمته من أكبر سياسي حافل العمر بالحوادث والتجارب والخدمات. عند ظهور الاسلام كانت قيمة المسلم في كونه مسلما لان فكرة الاسلام كانت كفيلة برفعه الى مستواها، وكان فساد المشرك في كونه مشركا بصرف النظر عن مواهبه وفضائله لان فكرة الشرك كفيلة بخفضه الى دركها وبتهديم هذه الفضائل وتبديد تلك المواهب. ذلك هو الفرق بين فكرة خلاقة وفكرة عقيمة.

الانفصال هو النظرة الصحيحة الى الاتحاد الصحيح، لان الاتحاد لايكون في الكم بل في الجوهر والدم، واذا كان الاتحاد الكمي في حالة سلامة الجوهر قوة، فانه يعني الضعف والفوضى عندما يكون الجوهر مفقودا أو مشوبا. ففي حالة الازمات الخطيرة التي تتناول جوهر الحياة ينشأ بين الكم والكيف تناقض وتضاد ويتميز العنصر الصالح بخلوه من العناصر الاخرى، وبخوفه ونفوره منها وتخويفه وتنفيره لها، أكثر من تميزه بجمعها واجتذابها. في وقت من الاوقات، وقبل البعثة، كانت الامة العربية مجرد فكرة ومثال لايقابلها في عالم الواقع شيء ولا يحققها شخص حي. لذلك كانت قوية لأنها رفضت أن تتساهل وتقبل بواقع لا يلائمها وانتظرت حتى ابدعت واقعا من فكرها ودمها واحشائها.

وفي وقت آخر عند البعثة كانت الامة العربية رجلا واحدا، وكان هذا الواحد كافيا ليمثلها في ذلك الحين والى ألوف السنين.

فالأمة ليست مجموعا عدديا بل فكرة تتجسد في هذا المجموع كله أو بعضه، والأمم لاتنقرض بتناقص عدد أفرادها، بل بنقص الفكرة من بينهم. وليس المجموع العددي مقدسا في حد ذاته باعتباره عددا بل باعتباره مجسدا لفكرة الامة أو قابلا لأن يجسدها في المستقبل، لان الفكرة موجودة في حالة البذور في كل فرد من أفراد الامة، لذلك يحق للذي تتمثل فيه أن يتكلم باسم المجموع. والزعيم في حالات ضعف الفكرة وتقلصها ليس هو الذي يحظى بالاكثرية أو الاجماع، بل بالمعارضة والخصومة، وليس هو الذي يستعيض عن الفكرة بالعدد بل يحول العدد الى فكرة، وليس هو المجمع بل الموحد، أي صاحب الفكرة الواحدة الذي يفرق عنها ويطرح منها كل ما يخالفها ويناقضها.

الجيل الجديد يؤمن بنفسه لانه يؤمن بأمته الخالدة، ويؤمن بأمته الخالدة وبقدرتها على أن تغلب انحطاطها، لأنه يؤمن بنفسه: ما دام هو قد خرج منها، فهي قادرة أن تخرج من نفسها، وما دام هو قد ارتفع فوقها فهي قادرة أن ترتفع فوق نفسها، وما دام هو قد انفصل عنها فهي تستطيع بعمله وتأثيره أن تنفصل عن نفسها، نفسها المنحطة الفاسدة لتعود الى ذاتها الاصيلة، لتعود الامة العربية الخالدة. ولكن كل ذلك يشترط أن يكون ثمة جيل عربي جديد.

عام ١٩٤٤

العرب بين ماضيهم ومستقبلهم

ان علاقة الدين بالدولة التي تثار الآن في سوريا بمناسبة وضع الدستور الجديد هي من أهم القضايا القومية، لا كما يريد البعض ان يصورها بأنها مسألة تافهة. فهذه القضية تشمل شيئا اوسع من علاقة الدين بالدولة، وهو علاقة الامة بماضيها وموقفها من مستقبلها، كما أنها تعني الاسس الروحية والحقوقية التي تقوم عليها القومية العربية في المستقبل.

أما الذين يقللون من شأن هذه القضية فالمرجح أنهم يقصدون فساد الأسس التي يبني عليها دعاة مزج الدين بالدولة نظريتهم وفساد الاساليب التي يلجأون اليها لدعم هذه النظرية، وسوء النوايا والاغراض السياسية والاجتماعية التي تحرك بعض المتزعمين لهذا الموقف، أو بعض المناوئين له، لذلك وجب أن نتناول كل نقطة من نقاط الموضوع ونوضح حقيقتها الفكرية ونتائجها العملية، القريبة والبعيدة، في حياة الامة العربية.

لماذا ظهرت هذه المشكلة في سوريا، وماذا يعني ذلك؟ لا شك أن قيام جمعية تأسيسية لوضع دستور جديد كان المناسبة لظهور هذه المشكلة، ولا شك أيضا ان في وضع سوريا السياسي الشاذ وما يلابسه من أغراض حزبية ومداخلات أجنبية، عاملا كبيرا في اثارة هذه المشكلة وتوسيعها. ولكن الى جانب ذلك توجد عوامل اخرى تعطي للأزمة القائمة معنى أوسع وأعم وأعمق من معنى الازمات الحزبية والسياسية الطارئة، وهذه العوامل منها ما يتعلق بوضع سوريا التاريخي أي بكونها تضم عدة طوائف ومذاهب، ومنها ما يتعلق بوضع سوريا القومي بالنسبة الى النهضة العربية الحديثة أي باعتبار سوريا أكثر الاقطار العربية اتصالا بفكرة القومية العربية وبحركة انبعاثها، وأكثرها تهيؤا لوضع الاسس الشاملة لهذه الفكرة ورسم الخطوط الواضحة لمستقبل الامة العربية.

والحق ان لسوريا وضعا قوميا ممتازا تضافرت على خلقه عوامل عدة، تاريخية واجتماعية وسياسية. فسوريا قطر عربي صغير ليس فيه من الامكانات ما لمصر مثلا، وهي أيضا رغم تقدمها النسبي في الثقافة والاوضاع الاجتماعية، اذا قيست ببعض

الاقطار العربية المتأخرة في هذا المضمار، فانها تقصر عن مصر ولبنان ولا تفوق العراق.

يمكن القول ان سوريا تمثل النقطة الوسط بين التيارات التي تتجاذب العرب في هذا العصر. فصدرها منفتح لتأثيرات الحضارة الغربية، وقلبها زاخر بالعواطف والذكريات العربية. لذلك كان كل تفاعل بينها وبين حضارة العصر الحديث يهز فيها وجدانها العربي، ويؤدي الى تعبير جديد عن هذا الوجدان المستيقظ على شروط جديدة في الحياة. في حين نرى الاقطار العربية الاخرى موزعة بين طرفين متطرفين، فهي اما شديدة البعد عن تأثير الحضارة الحديثة، بعدا يترك الوجدان القومي فيها هاجعا متبلدا، وأما شديدة القرب من تأثير هذه الحضارة، بشكل يطغى على هذا الوجدان فيجعل يقظته أشبه بيقظة المحموم تذهله عن شخصيته وهويته وتسبب له انحرافا عن الطريق الطبيعي السوي.

العرب بين الماضي والمستقبل - والأصح ان نقول ان المشكلة القائمة هي بين حاضر العرب ومستقبلهم، اذ لايوجد في البلاد العربية نزعة فكرية خالصة يصح بأن تسمى رجعية، اي انها تقول بالرجوع الى الماضي، واعادة بناء المجتمع العربي على أساسه. ولكن النزعتين الراهنتين اللتين تتوزعان العرب في هذا العصر وتتجاذبانهم هما: نزعة محافظة تحاول الاحتفاظ بالاوضاع الراهنة وما يلابسها من تقاليد ومصالح. ونزعة قومية تقدمية تضيق بهذه الاوضاع وتسعى لتحطيمها والانفلات منها الى حياة تكون أصدق تعبيرا عن امكانيات الشعب العربي وحاجاته. فالمحافظون هم جميع الذين لهم مصلحة في بقاء الاوضاع الراهنة، سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم فكرية. وهم بحكم هذا التعريف أقلية بالنسبة الى مجموع الامة تجمعهم على اختلافهم صفة الاستغلال. اما التقدميون فيمثلون الكثرة الساحقة التي تتوقف حياتها على التخلص من تلك الاوضاع. وكما ان نقص الوعي عند بعض المحافظين يقودهم الى التناقض وتأييد ناحية من نواحي التحرر، فكذلك نقص الوعي عند جمهور الشعب ما زال يدفعه الى معاكسة ناحية او أكثر من نواحي قضيته القومية التقدمية.

أما المشكلة النظرية التي تقوم في أذهان البعض على الاختلاف بين الاستمساك

بالماضي والتحرر منه، فهي مشكلة وهمية يكفي لتبديدها ان توضح. فالماضي الذي تحن اليه الامة وتجد فيه ثروة لها وقوة، هو الزمن الذي تحققت فيه روحها، والمستقبل الذي يناضل التقدميون في سبيل بلوغه ليس الا ذلك المستقبل الذي تستطيع فيه الروح العربية أن تتحقق من جديد. ولكن بينما يحسب البعض ان هذا السير نحو تحقق الروح العربية يجب أن يكون رجوعا وهبوطا اي ايغالا في الجمود والشكليات، يرى التقدميون انه يجب أن يكون سيرا حرا صاعدا.وبتعبير آخر، يريد الفريق الاول ان يصل الى الروح عن طريق الاشكال الميتة، بينما يسلك الفريق الثاني، الطريق الطبيعي الصادق، وذلك بالانعتاق من كل ما هو جامد ميت، وباستثارة كوامن الحيوية وروح الحرية والمسؤولية في نفوس العرب. وبينما يعتبر الاولون الماضي منحة وهبة تكافأ بها العبودية والجمود، يرى الآخرون في الماضي استحقاقا لايبرره الا النضال الصاعد والمواهب المنطلقة، فالروح لا ترجع ولا تهبط ولكننا نحن الذين نتقدم نحوها ونرتقي اليها لنلتقي بها.

الهدم والبناء ـ يظهر مما تقدم ان الموقف الذي يتبناه البعث العربي هو الموقف الروحي الايجابي البنّاء. ولكن في الحالة التي وصلت اليها الامة العربية نتيجة قرون من الانحطاط وفقدان الشخصية والعجز عن الابداع، أصبح من العسير ان نطمئن الى القيم والمفاهيم الاصطلاحية، ولم يعد بد من اعادة النظر فيها للكشف عن ينابيع الروح وعناصر الخلق والبناء. وان النظرة الفاحصة المتعمقة لتوصل الى رؤية الروح في المظاهر المتنكرة لها، كما توصل الى رؤية المادة والزيف والنضوب، في المظاهر المقنعة بقناع الروح. تلك هي حالة التناقض التي تؤذن بالثورة. فالتدين الرائج الذي ينطوي على الشيء الكثير من النفاق والنفعية والجهل، والاخلاق السائدة التي تقوم أيضا على النفاق والنفعية والاعتبارات الرخيصة السطحية والتقاليد الموروثة التي نضبت منها الحياة وفقدت كل تجاوب مع الحاجات الجديدة، كل هذا لم يعد صالحا ولا قادرا على امداد الامة بالحيوية ودفعها الى السمو. وليس يمنع ذلك من ظهور بعض تفتحات للروح وسط هذه البيئة المشوهة الناضبة، الا ان هذه التفتحات لا تلبث ان تختنق

وتخمد بسبب افتقارها الى التربة الندية والهواء الطلق. فاذا لم تصحح القيم وتغير التسميات فستظل هذه البيئة الروحية في عنوانها، المادية في حقيقتها قبرا مفتوحا يبتلع كل محاولة للانبعاث، ويقضي باسم الدين والاخلاق والتقاليد، على كل ارتعاشة روحية ووقفة أخلاقية صادقة، وكل يقظة للشخصية القومية.

وفي طلائع الحياة الجديدة تكمن القوى الروحية الحقة مختلطة ببعض الزيف والسطحية والشر، ويفرض عليها هذا الاختلاط فرصا لاستمرار الالتباس في القيم والمفاهيم، ويسبب لها ارتباكا في السير وقلقا في الاتجاه، وخللا في التجانس. واذا لم تصحح التسميات وتصبح الفروق والحدود واضحة حاسمة بين مفهوم الرجعية ومفهوم الثورة فسيظل قسم غير ضئيل من قوى التحرر ضائعا مهدورا. ان التصحيح الذي نطلبه هو الذي يختصر مرحلة الهدم ويفسح المجال واسعا للبناء القومي المحكم، لان الهدم ليس هو، كما تدعي الفئات المحافظة المستغلة، في وثبات التحرر، ولكنه في التضليل الذي يؤخر انطلاق العناصر الحية من سجن البيئة المحافظة، كما يؤخر خلاص القوى التحررية من العناصر المزيفة والسطحية والمنحلة.

القيم الروحية والاقتصاد ـ لعل أهم ما يميز هذا العصر اكتشافه لحقيقة كبرى هي أهمية الاقتصاد وتداخله في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية والفردية. وقد كان اكتشاف هذه الحقيقة مصحوبا بالغلو والجموح فاضطرت ـ لكي تعلن عن نفسها وتحتل مكانتها المشروعة بين الحقائق الانسانية ـ أن تظهر بمظهر الاستئثار والتعسف، وقدمت نفسها على انها الحقيقة الاولى والاخيرة، والحقيقة الوحيدة. ونتج عن ذلك تشويه وتضليل كبيران. ولا يحارب التشويه والتضليل بالتجاهل والعناد بل بروح الانصاف والتجرد، اي بالاعتراف لهذه الحقيقة بنصيبها العادل الراهن من الوجود.

والعوامل الاقتصادية ان لم تكن كل شيء في حياة البشر فهي شيء كبير وخطير، وان لم تكن المؤثر الاول فان لها على كل حال تأثيرا متبادلا وفي بعض الاحيان حاسما مع العوامل الاخرى. وان كل تعريف للروح وقيمها لا يحتوي في صلبه أثرا للعوامل الاقتصادية وتقديرا لأهميتها وتوقعا لنتائجها، انما هو تعريف ناقص وزائف. والخطر

على الروح لا يأتي من الذين ينكرونها ويتحدونها بل من الذين يزيفونها ويستر ون بعض جوانبها الأساسية. وكل توكيد للقيم الروحية يقف عند حدود الألفاظ والمبادىء المجردة، ويجبن عن مجابهة الحقائق الواقعية والسير بالمبادىء الى آخر طريق التحقيق، انما هو في الواقع خيانة وانكار للروح وستار لتوكيد نقيضها اي ستار للمادة الغاشمة. وعندما تتشوه القيم الى حد التناقض، وتفسد الاوضاع حتى تؤدي الى عكس الغاية التي وجدت من أجلها، في مثل هذه الحالة تصبح الدعوة الروحية الاصيلة هي التي تتحرر من نفسها، اي من الزيف الذي وقعت فيه الروح، ومن المصطلحات التي باعدت بينها وبين وظيفتها الحيوية، وتصبح الدعوة الروحية وعاءاً رقيقاً شفافاً للمشاكل الاجتماعية والمادية، فتعطي لهذه المشاكل المقام الاول من الاهتمام وتصعد منها في ارتقاء شاق بطيء لتعلن في نهاية هذا الصعود - بظفرها على مشاكل المادة - عن حقيقتها.

الدين في البعث العربي - لقد ظهر البعث العربي في حياة العرب الحديثة وفي وسط الجمود والجحود والنفعية والانحلال حركة ايمان عميق تستقطب النفوس النقية السليمة، وتجتذب الارادات القوية الصادقة وتجمع حولها الافراد المشبعين بحب الامة العربية، المؤمنين بعظمتها، الذين لم يعمهم ما طرأ على هذه الامة من فساد عن رؤ ية جوهرها وامكانيات مستقبلها، ولم تستطع مغريات الواقع ومصاعبه أن تغلب فيهم ارادة العمل للكشف عن هذا الجوهر وبعث تلك الامكانيات. فنشوء البعث العربي انما هو دليل ساطع على الايمان، وتوكيد للقيم الروحية التي ينبع منها الدين.

ولكن هذه الصفة نفسها، صفة الايمان المميزة للبعث العربي هي التي فرضت عليه الاصطدام بجميع الحركات التي تنكر الايمان او تتستر بايمان سطحي زائف. وقد كان ظهور البعث العربي منذ عشر سنوات ايذانا بحرب صريحة على الجانب المادي السلبي الحاقد من الحركات التحررية، وعلى القومية اللفظية الرائجة التي تمثل الجفاف والنضوب والعجز عن الخلق، وترى في الواقع الفاسد الحقيقة النهائية فتفقد كل سيطرة عليه، كما أنه لم يكن بد من التعرض للتدين الرائج الذي تتمثل فيه أيضا هذه الشوائب، وقد تحدى البعث العربي منذ ظهوره هذه المظاهر المريضة وأرجعها كلها

الى سبب واحد هو فقدان الثقة بالنفس. ففي الشيوعية في بلادنا يقظة مصطنعة للذين فقدوا الاتصال بروح أمتهم ويئسوا من كل خلاص يأتي من داخلها، فارتضوا خلاصا خارجيا مصطنعا. والقومية الرائجة ارتضت بالمرض حالا عادية سوية، وأقرت النفعية والعبودية والكذب قيما ثابتة للمجتمع لان الثورة على هذه المفاسد كانت تقتضي منها ثقة بقدرة الامة على التغلب عليها. والتدين الرائج فقد كل صلة بالروح والحوافز التي كانت مصدر الدين بالماضي والتي جعلت منه حركة احياء وتجديد وبناء فآل الى حالة من الجمود والمحافظة والجهل، فسحت أرحب المجال للرياء والاستغلال.

وقد دعا البعث العربي الى مفهوم جديد للحياة القومية والحياة بصورة عامة، قوامه الايمان بالقيم الروحية الانسانية، وبقيمة الروح العربية الاصيلة، ومظهره الانفصال الحاسم عن مفاسد الواقع ومكافحتها في طريق صاعدة شاقة تسير فيها الامة ببطء وجهد نحو الاتصال بروحها من خلال هذا الصراع الدامي بينها وبين واقعها. لذلك لم يبق في مفهوم البعث العربي مجال لأي تدين لا يحمل آثار هذا الايمان المثالي. والبعث العربي الذي هو حركة روحية ايجابية لايمكن أن يفترق عن الدين اويصطدم معه ولكنه يفترق عن الجمود والنفعية والنفاق.

البعث العربي حركة قومية تتوجه الى العرب كافة على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، وتقدس حرية الاعتقاد وتنظر الى الاديان نظرة مساواة في التقديس والاحترام. ولكنها ترى الى جانب ذلك في الاسلام ناحية قومية لها مكانتها الخطيرة في تكوين التاريخ العربي والقومية العربية، وتعتبر هذه الناحية ذات صلة وثيقة بتراث العرب الروحي وبمميزات عبقريتهم. لقد كان البعث العربي أول حركة اوضحت هذه الصلة ووضعتها في صيغتها السليمة فحلت بذلك أزمة مزمنة وأنقذت القومية العربية من مفهومين منحرفين: مفهوم القومية المجردة الذي يفرض عليها الاصطناع والفقر، ومفهوم القومية الدينية الذي يقضي عليها بالتناقض والتلاشي.

فالاسلام من حيث هو دين صرف مساو لغيره من الاديان في الدولة العربية التي تساوي بين جميع مواطنيها وتحترم حرية معتقدهم. والاسلام من حيث هو حركة روحية امتزجت بتاريخ العرب واصطبغت بعبقريتهم وأتاحت ظهور نهضتهم الكبرى له مكانة

خاصة في روح القومية العربية وثقافتها وحركة انبعاثها، الا ان هذه المكانة لا تفرض فرضا بل تولد من الحرية وتستمد من قوة الروح ومن مدى اتصال العرب بروحهم وتجاوبهم الحر العميق معها. وبهذا المعنى تستلهم حركة البعث العربي من الاسلام تجدده وثورته على القيم الاصطلاحية. تستقي من نبعه فضائل الايمان والمثالية والتجرد عن المنافع الشخصية والمغريات الدنيوية في سبيل نشر المبادىء التي تنقذ العرب في هذا العصر من ضعفهم وتفككهم وانخفاض مستواهم الروحي والاجتماعي. والبعث العربي اخيرا يستمد من حركة الاسلام الخالدة قوة الصبر والمقاومة لتيار الواقع المريض، ويجد فيها قدوة رائعة تحتذى في الغيرة الصادقة على مصلحة الامة وفي معالجة أمراضها بجرأة وصدق دون تملق رخيص للعواطف السطحية، ودون استناد الى قوى الجهل والحقد وعبودية النفس والفكر. وهو مؤمن بأن هذا الاسلوب المنسجم مع سمو المبادىء التي ينادي بها هو الاسلوب الذي يكتب له النجاح آخر الامر كما كان ذلك في الماضي، وكما سيكون دوما.

الدولة في البعث العربي ـ ان الدولة العربية التي يعمل لها البعث العربي هي التي تتيح لجميع المواطنين أن يعملوا متعاونين على تحقيق امكانيات الامة العربية في مجال الروح والمادة، وذلك بتحقيق امكانيات كل فرد من أفرادها دونما عائق مصطنع. وبذلك تبعث القوى الكامنة في الامة وتصحح القيم البالية ويستعيد كل مواطن حقه المقدس كاملا في الحرية والمسؤولية. فالدولة اذن تقوم على أساس اجتماعي هو القومية، وأساس أخلاقي هو الحرية. وافرادها يكونون مرتبطين بقوميتهم مسؤولين عن اداء واجباتهم نحوها بقدر ما يكونون أحرارا فيها. وعندما نفهم الدولة على هذا الشكل ونرى فيها مجالا لبعث الامة وبعث قوى افرادها ولتصحيح القيم وازالة الكذب والزيف والضغط من حياة المجتمع، ودفع هذا المجتمع في طريق ايجابية مبدعة لاداء رسالة الامة الى الانسانية فمعنى ذلك ان هذه الدولة هي نقيض الالحاد والفساد وكل ما هو سلبي هدام. وعلمانية الدولة بهذا المعنى ليست الا امعانا في الحرص على اتجاهها الروحي والاخلاقي، لانها ليست الا انقاذا للروح من شوائب الضغط والقسر ووضع

العراقيل المصطنعة أمام يقظة الروح واستقلال الخلق وانطلاق النشاط في نفس كل عربي.

وما دام الدين منبعا فياضا للروح، فالعلمانية التي نطلبها للدولة هي التي بتحريرها الدين من ظروف السياسة وملابساتها، تسمح له بأن ينطلق في مجاله الحر في حياة الافراد والمجتمع وبأن تبعث فيه روحه العميقة الأصيلة التي هي شرط من شروط بعث الأمة.

عام ١٩٥٠

قوميتنا المتحررة

أمام التفرقة الدينية والعنصرية

افتتح هذا الحديث، الذي ألقي في اجتماع لطلبة المغرب العربي، بسؤال من أحد الطلاب طرح عن الاقلية البربرية بالمغرب ومحاولة فرنسا تقوية هذه العنصرية وكيف يمكن التوفيق بينها وبين الفكرة العربية التي ندعو لها ونعمل من أجلها.

× × ×

يجب التساؤل أولا: هل نحن سنعمل كالسياسيين الموجودين بأسلوب مرتجل لتمشية الحال دون أن يكون هناك نظرة شاملة وبعيدة للمستقبل، أو أن الوقت حان لوجود جيل عربي في كل مكان من أقطار العروبة ينظم تفكيره وعمله على أساس هذا التفكير الشامل.

فأسلوب السياسيين الموجودين في البلاد العربية هو أسلوب مرتجل كما هو معروف لا يقوم على نظرة علمية مدروسة شاملة تعتمد في المستقبل على امكانيات الشعب العربي وتسعى الى تحقيق أهدافه وفق مراحل مدروسة.

فالسياسيون يصدرون من هذه النظرة، ولان مصالحهم أيضا لا تسمح لهم بالعمل الطويل ولا تسمح لهم بالتجرد والنضال المستمر لذلك نراهم يرتجلون. فالعلل الموجودة في المجتمع العربي من رأسمالية واقطاعية يضخمها الاستعمار باستمرار الى جانب عصبيات عنصرية وطائفية ومذهبية. ومعالجة السياسيين لهذه العلل معالجة مرتجلة وسطحية، تارة يكذبون على الشعب وتارة على أنفسهم ويتجاهلون هذه الامراض ويخضعون لها الخضوع التام فنرى من السياسيين من يماشي النعرات الطائفية المذهبية، وآخرين لكي يتحاشوا الاصطدام بالفروق العنصرية يلجأون الى الشعارات التي في عرفهم تجمع المجتمع. ففي المغرب مثلا يظن أن الاسلام يجمع الجميع لذلك لا يعود مجال للاختلاف العنصري، كما

يوجد في الشرق العربي من يقول بهذا الرأي مع أنه أصبح ضعيفا.

اني أذكر بأن في سورية قبل خمس وعشرين سنة قلما كان الزعماء يذكرون كلمة عرب وعروبة. كانوا يجدون في كلمة سورية والسوريين مخرجا من مآزق كثيرة ولم يكونوا يستعملون تعابير قومية وانما وطنية بقصد أن يلتقي الجميع مسلمين ومسيحيين وعربا وأقليات غير عربية كلها باسم الوطنية لمقاومة الاجنبي المحتل. وبقي هذا لما قبل عشر سنوات. وقد اضطرتهم حركتنا في آخر الامر أن يتبنوا شعارات العروبة ولكن حتى الآن يظهر في تعابيرهم من حين لآخر بقايا الاسلوب القديم فيقولون بأمة سورية.

فالمشكلة ما زالت مطروحة ولكن في الشرق العربي خفت حدتها مع انها لا زالت باقية في لبنان، اما سوريا فقد سبقت غيرها من الاقطار واعتمدت الوضوح والصراحة. اما في العراق فما يزال هذا المفهوم موجودا نظرا لوجود أقلية كردية. أذكر مثلاً منذ سنتين جاء وفد عراقي لزيارة سورية ولبنان - وكان الشيشكلي ما يزال موجودا - وتحدثوا لي عن خلاف عنيف وقع بينهم عندما دخلوا سورية وقبيل دخول دمشق، على رفع العلم العربي، فهناك قسم من الطلاب لم يوافق على ذلك، منهم الشيوعيون، والشيوعيون يستغلون هذه التفرقة العنصرية فيجدون أرضا خصبة بين الاكراد في العراق. أما في مصر فالمشكلة من نوع آخر، ليست هناك عناصر مختلفة وانما مر على مصر زمن طويل وهي في ظل الحكم الاجنبي من أتراك وانجليز اضعفوا فيها هذه الصفة العربية وغذوا فيها الشعور الاقليمي وأوجدوا شيئا من الاعتزاز المصري ونبشوا الحضارة المصرية القديمة من الآثار وكادوا يوهمون المصريين بأنهم غير عرب. ولكن هذه المحاولات فشلت. والان لم يعد يجرؤ أحد أن يطالب جديا بقومية مصرية فرعونية. وفي لبنان ينظر الى العروبة نظرة الاسلام لانها رافقته، لذلك فالعناصر المسيحية المتعصبة المستغلة للتفريق الطائفي تكافح الفكرة العربية بحجة أن العروبة معناها سيادة وسيطرة الاسلام كدين وتشريع وتقاليد وحضارة. فكل هذه الافكار كانت معروفة لدينا حين بدأت حركتنا قبل خمسة عشر عاما. فنحن لم نخف منها لأننا مؤمنون بأنها أشياء مصطنعة في أكثرها تتلاشى وتذوب مع التوجيه واكتشاف

الشعب تدريجيا لمصلحته في الوحدة، والوحدة مصيره، واكتشاف بطلان ما يختبىء وراء مكافحة الفكرة العربية من مصالح خاصة، من رجال الدين أو من زعماء بعض الاقليات العنصرية أو من اقطاعيين، والاستعمار وراء الجميع. فلو أردنا أن نمشي على غرار السياسيين والزعماء التقليديين في البلاد العربية كان علينا ان نكتم دعوتنا والشيء الكثير من أفكارنا ان لم يكن في كل الاقطار على الاقل في بعضها، ولكن لمعرفتنا بحقيقة شعبنا وبحقيقة هذه الامراض ومن أين تأتي ومن يغذيها واعتبارنا لهذه الامراض سطحية وقابلة للكشف، فان التصريح بعقيدتنا وفكرتنا يساعد على شفاء هذه الامراض مثل الطبيب الذي يعتمد ارادة المريض في شفائه. فالطبيب الذي يكتم عن المريض مرضه يفقد عنصرا أساسيا في الشفاء. ومعنى ذلك انه لا يشرك المريض في عملية الشفاء في حين ان الطبيب الواعي يشارك المريض. لماذا كانت لنا هذه الثقة بفكرتنا وبأنفسنا؟ لان فهمنا للعروبة يختلف كثيرا عن المفاهيم التقليدية. لقد اعتبرنا انتشار هذا المفهوم الجديد في أوساط الشعب يكفل تأييد الشعب له وبالتالي التغلب على الأوهام والمفاهيم البالية والاعتبارات القديمة. فهناك جملة مفاهيم للعروبة او للقومية يخلق مشاكل ليس لها آخر فتمزق وحدة الشعب وخاصة وضع الشعب العربي في هذه المرحلة بعد قرون من التأخر، فنحن أحوج ما نكون الى مفهوم صحيح للعروبة نقدمه للعالم وللحضارة وللتفكير الانساني. القومية المغلقة المتعصبة أكبر خطر علينا لانها تغذي الفروق بدلا من القضاء عليها. ولقد وجد دوما في البلاد العربية مئات من الناس كانوا يتبنون النظرة النازية حتى قبل ظهور النازية نتيجة للجهل، ووجد دوما من صور العروبة بأنها مقتصرة على نوع معين وعدد معين من الناس وانها تفاخر واستعلاء على الآخرين. وطبيعي ان يحدث هذا رد فعل، وان تشعر الاقليات العنصرية بأنها مهددة بوجودها أمام مثل هذه القومية. لذلك كان هناك رد فعل على القومية المتعصبة من الاكراد والآشوريين والارمن ورد فعل ديني ومذهبي: ان القومية الاسلامية والدعوات الطائفية الاخرى كان مصيرها الفشل كما كان مصير القومية الطاغية المتعصبة. اذا كيف عرفّنا نحن العروبة منذ البدء وكيف وجدنا لها ضمانات قوية جدا لكي لا تصطدم بأي عقبة

من هذا النوع ولكي لا تتحجر، بل تكون دوما منفتحة ومتطورة وانسانية؟ ليس تعريف العروبة وحده كافيا ولكن الشيء الاساسي في الموضوع هو أننا فسرنا قوميتنا بالاشتراكية وبفكرة الحرية. هذه هي الضمانات الحقيقية في الواقع عندما تكون القومية ملازمة للاشتراكية او الاشتراكية ملازمة للقومية.

فنحن عندما ننادي بالمساواة الاقتصادية وبتكافؤ الفرص نعني اننا سلمنا قضية البلاد لأصحابها الحقيقيين وهم أفراد الشعب. وهم في حقيقتهم شيء واحد لا فرق بين مسلم ومسيحي وعربي وكردي وبربري . . . الخ . .

فلا يعقل مطلقا أن تكون القومية اشتراكية وفي نفس الوقت متعصبة لان الاشتراكية في فلسفتها هي محو لكل تمايز واستغلال وسيطرة من فئة لأخرى. فاذن نحن صدرنا من البدء عن فكرة وليست نظرية، اذ انها مستمدة من صميم هذا الشعب العربي الممتد على هذه الرقعة الممتدة في الشرق والغرب، والذي تجمعه أواصر في الماضي ومصالح وأواصر روحية في الحاضر والذي يجب أن يكون له اسم. فالاسم الذي هو أقرب ما يكون الى الواقع والى الماضي والى المستقبل هو العروبة. فاذا قلنا الاسلام فسنختلط مع عالم آخر نصطدم معه بالمصالح. فالفروق القائمة في وسط مجتمعنا العربي تظهر أنها لا شيء أمام الفروق في وسط العالم الاسلامي. اذا أخذنا الاقليات العنصرية ما بين العالم العربي والاسلامي نجدها كثيرة. فالدولة الدينية كانت تجربة في القرون الوسطى وتجربة انتهت بالفشل وكلفت البشرية كثيرا من الجهد ومن الدماء ومن المشاكل وحدثت تقريبا في أوقات متقاربة في البلاد الاسلامية وفي أوروبا المسيحية. في أوروبا كان هذا الحلم عند البابوات والأباطرة الجرمان من الف سنة. لقد حاولوا أن يجعلوا من أوروبا دولة مسيحية واحدة باسم النصرانية، وكانت من نتائجها حروب مستمرة وتورط للسلطة الدينية في مغامرات سياسية بشعة لا تليق بالدين، حتى أصبح رجال الدين في أوروبا وزعماء الكنيسة أكثر شرا وفسادا من الملوك. كذلك أباطرة الجرمان ظلوا يعيشون وراء هذا الخيال مئات السنين وكانت النتيجة فشل المحاولة لظهور القوميات منذ القرن السادس عشر. فقد تبلورت فكرة القوميات في أوروبا وقضت نهائيا على هذا

الحلم. أما في الشرق الاسلامي فقد فشلت المحاولة أيضا ونتائجها معروفة كذلك، بين حروب وثورات عديدة مستمرة انفصلت على أثرها الشعوب غير العربية وشكلت كيانات مستقلة مثل ايران وتركيا.

وانني أورد هذه الامثلة والتفصيلات لكي لا نقع في تجارب فاشلة. أعود الى الفكرة التي ابتدأنا منها: هل نريد أن نعمل دون خطة ودون نظرة بعيدة ودون أسس مدروسة متينة أم نعتبر أنفسنا مسؤولين عن مصير أمتنا وأن نختار لها أمتن الاسس وأحسن الاشكال التي تضمن ازدهارها وسعادتها ووحدتها؟ فالجواب هو ان نفرق بين العمل الماضي المرتجل وان نعتمد على المستقبل وأن نتحمل في الحاضر كثيراً من الجهود والتضحية ريثما تتوضح فكرتنا للجميع وتحقق المصير الذي اخترناه لأمتنا.

وهذا لايحدث في يوم ولا في سنة بل يحتاج الى زمن حتى يلمس جميع العرب بأن هذا هو الحل الوحيد لتطويرهم وازدهارهم. لا يجوز لنا ان نضحي بفكرتنا التي نؤمن بها أمام عقبات مؤقتة. فلمجرد وجود مسيحيين في لبنان يغذيهم الاستعمار بأفكار خاطئة، هل نساير لبنان ونقول له انه غير عربي!.. كلا لا يمكن ان نضحي بفكرتنا. وواجبنا أن نشرح للبنانيين الانعزاليين بأن العروبة التي نعمل لها تمنع الضغط الديني وسيطرة طائفة دينية على اخرى، انهم يتهربون من العروبة - وهي مرادفة في نظرهم للاسلام - لانها في نظرهم لا تسمح بتكوين مجتمع يحفظ حرية الفرد ويساير التطور الحديث في العالم. فاللبنانيون الانعزاليون بحكم موقع القطر اللبناني وبحكم الاتصالات بينهم وبين الغرب ووجود ارساليات أجنبية، تذوقوا مظاهر الحضارة الغربية أكثر من أي قطر عربي آخر، وتعلقوا بالحرية الفردية، فهم يخشون بعد أن حصلوا على شيء من هذه الحرية، اقول يخشون اذا ما اندمجوا في الجسم العربي أن يفقدوا حريتهم. واذا أخذنا الاقليات العنصرية مثل الاكراد مثلا.. نتساءل.. لماذا يتخوف الاكراد او قسم منهم من العروبة؟ ان هذا التخوف أكثره ناتج عن دعاية استعمارية حديثة ترجع الى خمسين سنة، يوم دخل الانكليز والفرنسيون الشرق العربي. فالاكراد ظلوا مئات السنين يعيشون مع العرب ويحاربون ويستبسلون في الدفاع عن الاراضي العربية. فأفراد الشعب من الاكراد

ماذا يريدون وأي شيء يطمحون اليه أكثر من ان يعيشوا حياة كريمة سعيدة، وأن يكون لهم ما للجميع وعليهم ما على الجميع باستثناء بعض الزعماء الذين لهم مصالح اقطاعية؟ أفراد الشعب هؤلاء لا يريدون أكثر مما يريده العرب أنفسهم.

والآن ليس هناك اقليات مضطهدة وطوائف مضطهدة وانما هناك اكثرية شعب مضطهد هو الشعب العربي، وهناك اقلية مضطهدة من المتآمرين مع الاستعمار. العربي والكردي والبربري والآشوري والمسلم والمسيحي والدرزي الخ.. افراد الشعب الذين يشكلون ٩٠ بالمائة من افراد الامة العربية مضطهدون محرومون من قبل اقلية تستغل الاوضاع الفاسدة وتستفيد من وجود الاجنبي.

فعندما نطرح المشكلة على هذا الشكل، اي ان الاشتراكية تطرحها على هذا الشكل، وقوميتنا اشتراكية، هناك طبقات مستغلة متآمرة على حساب الشعب، فعلينا ان نقضي على هذا الاستغلال عندها لايعود هناك فرق بين المواطنين. واذا رجعنا الى تعريف العروبة كما نفهمها نحن وكما نريد ان تتحقق بانها هي العنوان والاسم والروح التي تجمع بين هذا الشعب الواحد وتشعره بشخصيته ورسالته في الحياة فليس فيها اي جمود او تحجر او استعلاء.

لا احد يمنع الاكراد ان يتعلموا لغتهم شريطة ان يكونوا خاضعين لقوانين الدولة ولا يشكلون خطراً على الدولة، والطوائف المسيحية مثلاً لا يوجد من يمنعها من ممارسة شعائرها الدينية ومن الثقافة المسيحية ضمن هذه الثقافة العربية العامة. فمفهومنا بعيد جداً عن مفهوم القومية النازية التي تؤمن بأن هناك عرقاً مفضلاً وله مميزات خاصة يجب أن يتطهر من كل شيء وبالتالي ان يضطهد كل من لا تتوفر له الشروط من حيث النسب والعادات المعينة.. فالعروبة هي انسانية ونحن نفهم من قوميتنا العربية بأنها الانسانية الصحيحة وبأنها تقديس لقوميات الآخرين، فنقدس هذا الشعور عند كل شعب آخر.

ولكننا لا نقول بالاممية التي يقول بها ادعياء الماركسية بل نعتبرها مصطنعة لانها محاولة لافقاد كل شعب شخصيته وربط الشعب بروابط طبقية بحتة، وهي محاولة فشلت كما فشلت محاولة الدولة الدينية في القرون الوسطى على ما في ذلك من

مفارقة. فالشعب في حاجة الى من ينبهه الى أن الامية التي تجاهلت الحقيقة القومية تتحول يوماً بعد يوم الى طريق الفشل. وهكذا نرى ان نظرتنا الى الانسانية هي النظرة العلمية لاننا نعتبر ان الانسانية الصحيحة هي في القومية الصحيحة.

فلنعد الى المشكلة المطروحة ونضيق البحث ونعين الحل العملي على ضوء هذا التوضيح. هناك في المغرب عنصر يسمى العنصر البربري وهذا العنصر يمتزج مع العرب امتزاجاً كلياً، كما اعتقد، من الفتح العربي على الاقل لان هناك بعض النظريات التي توجد صلات بينهما قبل الفتح، ولكن منذ الفتح العربي الى اليوم اصبحت أرضاً واحدة وديناً واحداً وثقافة واحدة ولغة واحدة ومصلحة حاضرة واحدة.

ونغمة التفريق هذه قد اصطنعها الاستعمار وغذاها، اذن هل نقول اننا نريد ان نتحرر من الاستعمار اولا تحت الشعارات الملائمة التي تجمع ولا تفرق بعد ذلك نسعى أن نزيل هذه الفروق، أو أن نظهر للبربر الذين يتحفظون تجاه القومية العربية بأنها عين ما يطمحون اليه وانها حريتهم وحياتهم وازدهارهم وانها القوة الحقيقية؟ ثم بأنهم لن يكونوا فئة قليلة وبأنهم سيكونون جزءاً من أمة واسعة منتشرة في الشرق والغرب وهذا أضمن لقوتهم وسعادتهم؟ فالواقع ان المستقبل هو ابن الحاضر وان ما نتساهل فيه اليوم لن نستطيع تلافيه غداً. اننا لا نريد ان نكرر الاخطاء في المغرب فنحن لا يهمنا رجال الحكم والزعماء التقليديون الموجودون هناك. فالاعتماد على الجيل الجديد، ولا يجوز له ان يساوم على فكرته وعقيدته لانه يبني للمستقبل وعليه اذن ان يبشر بهذه الفكرة: الفكرة الانسانية الحرة الاشتراكية التي لاتبقي أي مجال للاستغلال بين عنصر وآخر وطبقة وأخرى. اذا لم نزرع هذه الفكرة من الآن فسنجد من الصعب جداً زرعها عندما تتحرر البلاد لان التحرر سيرافقه ايضاً يقظة للمصالح الخاصة وحرص من الزعماء على أن يقتطعوا لانفسهم مناطق نفوذ، وهكذا فيجب أن نوجد الخميرة عند الشعب منذ الآن. فعلينا أن نوضحها ونقويها لان لهذه البلاد في شرقها وغربها اسماً واحداً ولغة واحدة وقومية واحدة. انكم ستجدون مقاومة لهذه الفكرة من قبل السياسيين، هذا منتظر ولكن هذا سيقوي فكرتكم وانتشارها وسيضغط على رجال السياسة بالذات ليراقبوا انفسهم ويبدلوا من اتجاهاتهم وارتجالاتهم كما

حدث هنا. فنحن بهذا التيار الشعبي الذي أوجدناه منذ خمسة عشر عاماً حتى الآن اضطررنا الزعماء انفسهم بأن يخففوا من انتهازيتهم فيما يخص مصلحة البلاد وأن يعدلوا من ارتجالهم. انكم بتمسككم بهذا الاتجاه شريطة ان يكون مفهوماً لديكم حق الفهم - إن ما نفهمه بالعروبة، هو هذه الرابطة الانسانية السمحة وهذه الفكرة الواقعية التي تضمن قيام مجتمع عادل - فبعض السياسيين القائلين بعروبة هوجاء متعصبة غامضة ومتسلطة سيضطرون للتراجع عن هذه النظرة الهوجاء وبذلك يخف رد فعل العنصر البربري. وانا لست مؤمناً بأن ما تتصورونه موجود الى هذا الحد. على كل حال مهما يكن من أمر فدعوتكم أنتم من جهة ستعدل كثيراً من النظرة القومية الهوجاء... وهناك فئة اخرى تحمل أفكاراً تتهرب بها من المشكلة فتقول نحن مسلمون ونحن مغاربة الى غير ذلك. . هؤلاء ايضاً نتيجة لدعوتكم سيخرجون من المعركة وهم مؤمنون ولو بمقدار بسيط بهذه الفكرة العربية السمحة وعندها تكون الخميرة وجدت. العهد الاستقلالي لا يكون صحيحاً وغير معرض لهزات ولانقسامات الا اذا طرحت المشكلة على الشكل الذي سردناه سابقاً.

سؤال: ان حزب البعث تجنب الشيوعية لانها ستفقده شخصيته اذا انخرط فيها فالبرابرة يقولون بفكرة تشابه هذا القول ويقولون المغرب كوحدة يحقق الشخصية البربرية لانه ليس كله عربياً ولا بربرياً.

جواب: ليس المقصود بالاحتفاظ بالشخصية التمايز بل المقصود شيء ايجابي، نحن نرفض الاممية الشيوعية لاننا نجد فيها شيئاً سلبياً يحاول محو شخصية الامة العربية. والشيوعيون انفسهم بدأوا يرفضونها عملياً وان كانوا لم يصرحوا بذلك بعد. وروسيا نفسها سائرة في فكرة القومية، وظهر ذلك اثناء الحرب عندما اخذوا يستندون الى بعث الروح القومية حتى ينتصروا.

نحن قلنا في تعريفنا لقوميتنا العربية بأنها ستسمح بالحرية للجميع. فلا شك ان المغرب عندما يكون جزءاً من الوطن العربي الكبير سيكون أمنع استقلالاً وحرية واخصب ازدهاراً مما لو كان وحده معرضاً دوماً للعدوان والمطامع واستغلال الدول القوية الاستعمارية. وأنتم تعرفون ان المعقل الاخير للاستعمار هو افريقيا، والدول

الاستعمارية واميركا خصوصاً تتوجه بنظرها نحو المغرب. والاحتفاظ بنفوذ في المغرب من قبل الدول الكبرى غايته تركيز دعائم الاستعمار في هذه البقعة الباقية من افريقيا. ففي الوقت الذي يثبت فيه الاستعمار شعور الانقسام والفرقة والتمايز والكره للاكثرية نجده نفسه يبث عند عملائه من السياسيين بأن الاكثرية تحاول فرض سلطانها على الاقلية، وبنفس الوقت الذي يغذون الشعور بالاقلية عند البربر يخلقون عند الاكثرية زعماء متعصبين يسلكون سلوكاً يثير نقمة الاقليات. فالقومية المتعصبة هي ايضاً من النتاج الاستعماري في بلادنا والدعوات الطائفية كذلك لتدعيم الاستعمار. فلا الشخصية البربرية يحافظ عليها اذا استقلت لان البربر يصبحون عبيداً للمستعمر ولا يحافظ عليها اذا انعزل المغرب عن المشرق العربي لان المغرب بدون المشرق العربي سيبقى ضعيفاً امام الاستعمار لان اوروبا متسلطة ومشرفة اشرافاً مباشراً عليه.

عام ١٩٥٥

القومية العربية

والنظرية القومية

ان اصطلاح «القومية العربية» في استعماله الشائع اليوم، هو خليط من افكار واتجاهات سياسية وعواطف، ومن رواسب وانحرافات سلبية وايجابية جعلته بعيداً عن المعنى الصادق الخلاق الذي يوحي به، بحيث نرى القومية تارة مرادفة للتعصب والتوسع، وتارة اخرى مقيدة في اغلال من العنصر او الدين او التاريخ، او مساوية للوحدة ورفض التجزئة او لوحدة النضال الشعبي مع ان هذه المعاني كلها، السلبية والايجابية، عارضة متبدلة جزئية، والقومية هي وحدها الخالدة الثابتة الشاملة.

ان القومية العربية لدى البعث، هي واقع بديهي يفرض نفسه، دون حاجة الى نقاش او نضال، اما مجال الاختلاف وضرورة النضال فهما في محتوى هذه القومية، هذا المحتوى المتطور الذي يحتاج في كل مرحلة من مراحله الى نظرية قومية تلائمه. ولهذا لا موجب لأن نناقش في أننا عرب أم لا، ولكن يجب ان نختار وان نحدد مضمون العروبة في المرحلة الحاضرة: أتكون رجعية ام تقدمية؟ أتستقيم مع الاستعمار والاستبداد ام ان شرطها الحرية؟ وهل تبقى مع التجزئة ام ان الوحدة شرط اساسي لها؟

ولذلك فرق الحزب منذ تأسيسه بين «الفكرة العربية»، وعنينا بها القومية العربية، وبين «النظرية القومية»، فقال ان الفكرة العربية هي بديهية خالدة، وهي قدر محبب وانها حب قبل كل شيء، اما النظرية القومية فهي التعبير المتطور عن هذه الفكرة الخالدة حسب الزمان والظروف، وأن هذه النظرية تتمثل اليوم ـ حسب اعتقادنا ـ في الحرية والاشتراكية والوحدة. وبهذا التفريق تتسع القومية العربية لكل هذا الواقع الغني الممتد عبر عصور التاريخ في جميع اقطارنا، فهي تحتضن هذا التاريخ وتتغذى به، وتؤلف من عناصره المختلفة تجربة واحدة موحدة. فهي بذلك الصفة المشتركة التي تجمع عناصر وحقباً تاريخية متعددة تشملها جميعاً، ولا تصطدم بأي

منها .

ولـذلـك نقـول ان القومية العربية هي قومية وعربية ، قومية بمعنى ان فيها الشروط الابتـدائيـة لكـل قوميـة ، وعـربيـة بمعنى ان فيهـا التطـور الخاص بالامة العربية عبر مختلف العناصر والحضارات والازمنة . وان الصفة العربية المشتركة التي وحدت بين هذه العناصر جميعاً هي التي استمرت دون انقطاع ، وكانت اللغة العربية ابرز عنوان لهذا الاستمرار بما تتضمنه اللغة عادة من وحدة في التفكير وفي المبادىء والمثل .

وبهـذا المعنى فقـط ، يأخـذ التـاريـخ قيمة في قوميتنا ، تاريخنا بالدرجة الاولى ، والتاريخ العام بالدرجة الثانية ، فنحن لا ندخل التاريخ في قوميتنا ليكون صورة وقدوة بل لانـه التـربـة الحيـة التي نمـا فيها وعينا وتصحح وتكامل ، حتى بلغ هذه المرحلة الحـاضـرة التي نعبـر فيها عن قوميتنا الايجابية بكليتها ، والتي لا مكان فيها للتمييز او التفوق او السيطرة او العزلة .

وليس المهم ان تكون شتى المعاني السلبية والايجابية ، كالعنصر والدين والتراث التاريخي ، قد أسهمت ، في الماضي ، في صنع هذه القومية وتداخلت فيها . ولكن المهم هو المعنى الذي نستخرجه من كل ذلك في مرحلتنا الحاضرة ، مرحلة انبعاث وخلق المستقبـل العـربي ، المهم ان نعـرف ان هذه القـومية ـ التي وصفناها بالخلود وبأنها تفترق عن المضامين المختلفة التي تعبر بها عن نفسها خلال الزمن وبالتفاعل مع الحوادث والظروف ـ لا يعني الخلود فيها جموداً ، وانما يعني ثباتاً واستمراراً للحد الادنى من المقـومـات تبنى عليهـا وتنسج حولها تعبيرات متنوعة متجددة ، فهي خلق دائم ، ولكنهـا ليست خلقـاً مجـرداً ولا خلقاً من العدم ، بل نابتاً من التجارب الحية ، لان هذا هو الذي يعطيه قوته ويضمن استمرار حيويته وتكامله . ولذلك فنحن نعتبر ان التجربة الحاضرة للامة العربية هي القيمة الاولى والكبرى لهذه القومية ، لأنها أغنى وأثمن من جميع المراحل التي عاشتها أمتنا في الماضي ، وبالتالي فان مجال التجدد والخلق مفتوح امامها الان بكل اتساعه ، لتعطي لقوميتها المعاني الحرة الاصيلة التي توحي بهـا تجـربتهـا الحـاضـرة بكـل عمقهـا وعنفهـا ، وتخلع بالتالي على تجاربها المـاضيـة معنى جديـداً . فهي بهذا المعنى تخلق المستقبل وتخلق الماضي نفسه ،

وهي بالتـالي ـ أي هذه التجـربـة ـ تتـرك في الصف الثـاني اكثـر المعـاني السلبية او الايجابية التي تدخل عادة في بناء القومية، وترفعنا فوق النظرة التاريخية، كما تجنبنا النظرة الاممية المـجردة.

فالعـرب اليـوم لا يريـدون ان تكـون قوميتهم عنصـريـة، وارادتهم هذه نابعـة من تجربتهم، فقد جربوا ما معنى العنصرية، وجربوا ما معنى الظلم.

والعرب اليوم لا يريدون ان تكون قوميتهم دينية، لان الدين له مجال اخر وليس هو الرابط للامة، بل هو على العكس قد يفرق بين القوم الواحد، وقد يورث ـ حتى ولو لم يكن هناك فروق اساسية بين الاديان ـ نظرة متعصبة وغير واقعية.

والعـرب اليـوم لا يريـدون ان تكـون قوميتهم تاريخية. ان القومية العربية لا تنفي التـراث التـاريخي غيـر العـربي، أي هي لا تتعـارض معه، فالامة العربية اليوم وارثة لتـراث حضـاري غني وواسع، يشمل شتى الحضارات التي دخلتها وتفاعلت معها، من مصرية وآشورية وبابلية وفينيقية وغير ذلك. فالقول بالقومية العربية لا يعني مطلقاً ان نتنكـر لتـراث الفـراعنة مثلا او نتبرأ منه، فهذا فهم سطحي ومضلل جداً، وكذلك فان القـوميـة العـربيـة لاتعني الانغـلاق امـام الحضـارة الانسـانيـة، بل هي، على العكس، في تفاعل مستمر معها.

على أن قوميتنـا، برغم هذه المـرونـة وهـذا الشمول، تبقى قومية ذات شخصية، فهي لكي تستـوعب التـراث القـديم العـديـد المتنـوع، ولكي تتفـاعل مع الحضارة الانسانية، يجب ان تكون لها شخصية. فنحن نسمي عرباً هذه المجموعة من البشر التي استلمت من المـاضي تلك المقـومـات والشـروط الابتدائية والضرورية للشعور المشتـرك، وللمصلحـة المشتـركـة، لا لتقف عند هذا الحد، بل كنقطة انطلاق تبدأ منها حياة جديدة تملؤها بكل المثل الانسانية التي توحي بها إو تدفع اليها تجربتها الحاضرة.

والقومية بمفهومها الحديث هي التي ـ بمنعها القفز الى عالمية مائعة ومجردة ـ تقي من الانتكـاس والـرجـوع الى العصبيات الصغيرة، فهي اذن تحفظ شخصية الانسان من التميـع ومن التضـاؤل. ان مفهـومـاً للمـاركسيـة يدعو إلى العالمية ويعتبر القومية

انتكاساً، مع انها في الواقع حركة تقدمية، لأنها حررت الانسان من العصبيات الصغيرة وارتفعت به الى روابط اوسع، لها من نضجها ومن قيامها على اسس انسانية ما يجعلها خيراً من ان تهدم القومية لتدفع الانسان الى العالمية دفعاً مصطنعاً وسطحياً، فيصبح ضائعاً في هذا العالم، ويحتاج الى قوة تجريد جبارة ليحفظ على نفسه ايمانها بصفة «المواطن العالمي» هذه، وهووضع سيعود بالانسان حتماً الى نوع من العصبيات للصغيرة.

ان القومية في مفهومنا، هي محررة من خطر الانغماس والاستسلام لعوامل البيئة والظروف الاجتماعية المحلية، ومحررة ايضاً من خطر الانقلاب من جو الحياة بكاملها، ومن الوقوع في التجريد، ذلك ان في القومية الحد المعقول من التجريد الذي يجعل المصري والسوري واليمني عرباً، وهذا لا يمنع ان يشعر العربي بأنه انسان، وبأن له رسالة مشتركة مع بقية البشر، ولكن ضمن كونه عربياً، فصلته بالآخرين وتعاونه معهم انما يتمان من خلال شخصيته العربية.

وأخيراً، فان قوميتنا لا تزول بارادتنا، ولكنها في الوقت نفسه لا تستمر ولا تتحقق تحققاً كاملاً بدون هذه الارادة، أي ان فيها امكانيات التفسخ والتناثر، كما أن فيها امكانيات الوحدة والانسجام والنضج. فالقومية العربية ليست مرحلة نضال مشترك، او شعاراً لهذه المرحلة تنتهي بانتهاء النضال اوبانتهاء دواعيه، ليعود كل قطر بعد ذلك الى شخصيته الخاصة. ان البعض ينظر الى نجاح النضال كنهاية للقومية العربية ولمبررات وجودها، اما نحن فنجد نهايتها في فشل هذا النضال، اذا كانت لها نهاية، والاصح ان نقول: ان في هذا الفشل انتكاساً وتقهقراً لها، وما دمنا نؤمن بأن الاقطار العربية هي في حالة ثورة وتقدم وتفتح، فنضالها متزايد، ووضوح شخصيتها العربية الموحدة متزايد ايضاً بنسبة نجاح نضالها. ان النضال المشترك هو اليوم في الواقع الشعار للقومية العربية المتفتحة المنبعثة من جديد، فهي التي خلقت هذا النضال، وهي التي تغذيه.

القاهرة، عام ١٩٥٧

معالم القومية التقدمية

ايها الاخوة الاحباء[1]

يصعب علي ان اصف لكم فرحتي بزيارة هذا البلد العظيم الذي رأيت فيه من علائم النهضة والتحفز ما يبعث الامل، ويبشر بمستقبل عظيم لهذا القطر وللوطن العربي الكبير.

اسمحوا لي ايها الاخوة، ان احدثكم قليلاً عن تجربة اخوتكم في المشرق العربي، عن تجربة جيل بدأ نشاطه وتحمل المسؤوليات القومية منذ الحرب العالمية الاخيرة واوجد تياراً فكرياً شعبياً عظيماً، جيل ساهم في النضال في اقطار المشرق، وساهم إلى حد غير قليل في صنع الاحداث في هذه السنين. وقد جاءت الاحداث مصداقة لنظرته في جملتها وأن كان الواقع احياناً يظهر بعض الاخطاء في التفصيل، هذه الحركة التي اريد ان احدثكم عنها والتي قد تكونون سمعتم بها هي حركة قومية عربية تنادي بأمة عربية واحدة وتؤمن بأن العرب لا بد ان يتوحدوا في وطن واحد، وتؤمن بأن للامة العربية رسالة في هذه الحياة تؤديها للانسانية كما سبق لها في ماضيها العريق ان فعلت. هذه الحركة تنظر الى القومية العربية نظرة جديدة مستوحاة من روح العصر وحاجات الامة وماضيها الاصيل.

فأثناء الحرب العالمية الاخيرة وجد العرب انفسهم حائرين وسط دول كبرى تستعمر اجزاء وطنهم وتنتقص من سيادتهم وتقول بمذاهب اجتماعية واقتصادية، بينما كان النضال العربي دون مستوى التفكير بالمذاهب، ودون مستوى الشمول. فقد كان محصوراً لا في النطاق العربي فحسب، بل في نطاق القطر الواحد، في النطاق الاقليمي. ولقد كان النضال مقتصراً على مكافحة الاجنبي دون ان تكون له مادة ايجابية يستند اليها لبناء المستقبل بعد التحرر. وكانت جماهير الشعب لا تتحمس الحماس الكافي، ولا تضع جميع امكانات النضال في المعركة، لان قيادة

---

١ ـ حديث القي في الرباط اثناء زيارة ميشيل عفلق للمغرب لحضور احتفالات العمال بذكرى اول آيار.

هذا النضـــال لـم تكن شعبيـــة ولـم تأخـــذ بعين الاعتبـــار مصلحـة الشعب ومطـالبـه الاجتمـاعيـة، فكـان يسـود العـلاقـة بين الجمـاهير والزعماء فتور وشك . . شك في المقاصد وشك في الكفاءة والجدارة.

في تلك الظـروف كان الجيـل العربي الشاب الواعي مطالباً بأن يخرج قضية أمته من ذلـك التبعثـر والفراغ وان ينقلها إلى صميم الواقع الحار ليلهب حماس الجماهير ويربط بين مصلحتها ومصلحة الوطن، وليرتفع بنضاله الى ما يتناسب مع روح العصر وليرتفع بالروح القومية الى الجو العالي الذي يتكافأ مع ماضي أمة عظيمة كالامة العربية.

في ذلك الحين كان الشيوعيون العرب ينشرون بين الشباب افكاراً تنادي بالاممية وتنكـر قيمـة القـوميـة، اوتدعي بأن القـومية مرحلة مؤقتة كمرحلة دنيا لا بد ان ترتقي فوقهـا المجتمعـات لتصـل الى الاممـيـة، وان القـوميـة مرحلة رجعيـة وانهـا مشـوبة بالتعصب وان وراءها المصالح البورجوازية والرأسمالية، وانها تدفع إلى التوسع وإلى الحروب فكانت هذه الاوصاف التي تصح على القومية في أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين، تناقض حالة قومية كقوميتنا مظلومة خاضعة لعدوان اجنبي ليس فيها الا الحرص على مقومات الامة والا الحب للشعب ولجميع الشعوب. فكان يصعب علينـا ان نصـدق بأن القـومية هي ضد الانسانية طالما اننا نشعر ان كفاحنا القومي في سبيـل الاستقـلال كان بدافـع انسـاني. لقـد كنا نشعر ان كفاحنا القومي كان بدوافع انســانيـة خيرة لذلك بدأت الفكرة الجديدة تتبلور واخذنا نفرق ما بين النظرية القومية الـرائجـة في الغـرب، والتي ثارت عليهـا التقـدمية الاشتراكية، وبين قومية الشعوب المغلوبـة في آسيـا وافـريقيـا ومنهـا القومية العربية التي تحمل في طياتها بذور الخير والانبعاث للقيم الانسانية.

وكـان ثمـة مفهـوم آخـر رائـج، مفهـوم مجـرد مستعار هو أيضا من الخارج يحصر القـوميـة في اتفـاق المصلحـة وفي الـذكريات الماضية والآلام والآمال . . فكان هذا جوابـاً جافـاً لا يروي ظمأ الشعب العـربي إلى ما يحـرك فيـه طاقـات دفينة، فكانت الخطوط التي رسمناها لقوميتنا العربية لا تكتفي بالروابط الحقوقية بين الافراد، وانما

تجعل في وجود الامة رسالة تاريخية وأمانة في عنقها تحيا حياتها وتجربتها بصدق وتخلص للقيم والعقل وتقدم للانسانية خير ماعندها. وهذا ماجعلنا نرجع إلى تراثنا الحضاري التاريخي وننظر اليه نظرة جديدة. . ففي حياة العرب تجربة ضخمة ورسالة سامية.

وكان التفكير السطحي قبل ظهور حركتنا يوحي او يوهم بوجود التضاد بين القومية وبين هذا التراث الروحي بحجة الحرص على العلمانية، ولكن وجدنا ان لا تعارض بين العلمانية وبين الاعتراف بما يغذي روح حضارتنا من تجارب ماضي شعبنا الغنية. فكانت هذه النظرة الجديدة إلى تراثنا القومي نظرة حية واقعية عميقة ارجعت إلى نفوس الشباب الاستقرار الذي فقدوه زمناً، وصالحتهم مع ماضي امتهم دون ان تجمدهم في هذا الماضي.

ايها الاخوة،

الفكر في حد ذاته قوة تاريخية، قوة ثورية لا تقدر. فمجرد وضع القضية العربية القومية في صيغة فكرية شاملة كان اول مساهمة في تركيز الحركة الثورية العربية على اسس صلبة، اذ ان هذه الصيغة الفكرية هي التي جاءت تلبية لحاجة الشباب العربي في كل قطر لكي يرى ماتعني قضية امته واين هو موضعها بين قضايا العالم، فكانت هذه المحاولة التي لا شك انها تحتاج إلى مزيد من الجهود الا انها استطاعت ان تسد فراغاً في حياة الشعب العربي في عدد من اقطاره. والقومية التي كان الاقطاعيون قبل عشرين اوثلاثين سنة يتلفظون بها دون المام شامل، ودون معنى الا الرد على الاجنبي ليعينوا الاسم والهوية بأننا عرب لا اكثر، هذا التعريف الفارغ كان لا بد ان يأخذ معنى حياً مستمداً من الواقع فقلنا بأن القومية العربية تساوي وتعادل حياة الجماهير ومصلحة الجماهير وقضية الجماهير.

انها ليست عنواناً فحسب وليست ترفاً يدعيه ويزدان به الوجهاء والزعماء. انها من صميم الآلام، الآلام المادية والمعنوية، آلام الشعب المستغل وآلام الشعب المقهور في سيادته، وهكذا اتخذت القومية العربية مضموناً واقعياً ثورياً عندما حددت بأنها الوحدة والحرية والاشتراكية العربية: الحرية في الخارج امام الاجنبي

المستعمر والحرية في الداخل امام الحكم الاستبدادي . . والاشتراكية للشعب كله، اشتـراكيـة مستقلة لا تتبع مذهباً معيناً ولا تكون اداة للتعصب المذهبي والتنازع وانما تستفيد من جميع النظريات والتجارب التي تمر بها الشعوب وتحرص على ان تتلاءم مع روح الامـة ومـع ظروفهـا وحـاجـاتهـا. هذه هي الاشتراكية العربية. . . والوحدة العـربيـة هي أيضـاً مفهـوم ثوري لانهـا كانت دومـاً موضع العدوان والتآمر من الدول الاستعمارية ومن الطبقة الرجعية ومن الصهيونية العالمية فكانت هي الضحية في كل حين، لانهـا سر انبعـاث العـرب وقوة العرب. لذلك كانت تتكالب عليها المؤامرات فكان لا بد ان نفضح كل هذا وان نظهر بالدليل الواضح كيف ان الوحدة التي طالما تشدق الزعماء بها وادعتها الحكومات لا يخلص لها ولا تقصد لذاتها وانما هناك تآمر عليهـا، وحـرص على الاقليميـة والتواطؤ مع الاستعمار في بعض الاحيان: حتى أن الجـامعـة العربية بدت لنا عند نشوئها وكأن القصد منها تخدير الحاجة الى الوحدة لا تلبيـة هذه الحـاجـة. فبينـا حيوية الحاجة إلى الوحدة وبينا ان الوحدة هي شرط لازم للنضـال الشعبي التحـرري ضد الاستعمـار وضد الاستغلال، وأنه بدون وحدة يبقى الاستعمار يتلاعب بمصيرنا ويغري قطراً باستغلال محن قطر آخر وتبقى قضية الوحدة موضع شك. فثورة الوحدة ان لم يتبنها الشباب العربي الثوري ويخلقوا فكرتها خلقاً وينمّـوا وعيهـا ويخلصـوا لنضـالهـا فانها ستبقى مادة للتضليل، وبالتالي لن ينجح لا النضـال التحـرري ولا الاشتراكي مادام الشعب الواحد مجزأ، يقوم التنافر والتعاكس أحياناً بين نضال اقطاره بدلاً من التنسيق والتوحيد. فالذي يخلق الوحدة هو الشعب المستغـل، الشعب الــذي يحتـاج إلى وحـدة النضـال لكي يضمن الخـلاص من الاستغلال وفي الوقت نفسه يكون قد وحد اجزاء وطنه الممزق.

ونظرتنا هذه إلى الوحدة تختلف ايضاً عن المفهوم القديم التقليدي الذي يقول: ان الـوحـدة هي رجـوع إلى الحـالـة الطبيعيـة، رجـوع إلى ما كانت عليـه الامة قبل التجزئة، لان هذا كلام ليس فيه جد ولا اخلاص، فالوحدة لا يمكن أن تكون رجوعاً إلى الوراء. انها الوحدة الثورية في هذا العصر، وحدة تنهض على اكتاف الجماهير وتمتزج بالنضال الاشتراكي، بل يمتزج نضالها بتجربة الامة كلها في هذه المرحلة،

وهذه التجربة الانسانية العميقة لا يمكن ان تكون عملية آلية وانما عملية خلق جديد للامة، وهذا يجب ان يكون واضحاً. فالتاريخ لا يرجع إلى الوراء والامة الحية تجدد نفسها باستمرار لذلك لاتبتعد الوحدة عن المثل التي تدين بها قوميتنا. ليست الوحدة مجرد جمع ووصل وعملية مادية، الوحدة هي صهر جديد من خلال التجربة الجديدة للعرب. يجب ان تكون الوحدة شفافة ترتسم عليها مثلنا ومبادئنا في الحياة والمجتمع، هذه وحدتنا التي تستطيع ان تحمس جماهير الشعب، وان تدفعها الى التضحية. وفي هذه النظرة الجديدة نظرة الى الانسان أي نظرة إلى اخلاقية العمل وربط الوسيلة بالغاية.

لقد كانت السياسة قبل ذلك اسلوباً واقعياً رخيصاً فقلنا بأن الأمة في مرحلة الانبعاث لا تستطيع ان تحرك فيها القوى الكامنة والتحفز للثورة والنضال وان تخلق وان تبدع اذا لم تكن منسجمة مع نفسها، مع مثلها وتاريخها، اذا لم تكن تطبقها في عملها. . وان الوسيلة لا يمكن ان تنفصل عن الغاية. ان الثورات والنهضات انما تعمل لخلق انسان جديد مستقل الشخصية حر في التفكير قادر على الانتاج والابداع وتحمل المسؤولية، فلا يمكن ان تطبق الميكيافيلية التي تعتمد على الكذب ولا تقيم وزنا للاخلاق.

لذلك كان لابد ان ننظر الى ما حولنا في العالم وان نعين موضعنا من العالم، ولقد كان الصراع بادئاً بين المعسكرين فقلنا بالحياد عقب الحرب العالمية، وكانت حركتنا اول من نادى بالحياد وربطته بفلسفتها، فلسفة القومية، التي ترفض النظام الرأسمالي والديمقراطية الغربية التي أنجبت الرأسمالية وترفض الشيوعية كنظام، وتترك المجال حراً لظهور الثورة الحقيقية التي لا تعسف فيها ولا اصطناع، والتي تنسجم فيها الوسيلة مع الغاية، اذ ان الشيوعية لم تستطع ان تحافظ على حرية الانسان وهي التي باستخفافها بالحرية قد حولت الغاية إلى وسيلة وفقدت الشيء الكثير مما كانت ترمي اليه من انقاذ للانسان من الظلم، فكانت صيغة القومية الجديدة انها لا تفرط بحرية الانسان وانها تغذي انسانية الانسان وانها ثورية تنشد الثورة لنفسها وللعالم، ولكن لا تضحي بالمثل من اجل ثورة مادية فحسب.

لقد أقاموا تناقضاً بين القومية والانسانية كما تعرفون، وهذا كان في نظرنا شيئاً مصطنعاً فلم نصدق ان القومية مرحلة، لاننا حتى الآن لم نر ان القومية كانت مرحلة لشيء فوقها، وانما الصحيح ان بين القومية والانسانية انسجاماً اذا فهمنا القومية فهما صحيحاً، والصحيح ان نقول ان ثمة، قومية انسانية.

القومية التي تخرج من تجربة الشعوب التي عانت الظلم وعانت الاستعمار وتحررت دون ان يستنفد الحقد ألمها وتجربتها، اي التي عانت تجربة الظلم والتأخر وتطالب بتجربة ايجابية متفائلة، هذه القومية هي التي تطبق القيم الانسانية في حدودها. فالقومية هي المسرح الواقعي لتحقق الانسانية، والانسانية التي تقفز من فوق القومية وتكون خيالية لا تجد ارضاً تستقر عليها فهي تكون في الذهن اكثر منها في الواقع، وكثيراً ما توصل الى العصبيات الضيقة وإلى الاقليمية. فالقومية الانسانية اذن هي تطبيق لنظرية في القومية عامة. اننا نؤمن بأن القومية للبشر عامة هي حالة سوية وحالة ثابتة غير مؤقتة اذا أحسن فهمها واذا خلصت من التعصب وشوائب الطمع، والتوسع.

يحق لنا ان نتساءل ماذا استطاعت القومية العربية بمفهومها الحديث ان تحقق حتى الآن، وما هو المأمول منها؟ انها قطعت أشواطاً في سبيل التحرر القومي وتوطيد الاستقلال، كما أنها قطعت أشواطاً في سبيل التقدم الاقتصادي والاجتماعي، وقطعت خطوة اولى بقيام الجمهورية العربية المتحدة. ومهما وصفنا أثر هذه الخطوة الاولى نكون مقصرين عن وصف الواقع والحقيقة.. لان المؤامرات العديدة على الوحدة التي كانت تأتي من الاجنبي والرجعية جعلت في اعتقاد العرب جميعاً ان الوطن العربي الموحد خيال غير قابل للتحقيق وانه عندما تتهيأ كل الظروف وتتوافر الرغبة الصادقة كان العرب يجدون ان عملية الوحدة تبتعد حتى كاد الشك يتطرق الى النفوس.. ولا شك ان الاستعمار والصهيونية كان لهما يد كبيرة في اشاعة هذا الشك، لذلك كان مطلوباً من الجيل العربي الثوري أن يضع حداً لهذه الشكوك وان يضحي وان يعطي برهاناً على قابلية الوحدة للتحقق. هذا ما يفسر الجهود والتضحيات الكبيرة التي بذلت حتى تحققت هذه الخطوة المباركة التي يفديها

العرب في كل مكان.

ولئن وقعت أخطاء، فالوحدة هي اعمق من كل شيء وهي قادرة على أن تصحح الاخطاء، وما هذا الاصرار والاستعجال في تحقيق خطوة عملية نحو الوحدة الا دليل على حاجة الامة الى أن تشق طريق الوحدة لانه طريق القوة. والوحدة مازالت تحتاج إلى جيل يؤمن بها، يناضل من أجلها، يتابع رسالتها على الاسس الصحيحة، على المبادىء الديمقراطية والاشتراكية لكي يجد فيها الشعب مايطمح اليه. ولكي تكون وحدة متينة الاسس غير معرضة لأية انتكاسة. . مازالت تحتاج إلى جيل يؤمن بها مناضل، يخلق وعيها وينمي نضالها ويكافح عقلية التجزئة ورواسبها والمصالح الآنية للتجزئة. ولا يقال بأن في الوحدة اعباء كثيرة لان فيها مقابل الاعباء فوائد وقوة؟ اذا حرصنا على أن تكون هي الوحدة الثورية، وحدة جماهير الشعب لا وحدة طبقة اقطاعية، وعندما يسعى هذا الجيل ويتابع نضاله من أجلها وينشره في كل قطر فلا شك انها ستصبح بدون أخطاء وتبعد عنها الاخطار وتزال عنها الشبهات، فالوحدة ليست ترفاً للعرب، فلا يمكن ان يصل القطر الواحد إلى استقرار وإلى تقدم ملموس واستقلال متين ما دامت أقطارنا متفرقة، وما دام الاستعمار يستطيع ان يلعب بنا ويستغل فرقتنا. فالوحدة ضرورة حيوية قاهرة، ولو لاها ولو لا اهميتها لما تكاتف الاستعمار العالمي والصهيونية العالمية وخلقوا عقبة كبيرة في طريقها هي اسرائيل.

ان السبيل إلى جعل الوحدة وحدة شعبية اشتراكية ديمقراطية هو الايمان بها وتبنيها والعمل لها، لا الخوف منها وتركها للصدف والظروف، لان الظروف قد لا تكون ملائمة طالما ان لها في العالم اعداء وهذه هي الامانة الموضوعة في اعناق الجيل العربي الجديد خاصة في المغرب العربي بعد أن قطع المشرق العربي شوطاً في هذا السبيل، فالمطلوب من جيل الشباب المناضل في المغرب ان يتابع الرسالة لكي يلتقي شطرا الوطن العربي ولكي نتفادى تبلور التجزئة في اقليميات مصطنعة.

ولا يتم لنا بعث عربي حقيقي اذا لم تتوحد جميع أقطارنا، ويأتي كل قطر بمساهمته وتجربته ليكمل تجربة الاقطار الاخرى، حتى تأتي التجربة العربية متحدة الجوانب، مكتملة المعاني.

وقـد قلت أكثـر من مرة بأن المغـرب العـربي قد عانى في هذا العصـر تجـربة من اعمق التجارب، تجربة لم يبلغها عرب المشرق، هذه التجربة القاسية الثمينة التي صمـد لهـا شعبنـا في المغرب وخرج منها ظافراً مدللاً على حيويته وخرج منها مطهراً من كثيـر من الاخطـاء في المفـاهيم والتقـاليـد، ينظر إلى الحياة نظرة جديدة بعد أن عايش الحضارة الحديثة جنباً إلى جنب. فتجربة المغرب العربي هي شيء اساسي في البعث العربي الحديث.

وهـذا مايجعـل للوحـدة العـربية قيمة خاصة ومسؤولية خاصة عند شباب المغرب لكي تأتي نهضتنـا مكتملة الجـوانب ولكي نعود مرة آخرى نقدم نصيبنا من الخير الى الانسانية جمعاء.

عام ١٩٦٠

الباب السادس

حَول وَحدَة النِضال العَربي



لاينتظرّن العرب ظهور المعجزة
فلسطين لاتنقذها الحكومات بل العمل الشعبي

ليس بين العرب من يجهل ان قضية فلسطين هي اليوم أخطر مشكلة في حياتهم القومية. ولكن ما يجهله أكثر العرب هو أن الطريقة التي تعالج بها هذه القضية بعيدة كل البعد عن الصواب والنزاهة. فاذا عرفنا ان للصهيونية والدول التي تناصرها عقلية سياسية في غاية النضج والحنكة، وأساليب في التضليل والاغراء لايقيدها شرف، ولا يردعها ضمير، استطعنا من جهة ان نقدر درجة الخطر الذي ينتج عن الاستمرار في تلك الطريقة السطحية في المعالجة، وان نسيء الظن من جهة أخرى في قصد الكثيرين من سالكيها ومروجي أساليبها.

ويمكن تلخيص هذه الطريقة في ناحيتين بارزتين: الاولى هي تحويل مشكلة فلسطين الى وجهة عاطفية عقيمة، بأن لا نرى فيها الا صورة لغدر الدول الغربية بنا ورجوعها عما قطعته لنا من عهود وخيانتها لما تدعيه وتتذرع به من مبادىء، فنقصر كلامنا على فضح هذه النوايا المفضوحة، واقتحام هذه الأبواب المفتوحة، وندعو الى الحذر من هذه الدول الماكرة، شعباً، لم يكن في يوم من الايام الا حذراً منها، مرتاباً فيها، ونشجعه على الوقوف موقف المتشائم اليائس الذي لايرى حوله إلا المؤامرات، ولا يبصر أمامه إلا تكتل قوى باغية طاغية لاقبل له بدفعها، فكأن الشعب الحي لا يفرض فيه أن يحسب لغدر الاعداء ومؤامراتهم حساباً.. وكأن واجبنا لم يكن دوماً أن نصون حقوقنا ونكسب قضيتنا بالرغم مما يقع عليها من اعتداء ويدبر لها من مكائد.

أما الناحية الثانية، فهي أن نسرف في الاطمئنان والتفاؤل بعد اسرافنا في الارتياب والتشاؤم، فنعتمد على خطب الزعماء وتصريحات الوزراء ووعود رؤساء الدول العربية، مع معرفتنا بوسائل هؤلاء السياسيين وامكانياتهم، وبالحد الذي تقف عنده جرأتهم وتضحيتهم، والسهولة التي يتملصون بها من تصريحاتهم هذه او يناقضونها. وهكذا نرى الخطر محدقاً بنا ثم نرجىء الاستعداد له ونعلل النفس بالوهم. لأن زعيماً هدد وعظيماً وعد! منتظرين أن تظهر المعجزة التي لانرى دليلاً واحداً ينبىء

بظهورها، مضحين بالعقل على مذبح السحر! .

لنقف بجرأة ورجولة أمام الحقائق التالية:

ان تكن الصهيونية بالنسبة الى بلادنا حركة عدوان، فإنها بالنسبة الى أصحابها حركة إيمان. وان يكن وراء الصهيونية رأسماليون يغذونها ويستغلونها ودول استعمارية تجد في مؤازرتها ربحاً لها، وتثبيتاً لاستعمارها في بلاد العرب فذلك لايمنع الصهيونية ان تكون في صميمها حركة شعبية وان تحصل على التأييد الفعال من جميع يهود العالم!

ونرى أيضاً ان الدول الغربية التي تناصر الصهيونية لاتفعل ذلك مختارة بل مكرهة بدافع المصلحة لأنها تجد في مناصرتها من الربح أكثر مما تلاقي في معاداة العرب من الخسارة. وأخيراً فإن واقع اليهود القوي الراقي يجعل من باطلهم في نظر الغربيين حقاً، في حين ان واقع العرب الضعيف المتأخر يكاد يحجب حقهم، او على الأقل يضع هذا الحق مع باطل اليهود في مستوى واحد. فاذا وجب ان نصر على اعتبار الصهيونية بغياً وعدواناً وان نفضح أمام العالم هذا العدوان فيجب أيضاً ان لا نغفل ما يكمن وراءه من عقيدة متينة توحي الى الشعب اليهودي بالتضحية والاقدام وإلى زعماء اليهود بالتجرد والصلابة، وتطبع الحركة كلها بطابع القوة والجد والاحكام.

فالخطر الصهيوني ليس اذن مجرد غزو اقتصادي يحركه المال والطمع المادي وانما هو بالدرجة الاولى غزو ديني لايشبهه في التاريخ الا الحروب الصليبية! ولا يقوى على دفعه الا يقظة الايمان في نفوس العرب، وتجسد هذا الايمان بشكل عملي فعال. لذلك كان الاتكال على السياسة بحساباتها ومماطلاتها أكبر مخدر لروح النضال في الشعب وأكثف ستار يحجب عن العرب رؤية الخطر الذي يهددهم. فكما ان السر في نجاح الحركة الصهيونية هو كونها حركة شعبية، كذلك لاتحبط مساعي هذه الحركة الاجرامية الا متى أصبحت مقاومة العرب لها شعبية حقة. واذا كان اليهود وهم المشردون في الأفاق، الذين ليس لهم أرض تجمعهم ولا دولة تمثلهم، قد استطاعوا ان ينظموا أنفسهم بشكل نادر التوحيد وان يسخّروا لأغراضهم دولاً كبرى برمتها فهل يعجز العرب وهم شعب واحد يسكن أرضاً واحدة، عن ان يحققوا مثل تلك الوحدة في تنظيمهم وان ينقذوا قضيتهم من استغلال حكوماتهم وطبقاتهم المتزعمة، اذا لم يقدروا

على توجيه هذه الحكومات والزعامات في الطريق التي تنفع القضية القومية؟ .

ان العرب يعانون مشكلة أساسية واحدة هي استسلامهم لطبقة اجتماعية تقوم على الاستثمار والاستئثار، وهذا الوضع يشكل ضعفهم الداخلي والخارجي لأنه يخنق معظم قواهم وامكانياتهم في الداخل ويظهرهم أمام العالم بمظهر الشعب المتأخر.

ولئن كان الظرف الآن لايحتمل الانتظار لكي تعالج المشكلة من أساسها ولا يتسع للانشقاق والانقسام، فيبقى أمام العرب واجب عاجل لانقاذ فلسطين، هو ان يتركوا الحكومات وشأنها ويودعوا آخر أمل لهم في نجوع السياسة الرسمية فيلتفتوا الى العمل الشعبي ويصبوا فيه كل جهودهم.

أما الحكومات العربية وجامعتها فيبقى أمامها سبيل واحد لكي تبرهن على انها لم توجد لخدمة الاجنبي والعمل بوحيه، هو ان لاتضع العقبات والعراقيل في وجه الشعب المتعطش للجهاد!

٦ آب ١٩٤٦

وحدة النضال ووحدة المصير

بعد نكبة فلسطين التاريخية[١] تأتي حوادث المغرب العربي واهمال بقية الاقطار العربية لهذا الشطر الكبير من وطننا، ومساومة حكومات بعض هذه الاقطار على نضاله، دليلا جديدا على الحدة التي بلغها تناقض أوضاعنا القومية. لقد صمد المغرب مدة قرن وأكثر لاشد أنواع الاستعمار هولاً ووحشية، الاستعمار الفرنسي الغاشم الذي كانت خطته ابادة العرب في الشمال الافريقي والحاق هذه البقعة العربية الغالية بالارض الفرنسية. وكان المغرب طوال تلك الحقبة يكافح وحيدا أعزل، لا يدري به العالم، ولا يستطيع عرب المشرق الخاضعون مثله لنير الاستعمار أن يمدوه بأي عون. وفي السنوات الاخيرة، استأنف المغرب معارك حريته مؤملا في عون الجامعة العربية ودولها المستقلة، الا انه لم يلق غير الوعود والجحود. ان الشعب العربي مؤمن بوحدة مصيره وبضرورة توحيد نضاله كشرط أساسي لتوحيد أقطاره في المستقبل القريب. فما هي العوامل والاسباب التي تؤدي الى تشويه ارادته على هذا الشكل الذي نرى فتجعل جهوده تتبعثر بدلا من ان تتوحد، وقواه تتناحر بدلا من ان تنسجم؟ ذلك ان وحدة النضال التي نحاول تحقيقها عبثا، لا تكون ممكنة الا بنضال الوحدة أي بتكوين عقيدة واضحة عن الوحدة العربية تصبح الموجه الاول لتفكيرنا، والناظم الرئيسي لكل ناحية من نواحي نضالنا.

يحسب الكثيرون أن فكرة الوحدة العربية فكرة بديهية قد تتهيأ كل الشروط في مجتمعنا لانتشارها ونجاحها، والواقع انها أقل الافكار وضوحا وأكثرها صعوبة وان كل شيء في واقعنا يعاكسها. فواقعنا المتأخر المتردي قائم على احدى الدعائم الكبرى للتأخر والتردي، الا وهي التجزئة، يفكر بعقلية التجزئة ويعمل بدوافعها حتى عندما يفكر بالوحدة ويعمل لها. وليس أشد الافكار خطرا على الوحدة العربية هي الافكار الاقليمية والشعوبية الصريحة المفضوحة، وانما هي الافكار التي يروجها دعاة

---

(١) خطاب القي في مهرجان يوم الجزائر في مقهى الرشيد، دمشق.

الوحدة الرائجة، أي «وحدويو التجزئة».

فكرة الوحدة العربية هي الفكرة الانقلابية بالمعنى الصحيح، لا يدانيها في انقلابيتها التحرر من الاستعمار على ما فيه من جدية وقسوة، ولا التحرر الاجتماعي الاشتراكي الذي يصدم في المجتمع أضخم المصالح وأقوى العادات والنظم. ذلك ان التحرر الخارجي يستفيد من عاطفة الشعب السلبية المباشرة، والتحرر الاجتماعي يعتمد على مصلحة الشعب المادية المباشرة، وكلا التحررين الخارجي والاجتماعي يلتقيان باتجاه هذا العصر السائر في طريق تصفية الاستعمار والاستثمار الطبقي. في حين أن فكرة الوحدة لا تحمل في طياتها أي معنى من معاني السلبية، ولا تتراءى فيها المصلحة المادية الا جزئية آجلة غير مباشرة، فهي ايجابية كلها، وروحية قبل أن تكون مادية، وارادية أكثر منها عفوية، تغالب السهولة والمصالح الأنيّة، وتخاطب العقل والايمان العميق وتطلب التضحية بالحاضر في سبيل المستقبل، وتقتضي تهيئة جدية، وتربية جديدة.

يعتبر وحدويو التجزئة الوحدة شيئا آليا يبلغ بالتوحيد السياسي عندما تتهيأ الظروف وتسنح الفرص، وانها لاتحتاج إلى تهيئة سابقة اللهم الا التهيئة السياسية بالمفاوضات والمناورات. واما التهيئة الفكرية فلا تعدو أن تكون - في أحسن الاحتمالات - تبشيرا عاما بالوحدة يتسع لشتى الارتجالات والتناقضات. وفي حين تمسي الوحدة في نظر هؤلاء هذا الشيء الآلي السطحي المشوش الذي تعوزه الجدية ويأتي في أدنى درجة من درجات الاهمية بالنسبة إلى المشاغل القطرية التي تستأثر عمليا باهتمامهم كله، فان الوحدة في نظرنا فكرة أساسية لها نظريتها كما للحرية والاشتراكية نظريتهما، ولها مثلهما نضالها المبدئي اليومي المنظم المستمر، ومراحلها العملية التي تزيد في قوة النضال وتمهد الطريق للنصر الاخير.

جميع الاحزاب العربية تقول بالوحدة العربية، وكذلك الحكومات، ومع ذلك فان هذه الاحزاب المتماثلة الهدف لا تلتقي ولا تتعاون، اما الحكومات فانما تلتقي لكي تتخاصم. ذلك لان الاحزاب والحكومات تعتبر الوحدة العربية محصلة ونتيجة لنضال كل قطر من أجل حريته ونهضته، في حين أن العكس هو الصحيح. فحرية

كل قطر عربي ونهضته هما محصلة ونتيجة لنضاله من أجل الوحدة. فالايمان بالوحدة والنضال في سبيلها هما اللذان، بتوجيههما نضال القطر وجهوده الوجهة الصحيحة، أي بتذكير القطر باستمرار انه جزء من كل، لا كل قائم بذاته، يجعلان من حرية القطر حرية سليمة أي خطوة ووسيلة الى حرية مجموع الامة، لا انفصالا وعقبة في طريق هذه الحرية الشاملة، ويرسمان لنهضة القطر ملامحها وحدودها لتكون تهيئة وتمهيدا للنهضة العربية العامة دون تبذير او تصادم في الجهود والمصالح.

ان اهداف العرب الكبرى «الحرية والاشتراكية والوحدة» تشكل كلا لايتجزأ ولا يجوز فصل بعضها او تأجيله عن بعضها الآخر. وهذا يكفي للقول بأننا نفهم من الوحدة العربية غير ما ينشده بعض العاطفيين الخياليين الذين يعتقدون بامكان توحيد العرب في ظل السيطرة الاجنبية، أو بعض النفعيين واصحاب المصالح الكبرى الذين يأملون من وراء التوحيد تدعيماً للحكم الرجعي الذي يستطيع ان يحمي مصالحهم من ثورة الجماهير.

وتبعاً لهذا المنطق نفسه ـ منطق وحدة الاهداف القومية وتداخلها ـ فان ارتيابنا بأولئك الذين يحسبون أن شيئاً جدياً صادقاً من الحرية والاشتراكية يمكن أن يتحقق في نطاق القطر الواحد ليس اقل من ارتيابنا بدعاة الوحدة الخياليين او النفعيين. انها دعوة مشبوهة تلك التي تحاول ان تسبغ على الاستقلال القطري، صفات الاستقلال التام الكامل، لتجعل منه مرادفا للانفصال وعقبة في طريق الوحدة القومية. وهي نظرة ضالة سطحية تلك التي تسمي الاصلاحات الجزئية التي تحققها بعض الاقطار ثورة وانقلاباً، في حين انه لا ثورة جدية الا في نطاق الامة العربية الواحدة.

ان الحرية التي يطالب بها حزب مصري او عراقي، والاشتراكية التي يعمل لها حزب سوري او لبناني هما غير الحرية والاشتراكية التي تحتاجها وتقدر على تحقيقها الامة العربية كأمة ذات تراث حضاري واستعدادات وامكانيات لنهضة جديدة أصيلة. فالحرية التي يسعى اليها كل قطر عربي على حدة لايمكن ان تبلغ من العمق والشمول والمعنى الايجابي ما تبلغه الحرية التي تنزع اليها الامة العربية

عندما تضع مصيرها ومصير الانسانية موضع التساؤل، كما ان الاشتراكية التي تتقلص وتتشوه في حدود القطر الواحد، حتى تقتصر على اصلاحات جزئية خادعة، تأخذ كل مداها النظري والتطبيقي عندما يكون مجالها الوطن العربي كوحدة اقتصادية وكوحدة شعبية نضالية.

ان امكانيات الامة الواحدة ليست مجموعاً عددياً لامكانيات أجزائها في حالة الانفصال، بل هي اكثر في الكم، ومختلفة في النوع. فالتراث العربي القديم لووقع على كاهل قطر بمفرده، اما ان يقف منه هذا القطر موقفاً ايجابياً فينوء تحت عبئه ولا يخرج منه بغير الغرور والابهام، واما ان يقف منه موقفاً سلبياً فيتنكر له ويحرم من فوائده ومن كل صلة حية بماضيه فنفسية التجزئة هي التي تفسر إلى حد بعيد ليس فوضى الاتجاهات المتنافرة المتناقضة فحسب، بل ايضاً سلبية هذه الاتجاهات وعجزها عن كل بناء. هي نفسية الفرار والعجز، فرار إلى التوسع الوهمي (كالاممية الشيوعية والدينية) او التقلص الصنعي (الاقليمية السورية واللبنانية والمصرية). كأن ربط العرب بعجلة عالم أوسع من عالمهم يغنيهم عن التحرك الذاتي او كأن الجهد الروحي الذي يبذل لبعث الحياة في قسم منهم لايكفي لبعثهم جميعا. أما نفسية الوحدة فهي التي تحمل مسؤولية التراث السلبي دون تبرم، وتتفتح لخيرات التراث الايجابي دون غرور. نفسية التجزئة (تحلم) بالثورات الصاخبة العاصفة، وتقنع بالاصلاحات الرخيصة والترقيعات الهزيلة المضحكة، (تتكلم) عن المباىء والقيم الروحية وتعني اقتسام المناصب والدفاع عن زعامة الاحياء والقرى.

فلم يعد اذن عمل الاحزاب القطرية والحكومات مرحلة توصل إلى الوحدة بل اتجاها جديدا وطريقا مختلفا يبعد عنها ويضعف امكانياتها.

والوحدة ليست عملا آليا تتم من نفسها نتيجة للظروف والتطور، فالظروف لاتخدمها والتطور قد يسير معاكسا لها، نحو تبلور كاذب للتجزئة. فهي بهذا المعنى فاعلية وخلق، ومغالبة للتيار، وسباق مع الزمن أي انها تفكير انقلابي وعمل نضالي. ان هجوم الاستعمار والصهيونية يكاد يتركز على الوحدة العربية، هذا هو الهدف الذي يلتقي عليه الاستعمار الغربي والاحزاب الشيوعية الستالينية (وهو مايفسر اتفاق

الطرفين على خلق دولة اسرائيل كحائل كبير في طريق الوحدة) ولا يحتاج الاستعمار إلى تدخل مباشر لتزييف الاستقلال والديمقراطية والتقدمية فالتجزئة كفيلة بذلك ما دام وضعها ومنطقها يغريان كل جزء بأن يستغلها لبلوغ بعض الفوائد الخادعة على حساب الاجزاء الاخرى، وهكذا فبالرغم من وحدة حاجات الشعب العربي في جميع أقطاره فان معظم نضاله يهدر ويبعثر، لان دماءه التي تسيل في مكافحة الاستعمار في بقعة تستخدم وسيلة للمساومة على صفقة سلاح او زيادة أرباح شركة في بقعة اخرى، ولان (الديمقراطية) في قطر تهلل للدكتاتورية في قطر آخر، ولان (الجمهورية) يحميها الملوك . . . فمنطق التجزئة لايمنع الحركات المتماثلة في الدول العربية من التوحيد والتعاون فحسب، بل يدفعها إلى التعاكس والتناقض. وهكذا نصل إلى هذه النتيجة: لايحقق الشعب العربي وحدة النضال، مالم يمارس نضال الوحدة.

في الايام الجدية العصيبة، اذ يشتد الخطر وتنزل المحن وتتعاظم التضحيات، تحظى الامة بلحظات خاطفة نادرة، تسترد فيها وعيها لمصيرها الحقيقي، ويصبح الجو النفسي العام أكثر ملاءمة وتقبلا لموقف التجرد وكلمة الحق. وعسى أن تكون البطولة الشماء والايام الدامية التي يحياها قسم من شعبنا في المغرب العربي وخاصة في الجزائر، مناسبة صالحة وثمنا كافيا لبعض الحق والتجرد يدخلان جونا ويساعداننا في مختلف أقطارنا على النظر الى مصيرنا بمنظار جديد يهيىء لنا سبيل تحول أساسي في تفكيرنا وعملنا.

آب ١٩٥٥

نظرتنا للوحدة العربية

الوحدة والنضال الشعبي

ايها الاخوان: بدأ حزبنا قبل خمسة عشر عاما، ونادى بفكرة، اعتقد بأنكم تعرفون خلاصتها، والوحدة العربية أبرز شيء فيها. وبالرغم من أن حلم الوحدة يراود العرب جميعا في مشرقهم ومغربهم الا أن الكثيرين حتى من المثقفين ومن العاملين في الحقل القومي كانوا ضعيفي الايمان في أمر الوحدة، وكانوا ينسبون الى دعوتنا «الخيالية»، ويعتبرون بأننا نطالب بأشياء نظرية، وان هذا الحزب المؤلف من شباب وطلاب لم يختبر الواقع ولم يعرف حدود الامكانيات وحقيقة الصعوبات، ولذلك فهو يستسهل الارتجال وطرح المطالب الصعبة. ولكن اليوم بعد خمسة عشر عاما أعتقد بأن أكثر الذين كانوا يأخذون علينا هذا التطرف في المطالب عرفوا بالتجربة بأننا لم نكن حالمين ولا متوهمين، وان الوحدة العربية ليست مجرد حلم وخيال بل حقيقة حية سائرة في طريق التحقيق، وأنها قد قطعت شوطا كبيرا في هذه السنوات، ولكن أمامها أيضا أشواطا كثيرة.

لكي أقرب الى أذهانكم هذا الموضوع لا بأس من أن أذكر لكم كيف يتصور بعض الساسة والمثقفين فكرة الوحدة العربية وأسلوب تحقيقها، وكيف أننا خالفنا هذا التفكير منذ البدء.

تعرفون بأن البلاد العربية طرأ عليها منذ قرون عدة تفكك وانحلال. ولسنا بحاجة الآن للرجوع الى التاريخ. والمفروض أنكم تعرفون هذه الاشياء. واذن عاش العرب مئات السنين مجزئين سياسيا الى أقطار ودويلات متنافرة، وفقدوا في كثير من أقطارهم سيادتهم، وفقدوا ـ حتى في الاقطار التي احتفظت بالسيادة ـ فقدوا الابداع ـ ملكة الابداع ـ ملكة التقدم والحضارة، أي أن المجتمع انتابته عوامل الجمود والتفكك فلم يعد قادرا على أن يتابع التقدم، فصار ينحل شيئا فشيئا ويعيش عالة على غيره. . على حضارة الاخرين، أو على بقايا حضارته القديمة. ففي هذه الحالة الوحدة

المفقـودة هي الـوحدة القومية وليست الوحدة السياسية، لأن الوحدة السياسة، نتيجة، ولكن المهم في مثل هذه الحالة أن العرب في المشرق والمغرب لم يعودوا يشعرون انهم أمة واحـدة. . الشعـور العميق الجـدي، الشعـور الايجـابي، وبـالتـالي لم يعودوا يشعرون بمسـؤ وليـة رسـالـة لهم في الحيـاة، وفي التاريخ. تكونت الانانيات وتراكمت المشاغل المادية والنفعية والآتية على نفوسهم. ولم يفقدوا كل شعور بالرابطة القومية لانهم ظلوا يشعـرون ويعـرفـون بأنهم كانـوا قديـما أمـة واحـدة، ولهم دولـة واحدة، وانهم مازالوا يتكلمـون لغـة واحـدة، ولا يزال في مجتمعهم بعض التقـاليد والعادات المشتركة، هذا طبعـا بقي، الا أن العنـاصـر الايجـابية فقدت، لان الوحدة الحقيقية لا تكون بالتشابه السلبي: أن يتشـابـه الجميـع بالتأخـر، بالجمـود، بالامراض. . الوحدة الحقيقية هي وحـدة ايجـابيـة: أن يتشابهوا بالعمل، القدرة على العمل والانتاج، أن يتشابهوا بنظرة دائمة مبدعة للحياة تتجدد دوما وتوحي لهم بالاعمال المستمرة في شتى الميادين.

ففي مطلع قرننا هذا كان فقدان الوحدة الروحية هو الاساس الذي يجب أن ينصب عليـه التفكـير لاعادة الوحدة القومية والسياسة. لكن السياسيين والمفكرين السطحيين يأخذون المظاهر والنتائج دون ان ينفذوا منها الى الاسباب والاسس والاعماق. يظنون ان وحـدة العـرب مرهـونـة بالقـوة المـادية، بالقوة العسكرية، بقوة دولة من دويلاتهم، تستطيـع أن تفـرض سلطتها على الآخرين وتوحد شتاتهم. هذا ما خلفناه نحن عندما نظـرنـا إلى الاسس: بأنـه لا يمكن تحقيق الـوحـدة العـربية تحقيقا جديا ومتينا صامدا للزمن الا اذا حدث انبعاث روحي في المجتمع العربي. أي ـ بكلمة مختصرة ـ الا اذا عاد العـرب فشعـروا بأنهم لم يوجـدوا عبثـا في الحيـاة، ولم يوجـدوا ليعيشوا على فضلة الاخـرين، وليكـونـوا عبيـدا للآخـرين، وليكونوا أفرادا وجماعات متنافرة تتنافس على المـادة والنفـع الحقـير، وانما وجدوا ـ ككل شعب ـ ليعطوا خير ما في نفوسهم وعقولهم، ليعيـدوا للحيـاة ماأعطتهم ايـاه، ليعـبروا أكمـل تعبـير عن انسانيتهـم، ليرتفعوا فوق المشاغل الحقيرة وفوق الانانية وفوق النظرة التي لا تؤمن بالقيم والخلود، ليرتفعوا الى مستـوى روحي يصهـر نفـوسهم من جديـد وينسيهم خلافـاتهم ويبـدل ضعفهم قوة ليشعـروا بأن عليهم مسـؤ وليـة جديـة تامـة بأن يحرروا أنفسهم ليحرروا غيرهم، وأن

يرتفعوا بأنفسهم، بمستوى معاشهم، بنظام مجتمعهم، ليستطيعوا فيما بعد أن يغنوا المجموع البشري بقدرتهم وكفاءاتهم. لذلك تصورنا الوحدة العربية تصورا انقلابيا ثوريا. لم نتصورها تصوراً سياسيا بأنها جمع اعداد.. جمع كميات بعضها الى بعض، لان الاشياء الميتة اذا جمع بعضها الى بعض فلا تنتج حياة، ولكن اذا حركنا الروح.. بعثنا الروح في هذا الشعب.. في هذا المجتمع، عندما يكون الجمع مجديا ومقويا، وعندها يكون الجمع ممكنا. اذ لا امكان للتوحيد في حالة التأخر والجمود وهبوط الروح. لا يمكن ان يتحد اثنان اذا لم يكن فيهما بذرة مهما تكن بسيطة من النزوع الروحي ليعرفا ان في الحياة شيئا أثمن من الانانية المحضة، وبالتالي يمكن أن يجتمع أثنان في سبيل غاية مشتركة أعلى من أنانية كل مهما على حدة.

فالوحدة العربية في نظرنا اذن هي نتيجة للانقلاب الروحي في المجتمع العربي، وهي أيضا في نفس الوقت سبب من أسباب هذا الانقلاب. هي نتيجة له، ولكن هي بحد ذاتها يمكن ان تكون دافعاً مثيرا من دوافع الانقلاب، لذلك لم نقل مع القائلين: لنسع أولا إلى اصلاح حال كل قطر، وبعد أن تصلح أحوال هذه الاقطار عندها تجتمع. لم نقل هذا القول، لان القطر الواحد ـ الجزء ـ اذا لم يعرف منذ البدء بأنه جزء فقط وبالتالي بأنه ناقص، وبأنه عاجز ومفتقر الى ما يكمله، وانه لا تستقيم حياته ولا تستقيم نظرته الى الحياة اذا لم يتصور نفسه حلقة في سلسلة، وجزءا من كل، وعضوا في جسم كامل، وان لهذا الجسم معنى في الوجود ورسالة في الحياة، فلا يستطيع القطر أن يصلح شؤونه اصلاحا عميقا. لذلك كان علينا ان نبدأ من البدء باثارة فكرة الوحدة ليس فقط على نطاق التبشير ولكن في النضال والعمل. ونحن عارفون أن التحقيق النهائي للوحدة يتطلب وقتا ومشقات، ونعرف أن بين الاقطار العربية تفاوتا في الاوضاع والظروف الخارجية والداخلية، ونعرف ان الوحدة تتحقق على مراحل.. كل ذلك ندركه ولكن رغم ذلك وجدنا أن من الضروري ان يقترن نضال كل قطر في سبيل مشاكله الخاصة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، بفكرة الوحدة والنضال من أجلها، ليعرف كل قطر عندما يبدأ بتطوير حياته واصلاح شؤونه ان مهمته أعظم بكثير من مهمة هذا الجزء وان التصميم او الخطة التي سيضعها لتطوره

ولنهضته ايضا يجب ان تكون جزءا من كل . . . ان يعرف بانه وجد ليتمم الاجزاء الاخرى وان يحسب لها حسابا .

هناك نظرة سقيمة منحرفة وخطرة عرضت لجانب منها ، وهناك جانب آخر هو نظرة السياسيين المعروفين : بأن الوحدة العربية او الرابطة العربية ليست شيئا ينبعث من أعماق حياة العرب في كل اقطارهم ، وانما هي نقاط التقاء مشتركة بين هذه الاقطار ، اي ان كل قطر : سوريا ، مصر ، العراق ، تونس ، مراكش ، الجزائر ، كل قطر له حاجاته ، له مشاكله عليه ان يعالجها ، ثم في مستوى اعلى من مستوى المشاكل الخاصة بكل قطر ، توجد مواضيع مشتركة يمكن ان تلتقي عليها الاقطار العربية كلها او بعضها .

والواقع ـ كما تعرفون ـ ان هناك نوعين من التجمع ، تجمع الاقطار العربية المشرقية وتجمع الاقطار العربية المغربية وعلى هذا الاساس قامت الجامعة العربية : ان بين اقطار الشعب العربي بعض النقاط المتشابهة في السياسة ، أحوالهم متشابهة يمكن ان يجتمعوا ليبحثوا هذه الشؤون في الاقتصاد ويتعاونوا في الثقافة وهكذا . هذا معناه ان كل قطر بشخصيته الخاصة ومشاكله الخاصة هو الاصل والاساس وانه في الفروع . . . في النتائج . . . في أمور سطحية ليست عميقة يمكن ان يلتقي مع الاقطار كلها أو بعضها .

مثل هذا الالتقاء قد يقع بين شعوب مختلفة ، . لا تتكلم لغة واحدة ولا ترجع الى اصل واحد ، موجودة في قارة او جزء منها ، تفرض عليها ظروفها ان تتعاون ، وهذا ما يريد الاستعمار ان يحدث في الشرق الاوسط . . في الاقطار العربية المشرقية . . تعاون سطحي في بعض أمور لا تنفذ الى صميم حياة الشعب ، ولأن هذا التعاون سطحي فان فائدته ستذهب الى الاستعمار ، وليس الى أهل البلاد . لذلك كان الاستعمار هو المحرض على انشاء الجامعة العربية ، هو المقترح لها ، ولم يخف عواقبها . والاستعمار يعاود الكرة دوماً لكي يوجد تعاونا اقتصاديا وعسكريا بين هذه الاقطار بشرط أن يكون هو حاضرا فيها لكي يستغلها .

هذا تصور خاطيء للوحدة ـ ليس خاطئا فحسب بل ضارا ـ لاننا نكون بهذا

الشكل أعطينا شرعية وترسيخا للتجزئة، وسمحنا لعناصر الاختلاف والتباين الموجودة في الاقطـار ان تنمـو وتتـوسـع . وهكذا تكون الجامعة ستارا حامياً للتجزئة، للتفرقة، للتباين، في ظله تنمو التجزئة في امان، وهذا ما يريده الاستعمار لنا: بأن نصل إلى زمن نتناكر فيه، ينكر بعضنا البعض الاخر وينادي كل جزء بشخصيته الخاصة التي لا يمكن ان يتنازل عنها ونعيش في تناحر وتنافس.

النظرة الصحيحة الى الوحدة ـ في اعتقادي ـ هي ان يكون أساس النهضة العربية الجـديـدة، أسـاس الانقلاب العربي المنشود، قائما على هذا المبدأ الذي لا يجوز التفريط فيه او التهاون فيه: بأن العرب أمة واحدة، وبأنهم في أي جزء من أجزائهم، وفي أي مشكلة تعتـرض أي جزء يجب ان يشعـروا أويفكـروا ويعملوا بهـذا الـواقع، بهـذا التصـور، بأنهم ان لم يكـونـوا عمليـا موحـدين فانهم روحيـا موحدون، وانهم يعـالجـون مشـاكلهم على أسـاس انهم سائـرون نحـو الـوحـدة ويعملون لهـا بجـد وبنضـال. فحـزبنـا في سوريـة مثـلا، وهـذا ينطبق عليه في كل الاقطار التي له فيها فروع، بدأ حياته منذ تأسيسه وبدأ بنضاله يعالج مشاكل الشعب في الجزء الذي وجد الحـزب فيـه ولكن على أسـاس عربي . لمـا بدأ الحـزب في سورية كان يناضل ضد الاستعمـار الفـرنسي ولكنـه في كل خطوة خطاها في نضاله ضد الاستعمار كان يذكر الشعب بأن هذا الجـزء هوجزء من كل . . من الـوطن العربي، وان الاستعمار موجود في أجزاء أخرى، وان طرده من هنا واضعافه سيساعد الاقطار الاخرى على التحرر، وان بقاءه هنا في سورية يساعد الاستعمار على الضغط والاستبداد باخواننا في أقطار أخرى. وهذا الشيء متجسم في سورية لان فرنسا كانت تحرص على سورية بصورة خاصـة ليسهـل استعمـارهـا للمغرب وليطول أمد هذا الاستعمار، ولكي تضمن عدم وصـول حركـات وأفكار التحرر والمساعدات الاخوية من عرب المشرق إلى المغرب اذا هي ضمنت سيطرتها في هذه البقعة.

وبعـد الانتهـاء من مرحلة الاستعمـار في سوريـة واجهنـا مشكلة اخـرى لم نكن نجهلهـا قبـلا، ولم نسكت عنهـا كل السكـوت زمن الاستعمار، ولكن لم نستطع أن نعطيها حقها من المعالجة ما دام الاستعمار هو العدو الاول: مشكلة الطبقة الحاكمة

أو الفئة المتزعمة. فبعد التخلص من الاستعمار الفرنسي هنا وجه الحزب نضاله ضد هذه الطبقة لأنها كانت زمن الاستعمار سببا في استمرار بقائه، لانها زيفت النضال، وأضعفته عندما تزعمت النضال وساومت الاستعمار مرارا عليه. دعت الشعب إلى النضال، وما كان الشعب ليخطو خطوة او خطوتين حتى كانت هذه الفئة نفسها توقفه في منتصف الطريق، وتخاف من جموحه واسترساله في النضال واظهار كل قواه وامكانياته، لانها كانت مهددة في مصالحها وفي زعامتها. واخر الامر تغلب الشعب على الاستعمار وعليها وعلى مساومتها، فوجدت ان حقها ان تحل محل الاستعمار في حكم البلاد متذرعة بتضحياتها زمن النضال الوطني، وبأسبقيتها في مقاومة الاستعمار وغير ذلك.

ولا اعتقد انكم بعد كل هذه التجارب التي مرت على العرب في عشرات السنين الماضية، لا أعتقد انكم تجهلون حقيقة ادعاء هذه الطبقة التي هي ذاتها في كل قطر عربي، الوجهاء، الاغنياء، الزعماء التقليديون، والتي تقاوم الاستعمار كمنافس ليس كمستعبد للوطن والامة: وانما كمنافس على الزعامة والاستثمار، وترضى منه بالمشاركة في كثير من الحالات.. أن تقاسمه المنافع والزعامة. ولما استطاع نضال الشعب أن يخرج الاستعمار من هنا انفضحت هذه الطبقة انفضاحا تاما، وظهر مفهومها للنضال والوطنية لان نوعا من البيع والشراء حصل، لأنها دفعت الفلس لتأخذ مئة، وانها تعبت سنة لترتاح عشرين، وانها ضحت ببعض المنافع وحرمت من بعض المناصب لكي تستأثر فيما بعد بالحكم ومنافعه، ونظرتها إلى الشعب نظرة احتقار وتضليل لا تقيم له وزنا، ولا تشركه في قضيته ولا تطلعه على سياسة البلد، تسيره بالبطش تارة وبالحيل والاكاذيب والتضليلات تارة أخرى. فهل كنا في نضالنا ضد هذه الطبقة.. هل كنا نعمل لسورية كبلد قائم بذاته مستقل، لا تصله بالبلاد العربية صلة..؟.. كلا.. كنا نعرف ان نضالنا ضد هذه الطبقة هو نضال ضد مرض واحد ابتلي به العرب في كل أرضهم، واننا اذا نجحنا في تغيير هذه العقلية وهذه الاساليب في الزعامة والحكم، وفي تهديم القيم القديمة التي تجيز استعباد الشعب وخداعة واستثماره، وخلقنا قيما جديدة تعترف للشعب بالحقوق الكاملة، بالاحترام، وبأن

يكون له الحق في الاطلاع على شؤونه وفي ممارسة تصريف هذه الشؤون . . عندما ننجح في تهديم هذه العقلية القديمة وخلق عقلية جديدة نكون قد قدمنا العرب عامة تجربة وقدوة .

هذا لم يكن مكتوما، بل اعلناه . قلنا ان هذه الطبقة واحدة، وهذه العقلية واحدة في كل وطننا ـ عقلية الانحطاط والتأخر ـ ويجب ان تزال . وعندما قاومنا الدكتاتورية العسكرية لم نكن نعالج حادثا اقليميا وانما ظاهرة عربية، لاننا نعرف بأن وطننا العربي يمر في مرحلة تاريخية يتدرب فيها على الحكم من جديد، يتدرب على الاستقلال بعد ان أضاع قياد نفسه مئات السنين، فاذن هو معرض، هذا الشعب العربي في كل بقعة، ان يضلل وان تغريه الأفكار الخاطئة السطحية عن الحكم العسكري والابطال المغامرين الاقوياء، علينا أن نفضح هذه الخرافة، ونفع هذه التجربة سيعود على كل العرب .

علاوة على اننا كنا في هذا النضال سواء زمن الفرنسيين اوزمن الحكم الوطني او زمن الدكتاتورية، نجد رابطة بين الاشياء التي نقاومها وبين المصلحة العامة . قلت لكم ان الفرنسيين جاؤوا الى سورية ليضمنوا بقاءهم في المغرب والدكتاتورية العسكرية قد ساومت على قضية المغرب من أجل صفقات سلاح وخذلت قضية تونس وهي في ابان نضالها المسلح قبل أربع سنوات، ومنعت كل تأييد وكل تظاهر وكل معونة وكل حدث في سبيل نصرة النضال في المغرب فكانت مقاومتنا للدكتاتورية ليس فقط لانها تبطش بالشعب العربي في سورية وليس لأنها تبتز أمواله، بل وبصورة خاصة لانها أجازت لنفسها ان تساوم على قضية قومية خطيرة .

تجدون اذن ان المصلحة العربية واحدة لا تتجزأ، وانها ليست كما يتصورها او كما يريد ان يتصورها الاجانب والسياسيون التقليديون في بلادنا : المصلحة العربية هي بعض أشياء مشتركة سطحية . . وانما هي في صميم نضال كل قطر، وبالتالي ان الوحدة العربية ليست مرحلة من مراحل نضالنا يمكن ان نوقتها فنقول : بعد ان ننتهي من الاستعمار في القطر الفلاني، وبعد زوال الاقطاع في قطر اخر والدكتاتورية في قطر ثالث نفرغ للوحدة . العمل للوحدة يبدأ منذ البدء والاستعمار موجود والاستغلال

الاقطاعي موجود والحكم الرجعي الانتهازي موجود. علينا ان نوضح للشعب العلاقة بين مشاكله الجزئية وبين اساس المشاكل كلها: المشكلة القومية.

اذا أردنا ان نجيب على سؤال: ماهي الخطوات العملية نحو الوحدة العربية؟ فجوابنا هو بالدرجة الاولى والاهم هذا الذي ذكرت:

النضال الموحد. فالوحدة العربية قبل ان تصل الى طور التحقيق السياسي والانشائي يجب ان تبنى في جو النضال.. في صميم النضال.. ولا يجوز لنا ان نغفل هذه الناحية ـ وهذا ما يريد السياسيون ان يغفلوه لانهم لا يريدون الوحدة لأنها تقضي على زعاماتهم.. لأنها تطيح بهم وتخلق مستوى رفيعاً من الوطنية والوعي والانتاج عند الشعب لا يعود متلائماً مع وجود هذه الزعامات البالية، فهم يريدون تثبيت التجزئة.. يصورون الوحدة ان دورها لم يأت بعد. الواقع هو ان دور الوحدة موجود دوماً. اقطار المغرب العربي التي عرفت من ألوان الاستعمار وثقل ضغطه وبطشه ما لم تعرفه الاقطار الاخرى، وربما ما لم يعرفه بلد اخر في العالم.. هذه الاقطار اذا قدرت لها قيادة واعية مخلصة ـ وهي موجودة لا شك ـ فانها تستطيع ان تعمل للوحدة والاستعمار مسلط فوقها، اي ان تبني نضالها على اساس الوحدة. هذا لا يمنعها من معالجة مشاكل المغرب كما لم يمنعنا من معالجة مشاكل سورية. ولكن بهذه الروح يجب ان يكون النضال.

فنحن اذن واضحون جداً في هذه النقطة. الوحدة العربية هي قبل كل شيء نضال ووحدة في النضال، ثم، كمستوى اخر قد يرافق هذا المستوى الاول وقد يتبعه، تأتي ظروف تكون فيها شروط بعض الاقطار السياسية والاجتماعية مهيأة لان تخطو خطوات انشائية في سبيل الوحدة مع متابعة النضال. وحدة النضال يمكن ان تنشىء بين اقطار علاقات توحيدية في السياسة والاقتصاد والشؤون العسكرية.

وهذا ممكن ومتيسر في اقطار الشرق العربي، ولو كانت للفئات الحاكمة في الشرق العربي عقلية متحررة ومؤمنة وواثقة بالشعب وبعيدة عن المصالح الخاصة، المصالح الطبقية، لحققت خطوات جدية في طريق التوحيد منذ زمن. ولكن هناك مجالات سياسية تتطلب دقة، وحيطة وحذراً، لا يجوز ان تتوحد السياسة وهناك

استعمار في الداخل ونفوذ استعماري، ولكن يمكن ان يتوحد الاقتصاد، وان تتوحد الثقافة. فنرى نحن بأن كثيراً من الاشياء يعجز عنها الحكام اويتهربون منها لا لأن الاستعمار يحول بينهم وبيننا بل لأن مصالحهم تحول بينهم وبينها، اولأن عقليتهم المتأخرة تمنعهم من تحقيقها.

الشيء الذي يهمنا جميعا الان هو نضال المغرب ووحدة المغرب، فعلى الاساس الذي وصفناه اقول بأن وحدة المغرب لا يمكن ان تتحقق الا في وحدة نضاله، وأي تجزئة لنضال المغرب ستمنع في المستقبل التوحيد السياسي والاقتصادي. فالوحدة السياسية هي التي تتم في النضال. لأن النضال هو الحياة الصحيحة للعرب، ككل امة فقدت قياد نفسها في الماضي وتأخرت وتريد ان تستأنف سيرها، تريد ان تنهض. الحالة السليمة التي تعبر عن حقيقة الامة هي النضال. خذوا العرب بدون نضال، تروهم بين الشعوب المتأخرة. وخذوهم في حالة النضال: هم في مستوى ارقى الامم.

النضال هو المعبر الصحيح عن الامة. فاننا في النضال نبني أسس حياتنا المقبلة، في النضال تزول عوامل الانحطاط، وفي جو النضال الجدي لا يبقى نفع خاص، ولا تبقى مادة، ولا يبقى تنافس حقير، ولا تبقى انانيات. لأن النضال يبني مستوى جديداً اما ان ترقى اليه النفوس اوتسقط من الحساب. ومن ناحية عملية، لا يخفى عليكم ان تجزئة النضال اكبر سلاح بيد الاستعمار، وان حيلة الاستعمار التقليدية ـ في الماضي والحاضر ـ عندما يغلب على امره، عندما تثور الشعوب في وجهه، ان يلجأ الى التفريق. خذوا امثلة من حالة الشرق العربي: الاستعمار عندما يتراجع امام ثورة الشعب في قطر عربي، امام هذه الموجة الطاغية من الوعي والاستبسال في التمسك بالحقوق، حقوق السيادة والحرية، يكون محتاراً بين امرين: اما ان يقاوم الى النفس الاخير، هذا يكلفه مالاً وارواحاً وسمعة سيئة في العالم، واما ان يلجأ الى الحيلة فيسلم للشعب بالاستقلال، ولكن قبل ان يعطي الاستقلال يسحب منه حيويته.. يشترط الانفصال، وهذا ماحدث في السودان وفي سورية ولبنان. الدول الاستعمارية وافقت على الاستقلال في سورية ولبنان بشرط

التجـزئـة. وأوجـدوا لهم الجامعة العربية، كل دولة تنافس الاخرى، وتضع العراقيل في سبيـل أبسـط المشـاريـع التـوحيدية. حتى ان الجامعة التي مضى على تأسيسها احـدى عشـرة سنـة لا تزال مشـاريع بسيطة جداً نائمة في مكاتبها، كالغاء الجوازات والغـاء الـرسـوم الجمـركيـة، وهـذه اشياء تتحقق اليوم بين امم متباينة كانت بالامس يحـارب بعضهـا بعضـاً: لم يعـد بينهـا جمـارك وجـوزات. ولكن الجـامعـة تعقـد اجتمـاعـات وتـدرس ولا تنفذ، لأن الاستعمار الذي شعر بضعفه في هذه البلاد وجد هذه الحيلة: ان يعطي استقلالاً شكلياً فاقداً لاكثر نواحيه الايجابية المبدعة، عندما يجرد هذه البلاد من الوحدة.

لذلك وبعد هذه التجارب المرة التي عانيناها لـم نستطع السكوت على ما يجري في المغـرب من تجـزئـة للنضـال بفعـل الاستعمـار والـذين يوافقـونه من السياسيين الانتهازيين، لاننا نعرف قصة هذه السياسة ونتائجها.

عام ١٩٥٦

وحدة النضال في المغرب العربي

ابتـدأ الحـديث[1] بتـوجيه السؤ ال التـالي : الاقطـار المغـربيـة الثـلاثـة تختلف احياناً في مراحل الكفاح . . هل من الاحسن ان تتوحد الشعوب فيها قبل الاستقلال ام بعد الاستقلال؟

× × ×

نظرتنا نحن بأن كفاح الشعب العربي في كل اقطاره واحد، ويجب ان يكون موحداً اي ان تكون له نظرة واحدة، واهداف واحدة وخطة عملية واحدة، وبالاحرى ان تكون نظرتنا الى كفاح الشعب العربي في المغرب هي نظرة التوحيد لانه لا شك ان بين الاقطار العربية المختلفة بعض الفروق في الاوضاع الداخلية وخاصة الخارجية، وهذه الفروق ليست في رأينا مما لايمكن التغلب عليه من اجل توحيد النضال، ولكن حتى مع التسليم جدلاً بفائدة مراعاة هذه الفروق وبالتالي مع التسليم بامكان التدرج في توحيد النضال ـ اي ان نصل بعد مراحل وتدريجياً الى توحيد نضال العرب كلهم ـ اعتقد ان لا احد يستطيع ان يجادل في ضرورة توحيد نضال المغرب كله لان اوضاعه واحدة لا فرق بين اقطار المغرب الثلاثة لا في الداخل ولا في الخارج . .

اما اذا فهمنا من الفروق اكثر مما تمثل هذه الكلمة، واغرقنا وبالغنا في اعطاء الاهمية للفروق، عندها سنجد فرقاً بين مدن سورية وعندها يتعذر كل عمل . اذا رضينا ان نسترسل في طريق التفريق والتمييز واعطاء الاهمية للفروق فان في ضمن القطر الواحد، فروقاً بين منطقة واخرى، وهذا الاسترسال في التمييز في عرف العمل السياسي والعمل القومي غير جائز مطلقاً .

اذن في مفهـوم العـمـل السـيـاسـي والـقـومي كلمـة «فـروق» لها حدود

---

(١) حديث مع طلبة المغرب العربي .

لايجوز ان تتجاوزها، وهنا مستوى لايجوز ان تهبط عنه فاذا قيل مثلا ان ثمة فرقاً بين اليمن وبين باقي الاقطار العربية، لان اليمن معزولة منذ قرون، وفي حالة اجتماعية متخلفة جداً، بقيت على حياة القرون الوسطى الموغلة في القدم، واذا قيل بأن ثمة فرقاً تحسن مراعاته بين المملكة العربية السعودية وبين الاقطار العربية الاخرى فأيضا يمكن ان نسلم نوعاً ما بهذا الفرق، لأنه لم يوجد بعد في المملكة السعودية ما يسمى رأياً عاماً، ما يسمى شعباً ومواطنين. . فالوضع بدوي عشائري، مغلق، معدوم الثقافة، معدوم النور وحرية الرأي، ولكن لايجوز مطلقاً ان نذهب لأبعد من ذلك. عندها نكون عملياً كأننا نخضع لمنطق الاستعمار نفسه، الاستعمار الذي يتذرع بفروق ثانوية مصطنعة ليمنع توحيد الامة وليمنع توحيد نضالها ضده، او انه هو يخلق هذه الفروق. وربما ذكرت لكم مرة ان الافرنسيين قبل ربع قرن جعلوا من هذا القطر الصغير سورية خمس دويلات. . كانت سورية مؤلفة من خمس دويلات كان يطلق على كل منها اسم دولة: دولة الشام ـ دولة حلب ـ دولة العلويين ـ دولة جبل الدروز ـ دولة الاسكندرون.

والافرنسيون هنا حاولوا ان يجربوا في هذا الشعب كل اساليبهم الخبيثة التي يستعملونها في المغرب، فمثلا حاولوا ان يوجدوا في منطقة العلويين، بعد ان فصلوها عن باقي المناطق، نعرة طائفية وعنصرية، وسعوا كثيراً بدعاياتهم وبكتابات كتابهم ومؤرخيهم ان يبرهنوا ان العلويين من اصل صليبي، انهم ليسوا عرباً وليسوا من هذه البلاد، ان المذهب العلوي هو اقرب الى المسيحية.

من حيث المذهب، أرادوا ان يبعدوا مذهباً من مذاهب الاسلام، ومن حيث العنصر أرادوا أن يظهروا العلويين كأنهم اوروبيون. . أرادوا استغلال التفرقة بين الطوائف وضاعفوها اضعافاً. كذلك كان من أهم الاسلحة التي يتسلحون بها في احتلالهم لهذه البلاد، ويثيرونها بين الحين والآخر، أنهم جاؤوا لحماية الاقليات المسيحية، وان المسيحيين في خطر. . حياتهم وممتلكاتهم في خطر في هذه البلاد، وانهم هم مكلفون بحمايتها. كل هذه الخدع كان يظهر بطلانها وزيفها،

وآخر الامر قهرت أمام الحق.

اذن كيف يمكن ان نقبل بالتفكير الذي يقول بوجود فروق بين اقطار المغرب وهي أقطار واحدة. .؟ الحياة الاجتماعية. . الحياة الروحية. . . الحياة المادية واحدة. . الاستعمار واحد. . الاستعمار الذي يضغط عليها، على الشعب العربي هناك، واحد. نفس المشاكل التي اصطنعوها هنا وفي العراق ولبنان اصطنعوها في المغرب وخاصة قصة العرب والبربر وهذه كما تعلمون باطلة لان القومية العربية لا تقوم على أساس عنصر أو دم وانما على اساس تاريخ وثقافة مشتركة ولغة واحدة ومصلحة مشتركة في الحياة معاً وفي الدفاع عن وطن واحد والعمل لبناء مستقبل واحد.

اذا دققنا كثيراً في أوضاع المغرب نجد، على ما اعتقد، بأن الاستعمار الفرنسي هو الذي أوجد بعض الفروق بين تونس والجزائر ومراكش خلال هذه المدة الطويلة من وجوده. مثلا خلق أو نمىّ طبقة من الوجهاء، من الاغنياء من ملاكي الارض الاقطاعيين هي اقرب الى الولاء له او المسايرة لوجوده في كل من تونس ومراكش. لم يكن حكماً استعمارياً مباشراً بكل معنى الكلمة كما هو في الجزائر، لانه بقيت بعض السلطة ولو في حدود ضيقة جداً لأهالي البلاد، أما في الجزائر التي دخلها الافرنسيون بالفتح، وأعلنوا أنها جزء من فرنسا، وفتحوها للهجرة الواسعة، وللاستيطان والتعمير والاستعمار امام مهاجرين افرنسيين واوروبيين بصورة عامة. . في الجزائر لم يكونوا بحاجة الى تشجيع طبقة بورجوازية واقطاعية، بل بالعكس كانت مصلحتهم في القضاء على هذه الطبقة حتى يزيلوا الشعب من طريقهم ويستلبوا ارضه وثرواته، ويجعلوا العرب في الجزائر بمنزلة الخدم عند الافرنسيين، ويعملوا على افنائهم بالافقار التدريجي وبالقمع، وجعلهم ادوات للخدمة والعمل لا اكثر.

هذا الفرق بين الجزائر من جهة وبين تونس ومراكش من جهة اخرى هو لمصلحة النضال، فهو الذي أدى الى ثورة شعبية مئة بالمئة في الجزائر كما نشاهد اليوم. هذا الشيء لم يحصل في أي قطر عربي آخر لا في الشرق ولا في الغرب.

الشرق العربي هنا في كفاحه ضد الاستعمار لم يتوصل كفاحه الى ان يكون شعبياً مئة بالمئة، ولذلك كان نضاله مشوباً في كثير من النواحي وكان يتراوح بين النضال الجدي وبين التراجع والمساومة والمفاوضات الكاذبة. لماذا؟ لان في هذه الاقطار طبقة من الزعماء. . من الملاكين الكبار والاغنياء والوجهاء لهم مصالح اقتصادية ضخمة هي هي نفسها تستتبع مصالح معنوية من وجاهة وزعامة وغير ذلك. وهذه الطبقة من اصحاب المصالح لاتستطيع ان تصارع الاستعمار مصارعة جدية حاسمة، بل ان من منطق مصالحها ان تناوش من الحين الى الآخر. ان تأخذ وتطالب كما يقال، تأخذ شيئاً، ثم تهدأ، ثم تعود لتطالب وهكذا. وكانت تدفع الشعب. . تحمس الشعب لمقاومة الاستعمار، لان الشعب بغريزته مقاوم للاستعمار. واحياناً كان هو الذي يدفعها، ولكن متى حصلت على بعض المكاسب البسيطة كانت تتخلى عن الشعب الثائر وتضطره الى الاستسلام. في حين ان الوضع في الجزائر اليوم هو وضع ثورة شعبية اذ لا يوجد هناك هذه الطبقة المميزة من الشعب العربي. لم يكن هناك فروق واضحة بارزة بين افراد الشعب العربي في الجزائر وقد تساووا جميعاً في الفقر وفي الخضوع للظلم، ولذلك ثاروا معاً.

فاذا قيل بأن ثمة فرقاً بين وضع تونس ووضع الجزائر، أو بين وضع مراكش ووضع الجزائر، نقول: نعم، ولمصلحة القضية هذا الفرق، ويجب ان تتبع تونس الجزائر، وان تكون الجزائر المقياس في النضال لان وضعها أسلم قومياً ونضالياً، ولأن هذه الثورة الهائلة في الجزائر هي اكبر كسب لتونس ومراكش، اذا عرف الزعماء في تونس ومراكش كيف يستفيدون من هذه الثورة. فالعرب في الجزائر وصلوا فعلاً الى الحد الممتاز ثورياً الذي يعتبر أميز حالة ثورية، وهي عندما يتساوى الموت والحياة، او عندما يصبح الموت أثمن من الحياة أو السبيل الوحيد الى الحياة، أو كما تقول الماركسية في البيان الشيوعي المشهور: بأن العمال ـ البروليتاريا ـ ستخوض الحرب ضد الرأسمالية، وهي حرب مضمونة النجاح. لماذا؟. . لان العمال ليس لهم شيء يمكن ان يخسروه. . يمكن ان يفقدوه. . لم يعودوا يملكون شيئاً يمكن ان يدافع عنه. البيان الشيوعي يقول: ليس لهم ما يضيعون الا قيودهم وأغلالهم. وهذا

هو وضع الشعب في الجزائر. وهذا ما يبين لكم خطأ ومحاذير تزعم الطبقة البورجوازية للنضال القومي، رغم ان زعامة هذه الطبقة في بعض الاحيان لايكون منها مناص، أي ان المرحلة تقضي بها. في سورية، في العراق، في مصر: الطبقة البورجوازية هي التي تزعمت النضال ضد الاستعمار. . . الوجهاء عامة، التجار، الاقطاعيون، ليست هي التي حاربت وانما وجهت الشعب الى الحرب.

في تونس ومراكش الامر تقريباً من هذا النوع، فالمتزعمون للنضال القومي ضد الاستعمار هم من هذه الطبقة، لذلك حتى بعد ظهور الثورة في الجزائر ـ وهو حادث فريد من نوعه ومليء بالامكانيات ـ لم يجرؤوا على الاستفادة منه ليتابعوا النضال ويحصلوا على اكثر مما حصلوا عليه، خوفاً على مصالحهم من أن تتهدد.

وأعود لأذكر لكم اشياء ربما ذكرتها في الماضي، بأن ظروف هذه المرحلة النضالية في حياة المغرب العربي ظروف مواتية جداً، ومشجعة جداً، لان فرنسا في حالة انهيار ونضوب، وانه في حالة تضامن الاقطار المغربية الثلاثة تعجز فرنسا عجزاً صريحاً عن المقاومة، فليس لديها الامكانيات العسكرية والاقتصادية الكافية لشن حرب. والدليل هو ما تشاهدون الان رغم تجزئة النضال، ورغم براعة السياسيين الفرنسيين من جهة، وقصر نظر بعض الزعماء في تونس ومراكش الذين رضوا أن يجزئوا النضال، رغم ذلك الشعب الفرنسي بكليته او بقسم كبير منه يثور على حكوماته ضد هذه الحرب في المغرب العربي، ويؤيد الى حد ما استقلال هذه البلاد، ويطلب بأن تكف الحكومة الفرنسية عن هذه الحرب التي ليس فيها الا الخسارة وضياع دماء الافرنسيين، وبعض الافرنسيين ينضمون الى الثوار او يشجعونهم.

ما دام الامر قد وصل الى هذا الحد فان توحيد النضال كان يمكن ان يختصر الطريق، وان يضع فرنسا امام الامر الواقع، بأن تسلم لمطالبنا، وفي أقل الاحتمالات واسوئها الشيء الذي يحصل عليه العرب في نضالهم الموحد هو حتماً أحسن مما يحصلون عليه في حالة تجزئة النضال وانفراد كل قطر بالمفاوضة.

هذا من حيث علاقة النضال بالتحرر من الاستعمار: توحيد النضال هو من كل

الوجوه احسن واكثر نفعاً. ولنأخذ الآن الناحية الاخرى، بالنسبة الى حياة الشعب العربي هناك. . بالنسبة الى العرب انفسهم بصرف النظر عن الاستعمار. ما دمنا مؤمنين ان الاستعمار زائل هذه السنة أو بعد سنوات، يبقى الموضوع بالنسبة الى هذه الحياة الاستقلالية التي يسير نحوها عرب المغرب، والتي سيحصلون عليها بلا ريب. . هل الافضل ان يحصلوا على الوحدة الان او بعد الاستقلال؟ . .

الجواب أقوى من الاول: التوحيد وقت النضال هو التوحيد الصحيح الذي يصل الى اعماق النفوس. . يصهر النفوس والعواطف وكل شيء. . أما بعد أن يستقل كل قطر، ويرتب أوضاعه على أنه مستقل فالصعوبات ستظهر بشكل لايصدقه العقل. . ستضحك علينا اجيالنا المقبلة، سيضحكون ويتألمون من هذه التجزئة التي صنعها الاستعمار، وصدقها العرب. . ليس العرب كلهم. . ولكن الزعماء، وتمسكوا بها وهي اكبر خطر في حياتهم.

فاليوم ليس الاستعمار هو كل شيء في بقاء التجزئة وفي الحيلولة دون الوحدة، وانما الاستعمار واصحاب المصالح هم في جانب التجزئة، حريصون عليها. عندما يبحث شباب مثلكم يرون ان من السهل التضحية بالمصالح، ولكن بالنسبة الى اصحاب المصالح انفسهم ليس من السهل التفريط بها. لذلك نعتبر ان الفرصة ذهبية من اجل توحيد المغرب منذ الان.

ولا حاجة الى أن أشرح لكم اكثر من ذلك أنه بالنسبة الى الامم التي طرأ عليها التأخر والانحطاط والجمود اجيالاً من الدهر كأمتنا العربية ـ وهذا شيء لا مجال لنكرانه ـ احسن حالة يمكن لأمة متأخرة. . احسن حالة لها لكي تتوحد ولكي تشعر بشخصيتها وبمؤهلاتها: هي حالة النضال. فالامة العربية هي الآن شيء مجرد، شيء في اذهان الجيل الجديد، ولكنها عملياً غير متحققة. . هي حلم في اذهاننا. . في كل مكان فيه شباب مؤمن. . يؤمن ان امته قادرة على الانبعاث وستعود مجموعة حية في المستقبل. ولكن عملياً هل هناك امة عربية متحققة؟ . . إنها متحققة ولكن الى حد ضعيف، ولكنها متحققة في كل مكان يوجد فيه نضال، وبشكل خاص اذا كان جدياً يواجه الموت في كل ساعة. . . في حالة مجابهة الموت ترتفع الغشاوات

وكل اثقال الجمود التي تراكمت خلال القرون . . أثقال الجهل والمصالح المختلفة والانانية وغير ذاك . . كل هذه الاثقال التي جعلت منها أمة ضعيفة وأفقدتها انسانيتها، وأفقدتها امكانية التجاوب مع الحياة وامكانية الحضارة . . كل هذه الاثقال المسيئة السلبية التي حطمت امتنا لا يعود لها وجود في حالة مواجهة الموت . الرجل الذي يقف امام الموت هو الانسان الصحيح . . الانسان الذي في هذه اللحظة يغامر ويستعد للتضحية بحياته ـ عندها يستطيع ان يكتشف زيف الاعتبارات التي كانت تكبله : العصبيات والمصالح الخاصة . . لان الموت اقوى من كل شيء مصطنع .

امتنا اذن موجودة في كل مكان يحمل فيه افرادها السلاح .

سؤال : مارأيكم في استقلال مراكش؟

اذا قلت لكم ان هذا المنطق في معالجة القضية القومية وانتزاع حقوق الشعب من المستعمر هو منطق خاطىء وضار فاني لا أخص بذلك زعماء المغرب ، ومن الواضح جداً ان هذا ينطبق على كل زعماء سياسيي العرب في المغرب والمشرق ، وخاصة في المشرق . لان زعماء المشرق هم الذين سبقوا ، عندما بدأ النضال هنا ، بالمفاوضات مع الاستعمار الفرنسي والانجليزي في سورية ومصر والعراق وغير ذلك ، ولم يكن المغرب قد وصل بعد الى حد المفاوضات ، لذلك فزعماء المغرب اليوم ـ في مراكش وتونس ـ لايفعلون اكثر من الاقتداء بمنطق السياسيين والزعماء في مصر وسورية . فاذن نحن نستنكر هذا المنطق ونقاومه ، وقد قاومناه ونقاومه فعلا في اقطار الشرق العربي ، ولذلك ايضاً نقاومه في المغرب مقاومة فكرية لاننا ليس لنا بعد حزب هناك حتى يقاوم مقاومة عملية .

صحيح أن أصحاب هذا المنطق من الزعماء لا يمكن أن يسموا خونة ، ولا يمكن ان ننكر عليهم كل وطنية وان لا يكون بيدهم بعض الحجج ، وهذا شيء نعرفه وقد عانيناه هنا سنين طويلة . فالمسألة ليست بسيطة كما يظن بأن الذين يأخذون بمنطق المفاوضة هم خونة واجراء استعمار، وهكذا تحل المشكلة . كلا ، هذا حل مصطنع

ومبسط جداً. الذين يأخذون بهذا المنطق هم أيضاً وطنيون ويريدون الخير لبلادهم بنسب متفاوتة: بينهم المخلص، وبينهم الأشد اخلاصاً، وبينهم المتاجر بالوطنية لمنافع خاصة، ولكن بالاجمال، الحركات الوطنية التي يتزعمها البرجوازيون هي حركات وطنية ليست خالصة وليست وطنية واعية كل الوعي. . . ليست خالصة من المصالح اذن، وتشوبها اعتبارات مصلحية. . ليست واعية كل الوعي لانها لم تبلغ بعد درجة الوعي الثوري الذي يدرك حقيقة امكانيات الشعب ويعتمد عليها، ولو انها اليوم غير ظاهرة، ولكن يعرف أنها ستظهر بعد.

هذا ما يميز الوعي الثوري. الوعي العربي الثوري يتطلب النظرة الشاملة الى الظروف العالمية والعربية، ويفترض التنظيم من جميع النواحي، ويفترض مستوى حاراً من النضال، مستوى لايقبل انصاف الحلول وأنصاف التضحيات، ولا يقبل الفتور.

فاذن ان ما نقوله بحق هؤلاء هو انهم ليسوا ثوريين. ولا نقول أنهم ليسوا وطنيين، الا أننا نعتقد ان الوطنية الصحيحة هي الوطنية الثورية. لذلك فوطنيتهم ليست صحيحة كل الصحة. لهؤلاء منطقهم، منطق الاخذ والمطالبة ـ كما قلنا ـ، ومنطق التدرج على مراحل. . منطق عدم ارهاق الشعب ـ كما يزعمون ـ والواقع عدم ارهاق انفسهم وأتباعهم أي عدم ارهاق الطبقة البورجوازية نفسها. . منطق توفير شروط حسنة أو صالحة نسبياً في جزء من الأجزاء على أمل ان يتمكن هذا الجزء من تغذية النضال في الاجزاء الاخرى، وهذا ما يقال بصدد استقلال مراكش، ما يقال من قبل هؤلاء الزعماء ـ الذين لايشك باخلاصهم الى حد ما ـ أنه اذا توافرت لمراكش شروط جيدة فباستطاعتها ان تغذي النضال في الجزائر، من سلاح ومن رجال، ومن تأييد دبلوماسي الخ. .

هذه نظرية، طبقت هنا في الشرق، وطبقت ايضاً في بلاد اخرى، ولكنها غير مناسبة لهذه المرحلة في رأينا. قد نجد عذراً لرجال الكتلة الوطنية في سورية قبل عشرين سنة او اكثر عندما لجأوا الى اسلوب المفاوضة مع فرنسا، وقد نجد مثل هذا العذر ـ الخفيف طبعاً ـ لزعماء مصر الذين ارتضوا هذا الاسلوب قبل عشرين سنة

واكثر وفاوضوا الانجليز على اساس تعاقد ومعاهدة وغير ذاك، اذ انه قبل ربع قرن كان العالم غيره اليوم، وكانت الدول الرأسمالية الغربية في حالة ازدهار وقوة، ولم يكن حتى بصيص امل في انهيار سريع لهذه الدول، وزوال سريع للاستعمار. انجلترا وفرنسا بعد الحرب الاولى خرجتا دولتين جبارتين قويتين بمستعمرات هائلة ومصانع وغير ذلك، والبلاد العربية كانت في حالة اغفاء ونوم، في بدء يقظة لم تتوضح بعد، ولم يشتد ساعدها. أما اليوم فما هو العذر والعالم قد تبدل تبدلاً اساسياً؟ . . . ففرنسا طرحت من الصف الاول الى الصف الثاني من الدول، وبريطانيا نفسها زال الكثير من نفوذها وقوتها ايضاً ونشأت في العالم دول برمتها لم تكن موجودة اولم يكن لها شأن قبل ربع قرن: هذا الاتحاد السوفياتي الذي كان مشكوكاً في أمره قبل ربع قرن، هل يصمد؟ . . . هل يمكن أن يعيش؟ . . فاذا به يعيش ويقوى ويصبح قوة هائلة معدلة للقوى الغربية. وهذه شعوب ودول آسيوية كانت في حكم العدم قبل ثلاثين سنة، مستعبدة محكومة بالحديد والنار، ويستغل اهلها كالعبيد، ومتخلفة في كل نواحي الحياة، واذ بها تتابع نضالها وتستفيد من الظروف العالمية وتتحرر وتبني هذا الاستقلال بناء ايجابياً.

وهذا الوطن العربي الذي كان شبه نائم ومتأخراً جداً قطع اليوم أشواطاً في التقدم والتحرر. اذن ما يجب ان يدخل في حساب الزعماء في المغرب هو هذه التبدلات الاساسية التي حصلت في العالم وفي وطننا بالذات، والتي هي في مصلحة الشعوب الثائرة والمطالبة بالتحرر.

ترون الان بأن الحكومة التونسية تحاول ان تعيد النظر في الاتفاقية التي عقدتها مع فرنسا، وان تحصل على اشياء جديدة وحقوق جديدة. هل هذا كان ممكناً بدون نضال الجزائر وبدون نضال مراكش؟ كلا. أليس وجود النضال في مراكش والجزائر هو الذي سمح للحكومة التونسية التي كانت تحسب قبل عام أنها حققت معجزة ان ترى اليوم انها ارتضت بشيء هزيل؟

كل يوم يأتي بدليل جديد على فائدة النضال ولو كان مجزءاً. وعلى ضرورة توحيد هذا النضال لانه يعطي اضعاف ما يعطيه النضال المجزأ.

آذار ١٩٥٦

حصيلة مرحلة من النضال

حلف بغداد، وملامح اليقظة العربية: يمكن أن يسمى حلف بغداد هجوماً استعمارياً دفاعياً لجأت اليه بريطانيا لوقف نمو اليقظة العربية وتدارك نتائجها قبل وقوعها، فصاغت هذا الحلف في تصميمه ومراميه على نحويكون فيه لكل وجهة من وجهات الحركة العربية الجديدة وجهة تقابلها فتشوهها او تحرفها او تعطلها.

فاذا كان من ملامح اليقظة العربية انها تسعى للخروج من حالة التخلف الاقتصادي، بتخطيط سياسة اقتصادية تقوم على اسس شعبية تقدمية ثورية، فتوجه معظم الجهود لرفع مستوى العدد الاكبر من ابناء الامة العربية وتنصب على الامور الجوهرية كتقوية الدفاع وانشاء الصناعات الاساسية لتحرير البلاد من التبعية الاجنبية، كل ذلك ضمن منطق الوحدة العربية الذي يرتب عليه أن يكون الاقتصاد العربي متكاملا ومتمما بعضه لبعض ومفتوحا للخطوات التوحيدية ومساعدا عليها، فان حلف بغداد ايضا يحاول ان يقدم انتعاشا مصطنعا متلائما مع المصالح الاستعمارية تشرف عليه الطبقة الرجعية، ومشاريع اعمار يكون نصيب الشعب منها النصيب الذي قد يخدره دون ان يطلق طاقته ويرفع مستواه.

واذا كان من ملامح اليقظة العربية تسليح نضال الشعب بالسلاح المادي وانماء القوة العسكرية كي يتمكن الشعب من نفسه ويزداد ثقة بنجوع نضاله، فحلف بغداد ايضا يمني نفسه الاماني الكاذبة بالقوة العسكرية ويعمد لفصل القوة المسلحة عن نضال الشعب، وبث التناقض والتشكك كي يقيم بينهما توازنا. واذا كانت الحركة العربية الجديدة تهدف الى توحيد الاقطار العربية، ولكن مفهومها للوحدة ان نسيجها هو وحدة نضالية شعبية يكون من ثمراتها الوحدة السياسية، فحلف بغداد يقدم ايضا وحدة هي وحدة الطبقة الرجعية والخونة والعملاء من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي، اي وحدة الطبقة المتمسكة بالتجزئة والمستغلة لها والمتآمرة على شخصية الامة العربية ووجودها. فساسة الحلف لا يكتفون بالضغط على سورية والاردن ولبنان لربط هذه الاقطار بحلف بغداد، بل يتصلون ببعض ساسة المغرب العربي

ويشجعونهم على ربط المغرب بحلف الاطلسي والتنكر التام للعروبة .

واذا كانت الحركة العربية الجديدة تتجه في المجال الدولي الى اقامة السياسة العربية على اساس استقلال الامة العربية عن سياسة التكتلات الدولية وحيادها ودورها الايجابي الخاص بالنسبة الى الانسانية ، فحلف بغداد اتخذ هدفا اخر هو الانحياز التام الى المعسكر الغربي بحجة مكافحة الشيوعية ، ومقاومة خطر الاتحاد السوفياتي ، ولعب على فكرة خطر اسرائيل وضرورة مقاومتها في حين انه بتبعيته للاستعمار يمكن لاسرائيل ويؤمن وجودها وبقاءها على حساب الوجود العربي .

واخيرا اذا كانت الحركة العربية تهدف الى وقاية السلام وتدعيمه فحلف بغداد تقدم بهدف اخر حين كون اتجاها نحو سياسة المعسكرات والاحلاف العسكرية والحرب .

فشل الاستعمار وظفر العرب : ولكن الاستعمار رغم خطته هذه التي ظنها متكافئة لليقظة العربية ورغم ما حرك من فئات من العرب سلحها بمنطق كامل من المغالطات لتزييف اهداف هذه اليقظة وطريقها ، فقد فشل في قطرين ، سورية والاردن ، وصعق امام ثورتين في الجزائر ومصر ، فانكمش على نفسه وتحدد عمله بشراء بعض الضمائر واستئجار بعض العملاء والخونة للتخريب والتفرقة واثارة الفتن ، ولم يجد مناصا من تمزيق اقنعته واللجوء الى العدوان السافر فسجل على نفسه فضيحة تاريخية وسجل العرب بمقاومتهم تحولا تاريخيا .

اثر كارثة فلسطين : واذا كان الوعي والنضال العربيان قد فككا هذه الخطة المحكمة واستبانا اغراضها الخفية وهدماها ، فان كارثة فلسطين هي التي اعطت احدهما العمق والنفاذ والاخر الصلابة والتنظيم . فقد حزت الكارثة في الضمير العربي وواجهت الشعب بوجوده ومصيره فكانت منطلقه الى اعادة النظر في التكوين الداخلي لكل قطر وفي نوعية التضامن بين الاقطار العربية وفي تحديد موضع العرب من الانسانية والعالم ، وهكذا طرحت على الشعب العربي من اعماق المأساة مشكلات وجوده الموحد وصورة هذا الوجود الاجتماعية الموضوعية وعلاقته بالوجود الانساني ، فانبثقت ثورتا مصر والجزائر وارتبطت مصر بالمصير العربي بشكل واع

وجدي، وبرزت السياسة المتحررة.

وما كانت كارثة فلسطين لتحدث كل هذا الاثر العميق ولتعطي كل هذه النتائج الايجابية لولم يسبقها قبل بضع سنوات في سوريا والاردن والعراق ولبنان اتجاه عربي واضح الاهداف قائم على أسس نظرية ونضالية جديدة، عبر عن وجهة العرب العميقة في هذه المرحلة من تاريخهم وتاريخ الانسانية وهو الاتجاه الذي مثلته حركة البعث، وقد جاءت الكارثة مثالا حيا مؤكدا صحة هذا الاتجاه فأغنته وفتحت امامه سبل امتداده كما كان هومن اهم العوامل التي حولت موقف العرب امامها من ان يكون موقفا سلبيا ينتهي الى التفكك والانحلال الى موقف ايجابي يحيل الكارثة الى مرتقى في طريق النمو العربي.

وحين اكره الاستعمار على الانتقال من معركة السياسة والتآمر للقضاء على اليقظة العربية، الى معركة العدوان السافر على مصر وعلى تمزيق جميع اقنعة الرياء التي كان يلتف بها، وحين اكرهت اسرائيل على ان تنكشف امام العالم بأسره.. وتبدو على حقيقتها اداة للاستعمار وجزءا منه، وكانت معرفتها من قبل مقصورة على الشعب العربي، بل على قسم منه، أتى كل ذلك برهانا على مدى القوة التي بلغها التيار العربي الجديد، ومدى الخطورة التي أحس بها الاستعمار واسرائيل على وجودهما.

واذا كانت ثورية السياسة العربية المتحررة وجرأتها قد جلبتا بعض الخسائر فقد جلبتا ايضا اضعاف هذه الخسائر من المكاسب للقضية العربية، إن بالنسبة للشعب العربي وإن بالنسبة للعالم. لقد كانت المعركة ثمينة وكانت تجربة مصر القاسية ثمينة، وكأنما كان العرب في حاجة الى هذا العدوان، ولقد كان شيئا حيويا بالنسبة اليهم في مرحلتهم الحاضرة.

لقد حسمت المعركة بضربة واحدة سياسة دامت عشرات السنين كلها مساومات وانصاف حلول وكلها تهرب من المعركة الحاسمة، وكلها نضال يقوم به الشعب بعفويته ويفرضه فرضا على الحكام والزعماء، فيثلمونه ويخدرونه ويمنعونه من الوصول الى غاياته.

أما في هذه المرة فقد تعهد قادة الثورة في مصر اتجاهات الشعب العفوية وطاقته

النضالية بالتجاوب معها والرعاية والتنظيم فازدادت الاتجاهات وعيا وعمقا ونفاذا وشمولا ، واكتسب النضال ثباتا وطمأنينة وكان امتحانا لاستعدادات الشعب تخمرت منذ سنوات، واجتاز قسم من الشعب العربي هذا الامتحان المرير ببطولة.

لقد أتى هذا العدوان برهانا حسيا على صحة الاتجاه الجديد القائم على الشعب، ودور الشعب في المعركة، وسيكون له نتائج ضخمة حين يعمم مابرهن عليه الشعب في مصر على الاقطار العربية جميعا.

وقد ارتدت تجربة الاتجاه الجديد، في الاعتماد على الشعب والاستلهام منه وتنظيم طاقته الثورية، ومصارحته ومشاركته في تخطيط سياسة بلاده وتحمل مسؤولية مصير الوطن، على الشعب ذاته، فاستيقظ الوعي لدى ابعد الطبقات ونفذ الى حيث كان من المستبعد ان ينفذ بسهولة ويسر، وانصب على طريق النضال قوى لم تكن في الحسبان.

كما ان هذا العدوان، والمستوى الذي بلغه الشعب كانا سببا لطرح القضية العربية طرحا واضحا على الرأي العام العالمي، فتحركت كافة القوى الحرة الثورية في اقطار الارض كافة ونهضت للاشتراك بالمعركة. لقد فرض عليها الخروج عن جهلها أو اهمالها او حيادها وشعرت بارتباط مبادئها ومصالحها في المعركة القائمة في ارض العرب. وكان ذلك من المكاسب الكبرى.

وأكد هذا التفهم الانساني والدعم للقضية العربية الاتجاه القومي العربي نحو الانسانية. ففي الواقع، وهذا دليل على سلامة الاتجاه العربي في هذه المرحلة التاريخية، انه في الوقت الذي تفتحت في الشعب العربي أواصر وحدته القومية انكشفت امامه بوضوح وعمق أواصر ارتباطاته الانسانية وبالتالي دوره في التاريخ الانساني، وفي هذا وفي تمتين هذه الصلات الانسانية اكبر ضمانة لسلامة المستقبل العربي.

القومية والانسانية : وليس مستغربا ولا من قبيل المصادفة ان تتضح صلتنا

بالانسانية وتقوى في الوقت نفسه الذي تتضح فيه مقومات وحدتنا العربية ويقوي اندفاعنا في طريق تحقيقها. فنحن كلما اقتربنا من انفسنا زاد قربنا من الانسانية، وكلما أطمأننا على شخصيتنا ازدادت هذه الشخصية انفتاحا على الاخرين. وان تجربتنا العميقة القاسية لحاضرنا تؤهلنا لان نفيد من تجارب تاريخنا، ومن تجارب التاريخ كله، ولان نتحاشى الاخطاء والانحرافات في ماضينا وماضي الامم الاخرى، فتربط ربطاً مبدئيا حيا بين قوميتنا وانسانيتنا ولا نسمح بأي انقطاع او مسافة بينهما، لانه لن تصل القومية الى الانسانية اذا اعتبرت بدئيا؟ منفصلة عنها او مرحلة لها، فالانسانية هي في القومية لا قبلها ولا بعدها، وليس ثمة قومية وانسانية، بل قومية انسانية «وهي الصحيحة» وقومية منحرفة مشوهة لانها منفصلة عن الانسانية. وكل ماظهر في تاريخ القوميات من تعصب واتجاه نحو الاغتصاب والاستعمار انما مرده الى انه سلم فيها بالبدء بانفصال القومية عن الانسانية او بامكان البدء بالقومية وانمائها للوصول في مرحلة اخرى الى الانسانية.

لقد ربح العرب معركة لم تكن هينة كما خسر الاستعمار معركة جدية ولكنها ليست اقسى معاركه ولا آخرها، فما هي العبرة التي حصلنا عليها والتي تفيدنا في تخطيطاتنا المقبلة وفي وعينا ونضالنا لمواجهة المعارك المحتملة دائما وبالتالي في اعداد مستقبلنا؟

لقد برزت قوة مصر في اتجاه عربي سليم وكان ذلك اكبر ظفر للعرب في هذه المرحلة. ولئن استحقت مصر في عهدها الجديد مكان الصدارة في القيادة العربية فلا يجوز ان يلقى العبء كله عليها، لاننا نكون كأنما ندل الاستعمار على هدفه الذي اذا اصابه بمقتل حل كل مشكلاته في الوطن العربي، ولذلك يجب ان يتحقق في كل قطر عربي ماتحقق في مصر من حيث العمل الداخلي، من رجوع الى الشعب ومصارحته وتأمين حاجاته الاجتماعية وتطهير جبهته الداخلية من الخيانة والمرض.

وحدة النضال: كانت المعركة الاخيرة مناسبة لدفع وحدة النضال العربي خطوة

جديدة جريئة الى الامام ولكن لا بد من الاعتراف بأننا مازلنا مقصرين عن الوحدة النضالية المنظمة الخلاقة. فكثيرا ما تستبهم الحدود بين توحيد النضال وتوحيد السياسات الرسمية، ويستعاض عن ذاك بهذا، في حين ان الاصل والاساس هو الاعتماد على نضال الشعب العربي ومن ثم يمكن الاعتماد على السياسات الرسمية، بمقدار ماتتجاوب مع هذا النضال وتتأثر به، وليس توحيد النضال بمجرد تنسيق لاشياء موجودة بل هو خاصة خلق للنضال حيث لا يوجد، وتنظيم له ورفع لمستواه حيث يوجد، ثم من بعد ذلك هو تنسيق.

الثقة بالنفس وبالمبادىء: كانت المعركة الاخيرة مجالا ايضا لظهور الوجه الايجابي الاصيل للحركة الثورية العربية. فبينما كان الكثيرون يخشون على مصر ورجال ثورتها من ردة انهزامية نتيجة لتآمر بعض الحكومات العربية عليها ولضعف تضامن بعض الحكومات الاخرى معها، جاء خطاب الرئيس عبدالناصر على اثر المعركة يؤكد سلامة الاتجاه العربي في مصر وعمقه عندما اعلن ان الشعب العربي في جميع اقطاره تضامن تضامنا فعالا مع مصر العربية وان معركة مصر كانت معركة العروبة. فهو اذن لم يحكم على الشعب العربي من خلال الاوضاع الشاذة التي يفرضها عليه الاستعمار والطبقة الرجعية وهو بهذا الموقف الواثق بالامة العربية وامكانياتها والمؤمن بالمبادىء الثورية الشعبية، لم يكتف بأن سجل واقعة عن تضامن الشعب العربي مع مصر، بل قوى هذا التضامن وغذاه وفتح امامه مستقبلا لا حد له. وهذا الوجه الايجابي لحركتنا الثورية هو اكثر مانحتاج اليه في مرحلتنا الجديدة لكي نتجنب المواقف المنفعلة القصيرة النظر، ونبني احكامنا وتصرفاتنا القومية على اساس الثقة والتفاؤل بامكانيات شعبنا واصالته.

كما اننا في مرحلتنا الجديدة بحاجة الى هذا الوجه الايجابي الاصيل في موقفنا من العالم. فنحن بعد اليوم مسؤولوّن عن العالم وسلامة اتجاهه وأوضاعه بقدر ماهو مسؤول عنا. وقد مضى الزمن الذي كنا فيه نكتفي بنقد الدول والامم الاخرى ومحاسبتها على ابتعادها او مناقضتها للمبادىء التي تدعيها، ونثق بهذه المبادىء او

نتشكك فيها، بمقدار مانجد عند الاخرين من انصاف لنا او اجحاف بحقوقنا. فهذه المبادىء لم تعد وقفا على غيرنا، وان تبنينا الايجابي لها سيؤثر حتما في نجاحها وفي تدعيم صف الحرية والعدالة في العالم.

البنيان الداخلي هو الاساس: لقد اصبح واضحا ان العرب حققوا في مختلف اقطارهم خطوة في التقدم، وظاهر هذه الخطوة انها ظفر على الاستعمار وكسب للحرية، اما مادتها الباطنية فهي انها تقدم شعبي داخلي في الفكر والاقتصاد وفي التربية السياسية والتنظيم، ولولا ذلك ماامكن احراز هذا الانتصار على الاستعمار. فالموضوع اذا دائما هوبنياننا الداخلي، بنياننا القومي، هو دائما انشاء مجتمعنا وبناؤه لأن الاستعمار في الاساس انما نفذ الى مجتمعنا من ثغرات ضعف البنيان الداخلي والتخلف والامراض الاجتماعية. فاذا كان مفروضا علينا دائما ان نكافح الاستعمار، واذا كنا نعلم ان معاركه المقبلة معنا ستكون اقسى واكثر اتساعا من معاركه السابقة، فيجب ان نعلم ايضا ان مادة هذه المعارك ومادة الانتصارات انما هي في سد الثغرات في جبهتنا الداخلية، انما هي في الانشاء والبناء الداخلي. ان علينا كلما ازددنا تقدماً في تحررنا الخارجي، ان نزداد جرأة في مواجهة امراضنا الداخلية ومعالجتها. وابرز ما في بنياننا الداخلي الوضع الاجتماعي، فواجبنا ان ننقذه من تناقضاته الجارحة وان نقضي على التفاوت بين الطبقات والاستغلال الطبقي لنوصله الى السلامة والانسجام والازدهار. كما ان هناك امراضا فكرية ونفسية كالعصبيات في مختلف صورها العنصرية والطائفية والعشائرية، والجهل وسواها، يجب ان تحسن مواجهتها بالعلاج الناجع.

لقد ربحنا معركة، فعلينا ان نوجه جزءا من الربح الى داخل البيت لنصلحه، فنكون اشد مناعة وأكثر تهيؤا لمواجهة الاخطار والمعارك المقبلة.

كانون الاول ١٩٥٦

دور معركة الجزائر في نضالنا

مشكلة فرنسا مع الجزائر أعمق مشكلة تعرضت لها فرنسا، وفضحت فيها، وعرف فيها ضعفها وأسباب ضعفها، لان مشكلة الجزائر جاءت بعد انتهاء مشكلة الهند الصينية، فلو كان كيان فرنسا ما يزال يملك المقومات الايجابية لكان ينبغي أن تكون أقدر على حل مشكلة الجزائر، بعد ان ارتاحت من عبء الهند الصينية واستعمارها المرهق. ان مشكلة فرنسا مع الجزائر أضخم من مشكلتها مع الهند الصينية، وهي تثير أزمة أعمق واوسع. ان فرنسا تنظر الى ارض الجزائر خاصة، والى ارض المغرب العربي عامة، على انها امتداد حيوي قريب لارضها، وان حرمانها من هذا الامتداد يهدد حياتها، اقتصاديا وعسكريا الخ. ورغم ذلك نرى اكثرية الشعب الفرنسي تقف ضد سياسة الحكومات في تشبثها العنيد المصطنع باستعمار المغرب والجزائر. ومعنى هذا انه اصبح هناك تناقض واضح جدا بين مصلحتها القومية التي يمثلها الشعب ويعبر عنها، وبين وضعها الاجتماعي الذي تدافع عنه الحكومات لمصلحة فئات مستثمرة ليس للجزائر فحسب، بل للفرنسيين أنفسهم ايضا. نستطيع ان نقول ان فرنسا منذ زمان، والآن خاصة، في حالة تفسخ، وقد يؤدي هذا الى ولادة شيء جديد، وقد لايؤدي الى شيء من ذلك.

وقد ظهر هذا التفسخ في الحرب الاخيرة، وظهرت في مقابله بقايا الايجابية والحيوية في فرنسا، تمثلت في مقاومة الالمان. وقد ادركت العناصر الموجهة في حركة المقاومة عمق المشكلة التي تعانيها فرنسا، ادركت أنها مشكلة أساسية تتناول النظام الاجتماعي كله، وحاولت أن تكون هذه المقاومة مناسبة لنهضة فرنسا على أسس جديدة. ولم تكن هذه العناصر كافية، كما ان العناصر الاخرى غير الثورية دخلت معها، وحدّت من عمق حركتها وشمولها فاقتصرت هذه الحركة آخر الامر على تحرير فرنسا من الاحتلال، وبقيت المشكلة الاساسية معلقة.

ومرة أخرى انتصرت فرنسا انتصارا كاذبا قائما على الغش (لقد كان انتصارها عام ١٩١٨ كاذبا، وكان عام ١٩٤٤ أكذب، فقد قام على مساعدات أجنبية وعلى

تغطية للمشاكل الاساسية). وطبيعي ان لايحول هذا الانتصار المغشوش دون ازدياد المشاكل الداخلية والخارجية.

في بلد كفرنسا يملك هذه الحضارة وهذا الوعي، كل كلمة تقال، وكل موقف يتخذ، تكمن وراءه مصالح حيوية. فموقف احرار الفكر، الى جانب موقف الاحزاب اليسارية، الى جانب تظاهرات الشعب نفسه، ليست مجرد مثالية مجانية، وانما هي تعبر عن مصالح واقعية لهذا الشعب الفرنسي نفسه، وهذه المصالح نفسها تصرخ: يجب ان تستقل الجزائر وان تتخلص فرنسا من الاستعمار، فكأنهم لايهبون الاستقلال للجزائر بل يطلبون تحررهم من عبء استعمارهم للجزائر، يطلبون التخلص من اوضاع ستؤدي بفرنسا الى الانحلال المحقق. والواقع يرينا ان هذه الفئات الاستعمارية المحصورة بالشركات الرأسمالية والطبقة الاقطاعية تشتري الحكومات والصحافة والجيش نفسه وتتستر وراء الشرف القومي والكرامة الفرنسية والمصلحة القومية وهيبة فرنسا ومستقبلها ولكن هذا كله اصبح بالنسبة الى الشعب الفرنسي مفضوحا ولا يلقى لديه أي صدى.

ان مصالح الشعوب لا تتصادم، فمصلحة الشعب العربي في الجزائر والمغرب تتمشى مع مصلحة الشعب الفرنسي في التحرر من أوضاعه الجائرة. وفي هذا ضمانة لانتصار نضال العرب في المغرب، لان كل امعان من قبل فرنسا في السياسة الاستعمارية، ان كان يوقع ضررا في عرب الجزائر، فهو يوقع في مصالح الشعب الفرنسي اضعاف هذا الضرر مما يؤدي الى ثورة الشعب الفرنسي.

على ان هذه الضمانة ليست بالوحيدة ولا هي الضمانة الأولى او الأهم، فالضمانة الاولى ايجابية لا سلبية، اي هي لا تأتي من ضعف العدو بل من قوة العرب أنفسهم ومن وعيهم لمصالحهم وتفتح امكانياتهم الهائلة التي ظلت خلال زمن طويل مكبوتة ثم حركها الظلم والاستثمار واخذت تتفجر في كل مكان من أرجاء الوطن العربي وتأتلف وتتناسق.

وينبغي ان نشير الى فروق اساسية بين المعركة التي يخوضها العرب في شتى أقطارهم في هذه المرحلة التاريخية، وبين العدوان الاستعماري وما يخفي وراءه وما

يعبر عنه. فمعركة العرب معركة ايجابية بكل معنى الكلمة لانفسهم وللعالم، فبمقدار ما يتحررون يحررون العالم، وهي معركة صادقة تنبثق شعاراتها من صميم واقعها، وهي لذلك قوية بالنسبة الى العرب وبالنسبة الى الرأي العام العالمي لانه ليس فيها تزييف ونفاق، وهي معركة رابحة لانها تقوم على الشعب كله وتسير في اتجاه مصلحة الشعوب، شعوب العالم. وهي اذن معركة انسانية، هي معركة الحضارة والقيم الانسانية والمستقبل، اما معركة الاستعمار فهي نقيض ذلك كله. ومعركة العرب معركة موحدة، توحد العرب انفسهم وتوحدهم مع التاريخ والعصر والشعوب، اما معركة الاستعمار فهي معركة مجزئة، تقسم البلد الاستعماري على نفسه، وتخلق اعمق الازمات بين فئات الشعب الواحد وتفضح تناقضات الوضع المؤدي الى الاستعمار وتعزل الدول الاستعمارية عن شعوب العالم واتجاه الحضارة. وهي كذلك معركة سلبية رغم هجومها الظاهر، فهي تهاجم لتدافع عن بقايا مصالح لم تعد تأتلف مع اتجاه العصر... وهي معركة قاضية، فشعوب الدول الاستعمارية تصبح يوما بعد يوم اقل تحمسا لهذه الحروب الاستعمارية، وهي تنسحب منها انسحابا متزايدا لتقتصر المعركة أخيرا على اصحابها الحقيقيين بدون قناع: الرأسماليين والمغامرين والمرتزقة الذين يستفيدون من الحروب، وعندما تصل الى هذا الحد، تكون قد وصلت الى نهايتها، لأن الحروب الاستعمارية لا تقوم على الاستعماريين وحدهم بل على قدرتهم على خداع شعوبهم، وعلى زجها في تلك الحروب.

ان حدا ادنى من الوعي كان ضروريا ليبدأ العرب نضالهم القومي التحرري ولكن هذا النضال نفسه كان باستمراره واتساعه وتوالده ينمي في الوقت نفسه ذلك الوعي الذي يولد النضال ويرفع مستواه ويكشف عن آفاق جديدة له. وان ما يطلب منا اليوم هو ان نعود فنرفع نضالنا الى مستوى الوعي الجديد الذي خلقه النضال.

لقد كنا قبل عشرات السنين لا نطمع في اكثر من رفع القيود عن انفسنا وعن وطننا معتبرين هذه المرحلة مرحلة سلبية، على هامش حياتنا وتاريخنا وعلى هامش الحياة والتاريخ، منتظرين يوم التحرر الكامل ليدخلنا الى التاريخ. واليوم ندرك اننا

دخلنا التاريخ منذ بدأنا النضال، وان كل قيد حطمناه سواء من قيود الاستعمار أو قيود اوضاعنا البالية المساعدة للاستعمار، كان في الوقت نفسه قيدا من قيود الانسانية يتحطم وحجرا من احجار المستقبل يرتفع.

وان رسالتنا الانسانية لم تعد ذلك الشيء البعيد الآجل الذي يبتدىء بعد الاستقلال وبعد الوحدة وبعد الثورة الداخلية، بل اننا اخذنا نحيا هذه الرسالة ونؤديها منذ اللحظة التي وعينا فيها انه يجب ان تكون لنا رسالة.

نحن اليوم في قلب التاريخ الانساني، نؤثر فيه اكثر مما نتأثر به، فبقدر ما نهدم من أوضاعنا الاستعمارية والاستثمارية، ونساهم في تحرير الشعوب المستعمرة لنا بقدر ما يكون نضالنا ضد الاستعمار صادقا وشاملا ومعبرا عن تجربتنا القومية التي هي تجربة الانسانية.

كانت عقيدتنا حافزا ومحركا، واليوم حان الوقت لتصبح منهاجاً عمليا نعبىء اقصى امكانياتنا لتحقيقه في وعي تام لأهداف نضالنا القومي البناء، فهل قدّرنا الموضع الخطير لمعركة الجزائر من هذا النضال؟.

عام ١٩٥٦

في الحياد الايجابي

ان حركة البعث ترى انه ليس من مصلحة الامة العربية ، في المرحلة الحاضرة من التاريخ ، ان ينهار أي من المعسكرين الرأسمالي او الاشتراكي . وهي لهذا قد دعت منذ البداية الى الحياد، وبفعل الزمن والاحداث المحلية والدولية اتخذ هذا الحياد شكله الايجابي القائم الان لدى عدد كبير من الشعوب الاسيوية والافريقية . وهذا الحياد الايجابي لا يجد مبرراته في الدواعي السياسية والاقتصادية وحدها ، بل يبرره ايضا موقفنا الحضاري وموقفنا من مشكلة الحرية ، في الصراع الدولي السياسي والعقائدي المحيط بنا ، كما تتجلى آثاره في علاقات اقطارنا بعضها ببعض ، وفي علاقات مختلف الفئات داخل كل من هذه الاقطار على حدة ، بحيث يمكن القول ان هدف الحياد هو سلم عالمي وسلم داخلي عربي أيضا .

ونقول انه ليس من مصلحة الامة العربية الآن ان ينهار أي من المعسكرين العالميين ، لأن انهيار المعسكر الاشتراكي معناه ظفر المعسكر الرأسمالي الاستعماري وزيادة سطوته الاستغلالية على مواردنا وثرواتنا وانتقاصه من سيادتنا . كما ان انهزام المعسكر الرأسمالي يعني بالمقابل اكتساح الفكرة الشيوعية للعالم بما تتضمنه من انكار للقومية والحرية . فمصلحتنا هي في ان يتطور كل من المعسكرين ، يتطور المعسكر الرأسمالي نحو الاشتراكية والتنازل عن الاستعمار، ويتطور المعسكر الاشتراكي نحو الحرية في داخل الاتحاد السوفياتي ، ونحو الاعتراف بحقوق القوميات الاخرى في اختيار طريق تحقيقها للاشتراكية في خارجه ، ولن ينفسح المجال لتحقيق هذا التطور بشقيه الا اذا امتنعت الحرب .

وقيام جبهة كبيرة من شعوب العالم بسياسة الحياد، أي برفض أنهيار احد المعسكرين سريعا هو رفض للحرب واعتراف بضرورة السلم . وان النجاح الذي حققته سياسة الحياد حتى الان هو دليل واضح على وجود نقص أساسي وخطر كبير في سياسة المعسكرات والانقسام المذهبي الضيق ، اذ لو كان احد المعسكرين العالميين محقا في دعوته وسياسته لما وقف قسم كبير من العالم خارج هذا الصراع

لايرى فيه مشروعية ولامصلحة. فسياسة الحياد تعني الحكم على كلا الطرفين بالخطأ، وان كان ذلك لايشترط تساوي الخطأ ولاتساوي الضرر. وكون هذا الحياد (ايجابيا) يعني ان هذا القسم غير الصغير من العالم الذي اخذ بالحياد لايكتفي بسلبية الرفض والتنصل من الخطأ وانما يأتي بحل جديد. وبهذا المعنى تصبح فكرة الحياد الايجابي اشمل من عدد الشعوب الآسيوية والافريقية، واعمق من المستوى السياسي البحت الذي يعبر به عادة عنها. فالحياد الايجابي - بمعنى التطلع الى موقف جديد شامل - يرتفع فوق ذلك التضاد بين الاشتراكية والرأسمالية، ويتعمق في المشكلات الانسانية والعلاقات الدولية أكثر من ذي قبل، مستفيداً من جميع التطورات والتبدلات التي تمت منذ وضعت نظرية التضاد هذه، وخاصة منذ تبلور الانقسام والصراع بين المعسكرين الغربي والشرقي. وبالتالي، فأن هذا الموقف الجديد يشترط التحرر التام من كل نظرة مذهبية بغية اعادة النظر في جميع النظريات والمذاهب وفي الخطط والاساليب المستمدة منها، كما يتطلب توفير الجو والشروط التي تسمح بالتخلص النهائي من منطق الصراع بين هذه النظريات بشكل واقعي سلمي.

والفهم الدقيق لسياسة الحياد يقتضيها ان تتوافق مع المراحل الطبيعية الضرورية لنضج النضال القومي في كل نواحيه. واذا كان اول واجباتنا أن نعبىء كل القوى الممكنة لانهاء الاستعمار وتحقيق الاشتراكية في أسرع وقت، فأن هذه السرعة ليست غاية في ذاتها، ولايجوز ان ندفع ثمنا لها الارتماء في المعسكر الشرقي، مستعينين بقوة مصطنعة خارجة عنا، وهي بالتالي تحمل بذور أخطار جديدة علينا، ومتجاهلين ضرورة نضج الشعب في نضاله، هذا النضج الذي يضمن له وحده النضج في حماية مكاسبه. ان أنضمامنا للمعسكر الشرقي قد يكون هو أقصر الطرق الى التخلص من الاستعمار، لكننا نضحي بالطريق الاقصر لكي نصل في النهاية الى الحل الافضل: التخلص من الاستعمار، والحرية في الداخل، وممارسة كل حقوقنا القومية. وهذا المنطق يؤدي بنا الى ان الموقف الوحيد السليم الذي يجب علينا التزامه في هذه المرحلة هو موقف الحياد الايجابي.

ومـوقف الحيـاد الايجـابي هو ايضا موقف حضاري جديد وخلاق بين الحضارتين المتصـارعتين لا يتبنىٰ تبنيـا كليـا لا القيم الشـرقيـة ولا الغـربيـة. ولا يقبل التعصب الاعمى لمذهب معين، ولا العداء الاعمى لنظام او فلسفة معينة. وموقفنا من الحرية هو ايضا موقف الحياد الايجابي بين المعسكرين لقد افرغ الغرب الحرية من محتواها حتى امست عنـوانـا اجـوف لا مضمـون له، وجـاء موقف الشرق في الواقع كرد فعل لتـزييف الحـرية في الغرب، فنفىٰ الحرية نفيا كليا. أما نحن فنرىٰ أن الجواب على تزييف الحرية لا يكون بالاستغناء عنها، وانما بتطبيقها تطبيقا صادقا. ان ما يزعم انه معركة الحرية بين الغرب والشرق هو في الواقع ضد الحرية، لأن الحرية واستئصال الخصم لا يجتمعـان. ولقـد رأينـا الحـريـة تستيقظ في المعسكر الشرقي حين خف ضغط الغرب عليه، فلما عاود الغرب ضغطه وتهديده، عادت قوى الحرية فانكمشت من جديد، كما حدث في المجر مثلاً، فالعدوان الاستعماري الغربي هو الذي أوقف حركة التحرر في أوروبا الشرقية وكان ممكنا ان تنمو وتصبح حركة سليمة ايجابية.

وبالتالي، من هذه الزاوية ايضا، يبرز اثر ايجابية الحياد على الصعيد الانساني. فهي في الواقع لا تهدف الى مجرد تأمين مصلحة الشعوب القائمة بهذه السياسة، بل تتجاوزها الى تأمين مصلحة شعوب المعسكرين المتناحرين ايضا. فهي، من جهة، تتيـح لحكـومـات المعسكـر الشرقي مجال تصحيح موقفها من شعوبها بالاتجاه نحو الحـريـة، ومن جهـة اخـرى تعمل، بانسجامها مع مصلحة الشعوب الغربية نفسها، على ان تزداد الهوة القائمة بين هذه الشعوب وبين حكوماتها الرأسمالية الاستعمارية، لتـدفعهـا تدريجيا الى الاشتراكية، والى طرح الاستعمار والاعتراف بحقوق الشعوب وسيادتها. وسياسة الحياد لا تعني رفض التعامل مع الغرب، بل رفض احتكار الغرب لهـذا التعـامـل، وتقبـل بالتعـامل مع الغرب والشرق على السواء، تحقيقا لمصلحة شعوبهما ومصلحتنا في وقت واحد.

من هذا كله، يتبين ان مهمـــة الحيـــاد الايجـــابي هي منـع انفجـار الصـراع بين الديموقراطية بمعناها العميق الشامل وبين العدالة الاجتماعية في صورتها الاشتراكية الكـاملة. ان كلا المعسكـرين يراهن على المستقبـل، المعسكـر الغـربي يقـول ان

الـديمـوقـراطيـة اذا روعيت بشكلهـا الكـامـل تضمن في النهـايـة تحقيق العـدالـة الاجتمـاعيـة، والمعسكـر الشـرقي يؤمن بأن تحقيق العـدالـة الاجتمـاعيـة هو الذي سيؤدي في نهـايـة الامـر الى الـديمـوقـراطية الصحيحة. وكلا المعسكرين بالتالي، يعتـرف بافتقـاره الى تصحيح أوضاعه، ولكنه لا يسلك السبيل الى ذلك، بل يحاول تسـويف هذا التصحيـح الى ما بعـد القضـاء على المعسكـر الاخـر، أي انـه ينفي الضمـانـة الكبـرى لهـذا التصحيـح. أمـا الحيـاد الايجـابي فيـدعو الى ان يتم هذا التصحيـح الان لا في المستقبـل، أي ان يصحـح المعسكـر الشرقي نفسه مع وجود الغـرب، متطـورا نحـو الحرية، وان يصحح الغرب نفسه مع وجود الشيوعية، متطورا نحو الاشتراكية وتصفية الاستعمار. وهكذا يرد الحياد الايجابي سياسة الاحراج - أي احراج الدول غير المنضمة الى احد المعسكرين بدعوى انه يجب القضاء على العدو قبـل أن يصحـح كلاهمـا خطأه - هذه السيـاسـة التي يتضمنهـا منطق التنـاحـر بين المعسكرين، ويتيح فرصة لكل منهما للتصحيح، ويحول دون دخولهما في معركة، ويضمن السلم للعالم.

وكذلك في داخل بلادنا تضمن سياسة الحياد السلم. ذلك ان الحياد هو السياسة التي تسمـح للفئـات التي لا تقـاوم الاستعمـار مقـاومـة عنيفـة أن تنضم الى النضال الشعبي، اذ من الصعب على هذه الفئـات أن تظهـر رفضهـا لسيـاسة تحارب التبعية والاستعمـار، وان كانت لا تخلص حقـا لهـذه السيـاسـة بسبب الارتبـاط الـوثيق بين السيـاسـة التحـررية وبين تصفية المصالح الاقتصادية لهذه الفئات، ولأن التحرر من الاستعمـار يؤدي بطبيعتـه الى التحـرر الاجتمـاعي في الـداخـل والى القضـاء على امتيازات هذه الفئات. أما لو تخلينا عن سياسة الحياد هذه وقلنا بالانحياز الى الشرق لتعجيل التحـرر، فان تلك الفئـات الـرجعيـة ستنحـاز صراحة الى صف الاستعمار وتحارب في صفه، ومن ثم تكون الحرب الاهلية في الداخل. وواقع الامر أننا الان في مرحلة تقتضي تركيـز الجهـود للتحـرر من الاستعمار، وان رافق ذلك جهد معتدل نسبيا للتحرر الداخلي والتوحيد القومي، فيجب اذن ان نستفيد من كل قوانا الممكنة في المعـركـة، حتى ولـو كانت بعض هذه القـوى غيـر مخلصـة كل الاخـلاص في

مساهمتها، دون ان يمنعنا ذلك ـ خلال الطريق ـ من ان ننتزع من هذه الفئات بعض الامتيازات ومن ان نحقق بعض الكسب في مجال الوحدة القومية لضمان تقوية نضال الشعب وتحرره.

ومن هنا، يظهر خطأ موقف الشيوعيين العرب من الحياد، اذ يرون فيه كسبا دون ان يروا فيه الكفاية، متخذين في ذلك موقفا هو في الواقع رد فعل يكشف عن ضعف ثقتهم بأمتهم. فكما كانوا في الماضي يعادون القومية والوحدة لانهم لم يكونوا يؤمنون بامكان قيام فكرة قومية او دعوة للوحدة غير رجعية، كذلك تراهم الان لا يكتفون بالحياد للصمود في وجه الاستعمار، بل يبدون من طرف خفي انحيازهم للمعسكر الشرقي، وموقفهم في الحالين موقف رد فعل لموقف الرجعيين وعملاء الاستعمار، ولا يحاولون السمو عنه الى موقف استقلالي أصيل. ان هذا الموقف الاصيل هو الحياد، الذي يحقق السلم الداخلي حين لا يستبق المراحل في النضال ولا يفتح الباب لحرب اهلية في كل قطر من اقطارنا، كما انه ييسر تعاون هذه الاقطار بعضها مع بعض. فالوطن العربي يضم اقطاراً متحررة واخرى غير متحررة، أقطارا بلغ فيها الوعي الشعبي حدا اوصل معه الى الحكم او فرض على رجال الحكم عناصر تقاوم الاستعمار، واقطارا اخرى ماتزال حكوماتها لا تقبل هذه السياسة التحررية لان الشعب فيها لم يبلغ بعد المستوى اللازم من النضج النضالي ولان شروط النضال والتنظيم فيها عسيرة، وسياسة الحياد تتيح لهذه الاقطار المتخلفة ان ينضج فيها هذا النضال حتى تتساوى مع الاقطار الاسبق.ونحن نرى اليوم فائدة هذه السياسة. اذاً بالرغم من ان بعض حكوماتنا تنحاز صراحة الى الغرب، وبعضها ينحاز اليه انحيازا خجولا يحاول ان يجد له المبررات، فأن سياسة الحياد هي التي تجعل هذا الانحياز بهذا التردد وهذا الخجل، وتضغط على الحكومات كي تستجيب للشعب في الانفكاك عن الاستعمار والعمل للتحرر.

القاهرة، اذار ١٩٥٧

الشعب العربي الواحد

كان الاستاذ ميشيل قد اجتمع في القاهرة سنة ١٩٥٧، بعدد كبير من الطلبة والمثقفين العرب، بينهم القوميون والماركسيون وغيرهم. وقد عكس هذا الاجتماع التيارات الفكرية والسياسية التي كانت تشغل أذهان المثقفين العرب في تلك الفترة المضطربة والمحفوفة بالأخطار، والتي كانت، في الوقت نفسه، تمثل اعلى درجات الوعي العربي الجماهيري، والمد الشعبي التحرري الواسع ضد الاستعمار. كما عكس ذلك الاجتماع، بصورة خاصة، تطلع المثقفين من ابناء القطر المصري لتفهمُ القومية العربية وشعاراتها التي كانوا يواجهونها لاول مرة بشكل عقيدة لها منطق ولها فلسفة، سيما وهم يعيشون مرحلة ثورية ونضالية ضخمة اثناء معركة تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر، لمسوا من خلالها اهمية هذه الافكار، حتى قبل ان يستوعبوها بشكل علمي.

لذلك، اراد الاستاذ ميشيل ان يأخذ الحديث في ذلك الاجتماع طابع الحوار، فيستمع الى تساؤلاتهم ومن ثم يوضح لهم رأى الحزب فيها. فكان هذا الحديث الشامل.

سؤال: ما رأيكم فيما يقوله البعض من أن القومية ليست إلا شعار النضال العربي المشترك؟

الواقع الذي لاينكر ان القومية العربية قد استفادت كثيرا من النضال العربي المشترك ضد الاستعمار، ولكن ليس معنى هذا ان القومية هي شعار هذا النضال المشترك، بل الاصح ان يقال ان النضال ضد الاستعمار هو أحد شعارات القومية العربية في المرحلة الحاضرة. وذلك لأن هذه القومية كانت أبدا موجودة، وان اختلفت وضوحا وضعفا، وكانت ابدا تتمتع بالحد الادنى من المقومات الضرورية التي كونتها اللغة والدين والتراث، وهي الان ترتفع فوق هذه المقومات جميعا لتزداد حياة وانسانية.

سؤال: ما رأيكم في قول البعض بان العالم صائر يوماً إلى وحدة واحدة، تندمج فيها القوميات وتنصهر في بوتقة واحدة؟

ان هذه الوحدة قد تتم، وفي ظروف قد لاتكون بعيدة، اذا قصد بها أن تكون تنظيما دوليا او مجرد شكل للحكم. ولكن هذا التنظيم لايكون حيا ولايمكن أن يستمر اذا قصد به ان يؤلف شخصية واحدة تمحو الشخصيات القومية، بدلا من ان تكون تنسيقا لها يزيدها تفاعلا وغنى. ولذلك نقول ان القومية باقية خالدة، تظل ذات شخصية حية ومقومات، ولو ان هذه المقومات كما حدث في الماضي، يمكن دائما

أن تتطور كما يمكن ان تتبدل وتتشتت ولكنها على أية حال تظل باقية لاتزول.

والواقع ان من الخطأ وضع القومية والانسانية كمراحل ترتيب زمني. ان الانسانية موجودة وجود القومية، وهي الان تزداد غنى بتيسر وسائل الاتصال بين البشر، ولكنها لاتذيب القوميات في وحدة تأتي بعدها، بل تغنيها بتفاعلها المستمر، فبدلا من ان نقول ان عهد القوميات سائر إلى الزوال ليفسح المجال أمام عهد الانسانية، يصح ان نقول اننا قد بدأنا فعلا في عهد «القوميات الانسانية» الذي تصبح فيه القومية انسانية بتخلصها من تعصبها وانكماشها وعواملها السلبية الاخرى.

سؤال: لماذا يصر حزب البعث على القول «بشعب عربي واحد» ويتجنب دوما استعمال عبارة «الشعوب العربية»؟

من الخطأ الظن بأن هذه المجموعات من الناس التي تعيش ما بين المحيط الاطلسي والخليج العربي والتي يجمعها الشعور بوحدة المصير، هي شعوب لكل منها المقومات التي تميزه بقومية خاصة، الا اذا أخذت كلمة «الشعب» في أصلها اللغوي الذي يعطيها معنى الفرع في جسم الامة، بمعنى ان له بعض المميزات المحلية التي يفرضها تنوع الاقاليم والبيئات والظروف في اطار الوحدة العامة. واذ ذاك نقول الشعب المصري والشعب السوري بما يقارب المعنى الذي نقول به شعب الاسكندرية وشعب اسيوط، اما اذا قصدنا بالشعب معناه القومي الكامل فكل هذه المجموعات أجزاء في شعب واحد هو الشعب العربي.

وان أكثر الاقطار التي تؤلف الوطن العربي اليوم كانت حتى قبل الفتح العربي، وبرغم الطابع المحلي لكل منها، تؤلف شخصية حضارية واحدة تتغذى بالتيارات الحضارية التي تمر بها، فتغتني بها دون أن تفقد مقومات هذه الشخصية. وقد كانت مهمة الفتح العربي ان زاد شخصيتها هذه قوة ووحدة فظلت حية مستمرة حتى الان، ويكمن فيها تراث كل الحضارات التي سبقتها. ونحن لا نحارب تراث الحضارات المختلفة في قوميتنا ولا نحاول أن نحاربه، بل بالعكس يهمنا أن تغتني به عروبتنا، تماما كما يهمنا ان نتفاعل الان مع حضارات الشعوب الاخرى في العالم.

ولو صح ان كل مرحلة حضارية مرت في بلادنا يجب ان تبعث وان يعترف لها

بقومية خاصة لتعددت هذه «القوميات» في كل قطر من أقطارنا، لا في مجموعة هذه الاقطار فحسب. مع ان الواقع ان كلا من هذه الحضارات الفرعونية او الآشورية او الفينيقية قد أدت مهمتها التاريخية في حينها، وما ظل من تراثها له القدرة على الاستمرار فقد ساهم في اغناء القومية العربية وأصبح جزءا من مقوماتها.

سؤال: ما هو موقفكم من الفئات التي اخذت اخيراً ترفع شعارات القومية العربية؟

ان تبني مختلف الفئات للشعارات العربية التي ينادي بها البعث لدليل على قوة العقيدة القومية، اذ بعد ان كانت تهاجم ويشكك فيها، أثبتت الاحداث عمق تجاوبها مع الشعب العربي، وفرضت نفسها حتى على اولئك الذين لايؤمنون بها كشيء ثابت ونهائي، وان كانوا يقرونها الآن. وهذا بالطبع كسب يجب أن يلقي منا التشجيع وان يزيدنا ثقة بسلامة عقيدتنا.

على ان نجاح الفكرة القومية وانتشارها هذين لايعفيان معتنقيها الاصليين من متابعة العمل والنضال لزيادتها توضيحا وتعميقا وترسيخاً، لانهم بصورة طبيعية أقدر على ذلك من الجماعات الاخرى. فهذا الفارق بين حمل الفكرة يوم كان حملها ثورة على الواقع وتحديا له، وبين تبني الفكرة نفسها بعد ان راجت وتم نجاحها، لابد أن تكون له آثار عملية في المرحلة الحاضرة بالذات وفي المستقبل، حتى عندما نسلم بصدق مقاصد الذين أخذوا يتبنونها، لما يعتور هذا التبني من سطحية واخطاء.

فنحن اذن نرحب بأن ترفع الفئات الاخرى شعاراتنا ولكن على حذر وتحفظ، يضمنان ان تحتفظ الفكرة القومية بأصالتها وبكل طاقتها الثورية. اذ لو اكتفى الناس بتبني نتائج الثورة دون أن يصعدوا إلى أسبابها ومقدماتها وأسسها، لكانت معرضة دوما للانتكاس أو للتخلي عنها في حال تبدل الظروف. فما نقصده بالحذر والتحفظ انما هو الاصرار والالحاح، في المجال الفكري العقائدي، على ربط النتائج بالمقدمات لنرتفع بالشعارات القومية العربية من مستوى الاستهلاك السياسي إلى مستوى القناعة.

سؤال: ما هي علاقة الوحدة العربية بالقومية العربية؟

ان الوحدة العربية ليست هي القومية العربية كما يشعر بذلك التعبير المتداول الان، بل هي جزء من محتوى هذه القومية في مرحلة من المراحل، فالنظرية القومية للفكرة العربية في هذه المرحلة تقوم على تحقيق الاهداف الثورية الثلاثة: الحرية والوحدة والاشتراكية. النظرية القومية تنشأ في مرحلة لتحقق أشياء مفقودة في حياة الامة العربية في هذه المرحلة، اما القومية العربية نفسها فهي أبدا موجودة قائمة.. ووجودها هو الذي يسمح بتحقيق الحرية والاشتراكية والوحدة.

ولقد كانت الوحدة مطلبا للامة العربية منذ أن طرأت عليها التجزئة، فالبعث لم يخلق مطلب او هدف الوحدة ولكنه اعطاه مفهوما جديدا جعله قابلا للتحقيق. فالوحدة في نظر البعث فكرة ثورية وعمل ثوري، خلافا للمفهوم الذي كان سائدا والذي لم تزل آثاره ممتدة إلى اليوم والذي يعني مجرد الجمع والربط بين أجزاء الوطن العربي، أما المفهوم الثوري فيعني خلق التفكير والنضال المناقضين لحالة التجزئة ولما أورثته واصطنعته التجزئة من عقلية وعواطف ومصالح وأوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية داخل كل قطر من أقطار الامة.

وهكذا تتصل الوحدة، بمفهومها الثوري، بالهدفين الثوريين الآخرين: الحرية والاشتراكية، وتتفاعل معهما وتغذيهما وتتغذى منهما. وهكذا تدخل الوحدة لأول مرة منذ أجيال في صميم حياة الشعب العربي وفي صميم نضاله من أجل حريته واستقلاله ومن أجل حقوقه السياسية وقوته اليومي والشروط الاقتصادية والاجتماعية المحققة لكرامته الانسانية ولمهمته القومية.

فالوحدة العربية هي وحدة الشعب العربي، والنضال في سبيلها نضال شعبي، وصورتها المقبلة تولد وتتحدد بما يحمل نضال الجماهير العربية من تجارب ومعان تحررية انسانية.

سؤال: ما اثر الوحدة في الخصائص الاقليمية لكل قطر عربي؟

الوحدة ثورة تأتي لتزيل التشويه وتغير الواقع وتكشف عن الاعماق وتطلق القوى الحبيسة والنظرة السليمة. والخصائص الاقليمية منها السليم ومنها الزائف السلبي

الذي ليس هو الا نتيجة انعدام الوحدة. فليس كل شيء في واقعنا جديرا بالبقاء لمجرد أنه موجود. أما السليم الايجابي فهو الذي يغني الوحدة ويأتلف معها بل هو شرط لوجودها. والغريب أن تعطى الوحدة العالمية من الحقوق ما ينكر على الوحدة القومية. فالوحدة العالمية هي أيضا تفترض التخلص من الخصائص السلبية الزائفة بعملية تقريب وتوحيد وتوجيه، كما انها تتسع للخصائص السليمة وتغنى بها. والاغرب من كل شيء أن نسمع استنكارا للعمومية ممن أوصلوا العمومية إلى نهايتها المجردة، وأن نراهم يخافون على الخصائص الصغيرة وهم أتباع النظرية التي تضرب صفحا حتى عن الخصائص الضخمة الجسيمة. الا يكون هذا لكي يبقى الكيان القومي ضعيفا حتى يسهل غزوه بفكرة الاممية الطبقية، وهل يكون اذن هذا الحرص على الخصائص الصغيرة بريئا ومقصودا لذاته؟

اذن، فلا يجوز أن نتصور الوحدة كعملية جمع منفعل، لأنها ليست وحدة لأجزاء سليمة، ولا نتيجة لتجزئة حديثة طارئة. انها فاعلة خلاقة فيما بين الاجزاء وفي داخل كل جزء، وهي منبعثة من داخل كل جزء كضرورة حيوية لهذا الجزء نفسه، قبل أن تكون مطروحة بشكل علاقة بين الاجزاء للتعاون والتضامن. الوحدة لاتفقد الجزء شخصيته، بل تؤكدها وتعمقها وتعطيها حقيقتها وأصالتها وابداعها عندما تضع الجزء في مكانة الحي كجزء من كل.

سؤال: ما موقف «البعث» من اسرائيل؟

اننا نعتبر اسرائيل قاعدة للاستعمار دون شك، فهو الذي خلقها ويدافع عنها ويغذيها لهذه الغاية، ولكن هذا لا يستنفد كل المشكلة، فالمشكلة هي هذا وأكثر.

فاسرائيل هي أيضا تعبير عن قوة الصهيونية العالمية، التي تستطيع أن تسخّر الاستعمار. الاستعمار يسخّر اسرائيل، ولكن الصهيونية العالمية تستطيع أن تسخّر الاستعمار نفسه، فتوصل العرب إلى القضاء على الاستعمار يحل أضخم جزء من المشكلة ولكن لايحلها كلها. وبالاصح، هذا التوصل إلى القضاء على الاستعمار يشترط حتى يتحقق ان نحسب حسابا لقوة الصهيونية العالمية، وبالتالي فان نضالا آخر يجب أن يرافق نضالنا ضد الاستعمار، هو نضالنا ضد الصهيونية. والصهيونية

العالمية بما لها من نفوذ قوي استطاعت أن تسخّر بالاضافة إلى القوة الاستعمارية الطبقات الشعبية نفسها في كثير من البلاد، مستغلة الوضع التاريخي الخاص لوجود يهود في أوروبا تعرضوا في فترات كثيرة للاضطهاد الديني والعنصري، ومستغلة المستوى الحديث الراقي لدولة اسرائيل من حيث الكفاءة الفنية، وبالتالي تخلف المجتمع العربي وطابعه الرجعي، لتجعل من اسرائيل رائدة التقدم في هذه المنطقة من العالم وتجربة جديدة لحضارة الغرب في هذا الجزء من الشرق، تجربة تستحق الرعاية والتشجيع.

ووجود اسرائيل واقع في مرحلتنا القومية الحاضرة، يجب ان ندخله في حسابنا وأن نجد له الحل الكامل دون ان نتهرب من بعض المصاعب، ودون أن نتهيب رؤية العلاقة العميقة التي تصل وجود اسرائيل بمشكلاتنا القومية من جميع نواحيها، أي فيما يتعلق بأسس نظامنا الاقتصادي واتجاهنا الاجتماعي وتربيتنا السياسية ووحدتنا القومية، وأن نرى بوضوح وجرأة ان كل تلكؤ في مواجهة مشاكلنا السياسية ووحدتنا القومية، بتفكير وأسلوب ثوريين انقلابيين، قد لايؤخر حل مشكلة اسرائيل فحسب، بل يسمح بتدعيم كيانها إلى حد يصعب او يتعذر معه في المستقبل التخلص من هذا الخطر. فاذا عالجنا مشكلة اسرائيل على ضوء نظرتنا العربية الانقلابية، التي ترتبط فيها صورة المجتمع العربي المقبل بصورة العالم او المجتمع الدولي والانساني المقبل الذي يسهم العرب في تحقيقه، نصل إلى النتيجة الآتية:

ان ما يشكل خطرا على الأمة العربية هو كيان اسرائيل كدولة، لا وجود أقلية يهودية في الوطن العربي، وأن التعجيل في النضال التحرري والوحدوي وتحقيق خطوات سريعة وجدية في هذين المجالين يقطع الطريق على أطماع الاستعمار في استخدام اسرائيل، وأطماع الصهيونية العالمية في استخدام الاستعمار للمحافظة على اسرائيل وتوسيعها، والتعجيل في النضال الاشتراكي العربي يضعف مخاوف الاقلية اليهودية من تعذر تعايشها السلمي العادل مع العرب، كما يزيل أو يضعف سلاح الدعاية الصهيونية العالمية في استدرار عطف الشعوب الحرة والطبقات الشعبية على اسرائيل كدولة يراد لها أن تكون ملجأ لشعب مضطهد ولشعب راق

متقدم قد يحمل بذور التقدم إلى الاقطار المجاورة. وأخيرا، فان اصرار العرب على اتجاههم الانساني في المجال الدولي، وتعاونهم مع الشعوب الاخرى في سبيل توطيد السلم والتقدم الاشتراكي لجميع الشعوب وسياسة الحياد الايجابي، كل هذا يساهم في ازالة أسباب التعصب العنصري والديني ويساهم إلى حد ما في حل هذه المشكلة.

سؤال: ما هي العلاقة بين اسرائيل والاستعمار؟

لم يكن وجود الصهيونية كافيا لكي ينجح الصهيونيون في استملاك فلسطين واقامة دولة فيها. والحركة الصهيونية في البدء لم يكن هدفها فلسطين. كانت تفتش عن أي أرض في العالم تقيم عليها وطنا قوميا يهوديا. ولكن الحركة الصهيونية من جهة ومصلحة الاستعمار من جهة... وتلاقي المصلحتين هو الذي ساعد على خلق هذه الدولة. والمفهوم بداهة بأن مساعدة الدول الاستعمارية للحركة الصهيونية على تحقيق أغراضها في فلسطين يقصد منه الحيلولة دون الوحدة العربية، والحيلولة دون قوة الامة العربية. ان استكمال هذه القوة يشكل خطرا على وجود الاستعمار. فعندما يتمكن اليهود من اقامة دولة في قلب البلاد العربية تساعدها الدول الاستعمارية باستمرار، ينشغل العرب بهذا العدو ويبذلون قسما كبيرا من جهودهم في دفع خطر هذا العدو وفي الاستعداد لمواجهة خطره، كما ان نفسيتهم وتفكيرهم يمكن أن يشغل عن الاستعمار بهذا العدو الظاهر المقيم. وتعرفون كيف ان بريطانيا نفسها كانت، وأحسب أنها مازالت الى اليوم وإلى الغد، تحاول ان تظهر بوجهين وأن تلعب على الحبلين، فهي التي أوجدت اسرائيل وتدعو الى مقاومة اسرائيل وتتكلم كأنها عربية قحطانية تغار على العروبة، وتتحالف مع بعض الدول العربية بحجة الدفاع ضد الخطر الاسرائيلي او بحجة التخلص من اسرائيل. فلم نكن مخطئين اذن عندما وضعنا دوما العدو الاول هو الاستعمار، واعتبرنا اسرائيل نتيجة للاستعمار وحليفة له وربيبة له، وان مصيرها مرتبط بمصيره. ولكن لا حاجة إلى تنبيهكم بأن هذا لايجوز ان يؤخذ بالشكل الحرفي وأن تظنوا أن اسرائيل تأتمر بالاستعمار بكل شيء، هي حليفة للاستعمار ولكنها ليست أداة بالمعنى العادي... لها كيانها، ولها خططها ولها

مصـالحهـا ولهـا قوتها وذكاؤها وسياستها. اذن هي أحيانا تورط الدول الاستعمارية، وأحيانا أخرى الدول الاستعمارية تدفعها.

أشرت إلى هذا لكي أبين لكم أنها تضليل الدعايات الاستعمارية، ودعايات عمـلاء الاستعمـار والفئات الرجعية التي تتبنى منطق الاستعمار، لانها اصبحت تعي صلتهـا بالاستعمـار وأن مصلحتهـا رهن ببقـاء الاستعمـار. ففي هذه الاشهر الأخيرة فقـط، اذا اكتفينـا بهـا، كنـا نرى صحفـا كثيرة في هذا البلد وفي بلدان عربية اخرى مسيرة مباشرة أو بصورة غير مباشرة من الاستعمار، ومن الانكليز بصورة خاصة، كلما قامت حركـة شعبيـة، كلمـا قام نضـال في بلاد العـرب في وجـه الاستعمار الغربي، قامت هذه الـدعـايـات وهـذه الفئـات والاوسـاط تصـرح بأنكم نسيتم العـدو الاول للعـرب، اسـرائيـل، وان كل الانتبـاه يجـب ان يركـز عليهـا وأن كل الجهود يجب ان تصرف لمقاومتها. وتعرفون ايضا بأنهم حاولوا كثيرا ان يظهروا حلف بغداد بأن مبرره الاول والاكبر أنه وجد ليساعد على محو اسرائيل وعلى التخلص منها، وان بواسطته سيحصـل العـراق على الاسلحـة، وتقـوى الجيـوش العـربيـة. وكـان هذا تنـاقضـا مفضـوحـا، واستمروا الى الايام الاخيرة في هذه الدعاية حتى ان الاوساط الانهزامية في لبنـان، وهي معـروفـة بجفـائهـا لكـل ماهـو عربي وبعقليتها الطائفية المتعصبة، وبصـلاتهـا المشبـوهـة مع دول الغـرب، قد شاركت فيهـا. عنـدمـا نشأت أزمة قناة السويس سمعنا أصوات هذه الفئات تذوب غيرة على فلسطين وتتوعد اسرائيل وتكثر من الكلام والكتابة عن اسرائيل وخطرها على العرب والعروبة، لكي تلهي الناس عن الخطر الحقيقي وعن موضوع الساعة.

سؤال: ما هو موقفكم من الاحلاف ومبدأ ايزنهاور؟

قبل ظهور السياسة التحررية، كان منطق السياسيين العرب في موضوع الاحلاف لا يعترض الا على عدم تسليم الغرب بمطالب العرب القومية، أي انه كان يقبل بمبدأ الاحلاف قبولا مشروطا بتحقيق الاهداف القومية. وكان هذا منطقا متناقضا متهافتا، اذ لو كانت دول الغرب مستعدة للتسليم بهذه الاهداف ولتحقيقها أي مستعدة للتنازل عن الاستعمار، لتغير الوضع العالمي تغيرا أساسيا أثّر بصورة

عميقة على موقف المعسكر الشرقي، ولما عاد ثمة مبرر للأحلاف.

أما نحن فنرى في هذه الاحلاف عدوانا جديدا على العرب، عدوانا مزدوجا: لأنها أولا استمرار لاستعمار العرب، يثبت قبضته عليهم ويعاود احتلال ما تحرر من أقطارهم وينهب خيراتها، ويعرقل وحدتها ونهضتها. ولانها ثانيا تتحكم برأي العرب في السياسة الدولية وفي النظرة الى مستقبل العالم، اذ تدعوهم للتحالف مع الغرب ضد عدو مشترك، مع أنه ليس من شيء يبرر اقتداء العرب بالغرب في النظر الى المعسكر الشرقي وان كانوا لايقبلون الشيوعية. وهكذا ينبع رفضنا للاحلاف من نظرة أعمق وأسلم وأكثر ايجابية، فهو يشير دون مواربة الى أن عدونا الحقيقي هو الاستعمار، ويقضي بتركيز كل الجهود لمحاربة الاحلاف. فالاستعمار سبب الاحلاف وليس عقبة بيننا وبينها، وبصورة أخرى نقول ان الاحلاف هي الاستعمار ذاته لانها في حقيقتها لا تتوخى تحقيق شيء بعد مرحلة الاستعمار او شيء يتجاوز علاقتنا مع الاستعمار الى هدف عالمي انساني.

أما النظرة العالمية الانسانية فهي في موقف العرب من الاحلاف: انهم في حرصهم على حريتهم واستقلالهم ووحدتهم، ونضالهم في سبيل هذه الاهداف، انما ينظرون الى مستقبل العالم من خلال نظرتهم الى مستقبلهم هم كما يريدونه. ففي عالم يكون فيه العرب أمة حرة مستقلة موحدة، ومثلهم سواهم من الشعوب المستضعفة، لن يبقى استعمار ولن تبقى معسكرات وبالتالي لن تكون ثمة حاجة الى الاحلاف.

أما مبدأ ايزنهاور فهو يمثل ذروة المنطق الاستعماري. انه الخطوة الاخيرة التي كان على الاستعمار أن يخطوها ليصل الى الصيغة المعبرة أقوى تعبير عن تناقضه وتعصبه وقرب انهياره. فالاستعمار الذي هو نقيض المبادىء يصل اليوم لتسمية نفسه باسم «مبدأ». والغرب الذي كانت أقوى حججه على الشيوعية انه لم يجارها في المذهبية المتعصبة يضطر اليوم لتفادي انهياره، ان يلبس نفس اللباس المذهبي المتعصب فيسمي نفسه العالم الحر ويفرض على الدول والشعوب الضعيفة الاستغلال والتبعية باسم الدفاع عن الحرية، فهو يفضح ما هية هذه الحرية كما

يفهمها: حرية السادة الذين يجب ان يكون لهم عبيد، حرية الغرب الذي لايستطيع أن يبقى حرا الا اذا ظلّ جزء كبير من العالم مستعبدا له.

فالحرية التي يأتي مشروع ايزنهاور ليغري العرب بها ليست الا استمرارا وتضخيما للاستعمار الذي عرفوه عشرات السنين: فهو محاربة لكل نزعة تقدمية، وتشجيع للرجعية وللمجتمع الطبقي الفاسد، وتعميق للانقسام بين الاقطار العربية وفي داخلها، بالفتن والمؤامرات، وتقوية لاسرائيل على حساب العرب.

سؤال: مامعنى القول بأن اشتراكيتنا عربية؟

يمكن القول بأن هذا الوصف للاشتراكية بأنها عربية يتضمن شيئين:

الاول: بانها اشتراكية ملائمة لظروف وحاجات المجتمع العربي. وقد كنا بحاجة الى الالحاح على هذه الناحية، رغم أنها تبدو اليوم بديهية. متى عرفتم ان الاشتراكية الماركسية، ام تكن تقبل فكرة التنوع مطلقا بل تعتبر ان الاشتراكية واحدة، وكانت وما زالت تسمي نفسها اشتراكية علمية وتقصد بذلك ان القوانين العلمية لاتتغير بتغير الزمان والمكان وأنها واحدة يصح تطبيقها في كل الحالات. ولكن الماركسية هي التي تراجعت عن هذا الادعاء وغدت أكثر مرونة.

والثاني: (وهو المعنى الذي لا يتبادر الى الذهن مباشرة وقد لايفطن اليه كثيرا) هو ان اشتراكيتنا مرتبطة ارتباطا وثيقا بقوميتنا العربية. فهي في تفاعل مع هذه القومية وهي جزء اصيل منها، وبالتالي ليست شيئا خارجا عنها وليست شيئا اعلى منها يفرض نفسه على القومية العربية، وتضطر هذه القومية إلى ان تتكيف بما يناسب الاشتراكية. وأحسبكم تفطنون الى الرأي المعاكس الذي يقول بأن الاشتراكية هي الاصل وكل الاشياء الاخرى تتفرع عنها وتنفعل بها. فنحن قد لانصل إلى حد القول بأن القومية هي الاصل والاشتراكية هي الفرع، ولو أن هذا جائز نوعا ما اذا لم يكن بد من ايجاد تسلسل في الاهمية والقيمة، ولكن الواقع أن تفكير الحزب كان حريصا على ألا يقيم مثل هذا التفريق المصطنع، فنظرة الحزب تحرص دائما على أن تكون نظرة حية.

سؤال: ماهي علاقة الاشتراكية بالقومية العربية؟

قلنا دائما ان الاشتراكية ليست طارئة على القومية العربية، فالقومية العربية عندما تعي ذاتها وعيا عميقاً وصحيحاً، عندما تتهيأ الشروط لكي تنضج النضج الصحيح وتعبر عن نفسها، تجد ان الاشتراكية شيء أصيل فيها.

واعتقد ان هذا المعنى يختلف عن الفهم الذائع الذي يريد ان يقصر الصفة العربية لاشتراكيتنا او الصفة القومية لاية اشتراكية على كونها فقط اشتراكية متأقلمة، أي خاضعة لظروف الزمان والمكان. هذا يعني ان لب الاشتراكية واحد ولا يتغير، ولكن هناك تعديلات ثانوية تطرأ عليها عندما تتغير مجالات تطبيقها. هذا المفهوم هو الذي بدأت الماركسية تتسع له وتنادي به، ولكن هذا داخل في تفكير البعث منذ البدء وهو ليس كل شيء فيه.

وأعتقد أن الناحية الثانية هي المميزة لتفكير البعث: ان هناك بين قوميتنا واشتراكيتنا ترادفا وتمازجا وتفاعلا وانه ليس هناك قومية واشتراكية، نجمع بينهما لنصل إلى صيغة جديدة للقومية، وانما هناك قومية هي اشتراكية بمجرد وجودها، وانها اذا لم تكن اشتراكية فأنها تفقد وجودها ذاته. كذلك فنحن بتخصيصنا ان اشتراكيتنا هي عربية، من صميم ومن صلب قوميتنا، نتيح للامة العربية ان تتمكن من الاهتداء بحرية وقناعة وبدون ضغط وارهاب من الخارج، إلى نظرتها الخاصة إلى الانسان والاخلاق وإلى التاريخ والسياسة وإلى شتى مجالات الفكر والعمل.

ثم انه ترتب على نظرتنا القومية واعتبار العرب أمة واحدة لاتتجزأ والبلاد العربية وطنا واحدا، أن كانت دعوتنا دوما إلى اشتراكيتنا بأنها الاشتراكية التي تحتاج إلى نضال الشعب العربي بكاملة لتتحقق، وتحتاج إلى الوطن العربي بكامله كمجال للتطبيق. فلم نؤمن في يوم من الايام بامكان تحقيق اشتراكية صحيحة في قطر واحد، وان كنا نعمل دوما للتمهيد لهذه الاشتراكية بتحقيق اصلاحات في كل قطر. وذلك أن بعض الاقطار العربية على الاقل ليس فيه الشروط الاقتصادية الكافية لقيام اشتراكية سليمة. في حين أن الحركة الشيوعية لانها لم تنظر إلى الامة العربية كوحدة فأنها وقعت، نظريا على الاقل، في تناقض عندما تعد الناس باقامة نظام اشتراكي

في قطر صغير ليس فيه صناعة ولا مقومات اقتصادية كافية . كذلك فان الشيوعية تقع في التناقض، نتيجة عدم ايمانها بالقومية وبوحدة الامة، حينما تربط أحياناً بين النضال في قطر عربي والنضال العالمي، قافزة من فوق نضال الاقطار العربية الاخرى.

واشتراكيتنا التي هي على أساس عربي موحد، حافظت دوما على اتجاهها الانقلابي لانها كانت دائما تستند إلى واقع الامة العربية بمجموعها، وهوواقع ثوري انقلابي من الطراز الاول، ولكن اذا أهمل اعتبار وحدة الامة فقد لاتكون الاشتراكية ثورية دائما بالنسبة إلى جميع الاقطار العربية، اذا ان من بينها أقطارا في حالة او شروط اجتماعية واقتصادية قد يظن بأنها لاتستدعي الانقلاب وانما يكفيها الاصلاح، فمثل هذه الاقطار قد يستفيد أحياناً من وضع التجزئة الذي يدعمه الاستعمار والطبقة الرجعية فيحصل على مكاسب اقتصادية مصطنعة تضعف من حاجته إلى الثورة الاشتراكية، أما حركتنا فهي الوحيدة التي تكشف هذا الزيف والاصطناع لانها تنظر إلى هذه الأقطار كأجزاء في جسم واحد، وبالتالي تطالب لها كلها باشتراكية واحدة ثورية .

سؤال هل تأخذ حركة البعث بسياسة المراحل؟

ان حركتنا تأخذ بسياسة المراحل ولكنها تفهمها على أنها الحاح على ناحية أكثر من غيرها، وليست الاقتصار على ناحية واحدة واهمال النواحي الاخرى، فلا نقتصر على مقاومة الاستعمار فحسب، بل نعمل ايضاً للاشتراكية والوحدة. قد تكون الظروف مهيأة لمحاربة الاستعمار أكثر من أي عمل آخر. ولكن اقتصارنا على محاربة الاستعمار فحسب يطعن النضال نفسه .

فنحن اذن لانفصل فصلا تاما بين مرحلة نضال وطني واجتماعي ووحدوي وانما نمشي في هذه المجالات كلها في آن واحد، ولكن نلح فقط ونركز على ناحية أوأكثر حسب الظروف، ولانؤمن بامكان تحقيق أي نجاح في أحد هذه المجالات اذا لم يكن مدعوما بنجاح وتقدم في المجالات الاخرى. فنحن لم نسكت في هذا الظروف كما لم نسكت في الماضي عن المطالب الاشتراكية او المقربة من

الاشتراكية، لعلمنا بأن التحرر من الاستعمار دون تحقيق اصلاحات اجتماعية تقوي نضال الجبهة الشعبية وتهييء لها شروطا أنسب لمتابعة النضال، يبقى شيئا ضعيفا ومهددا دوما بالانهيار او الانتكاس، وكذلك الشأن في نضالنا من أجل الوحدة. وبكلمة مختصرة فان حركتنا لاتحتاج إلى أن تضحي بأي هدف رئيسي من أهدافنا الانقلابية في مرحلة من المراحل، في سبيل الاهداف الاخرى، فهي دوما قادرة على أن تناضل من أجل جميع أهدافها.

كذلك فان المراحل في نظرنا هي في التطبيق لا في الوعي، فالوعي لايجزأ، لذلك كان على الشعب العربي أن يدرك منذ ظهور الحركة ماهي حقيقة اوضاعه، وماهي العلاجات الحاسمة لها، ومايريد أن يصل اليه في آخر النضال. فاذن في الوعي لانتبع سياسة التكتم في الاهداف التي لم يحن الوقت لتحقيقها.

عام ١٩٥٧

وحدة مصر وسوريا

اذا كان العرب قد حققوا بنضالهم وحدتهم في الجمهورية العربية المتحدة، فان هذه الوحدة التي حققوها لا يرون فيها الا خطوة، وان الآمال لتبدو اقرب منالا، وأقرب الى الواقع واكثر حقيقة من قبل، ولو ان الذين يعيشون في قلب المعركة في اي قطر من الاقطار لا يؤثر فيهم الزمن، فالنضال يشق حجب الزمن ويكشف عن المستقبل للمناضلين المؤمنين وينقل المستقبل الى الحاضر، ويريهم حقيقة امتهم، ولو ان كثيرا من الحجب الكثيفة والامراض تشوه وجهها، ولكن النضال يعطي الثقة للنفس ويصفي النفس ويظهر الحقيقة ويتيح للمناضلين بأن ينقلوا هكذا ايمانهم الى العدد الاكبر. ولم نكن نشك لحظة واحدة منذ سنين طويلة بأن امتنا امة واحدة من الاطلسي حتى الخليج العربي، وان روحها روح واحدة وان النضال وحده هو الذي ينقل هذه الوحدة من حيز الامكان الى حيز الفعل والتحقيق لأنه يغسل النفس من الادران، وحرارته تذيب ما علق بالامة من تشويه ومن جمود ومن امراض دخيلة، وكنا دوما نعتبر النضال وسيلة وغاية وليس وسيلة فقط من اجل التحرر والتغلب على العدو ولكنه وسيلة لنقترب من انفسنا، من حقيقتنا، لان الوحدة هي حياة وليست جمودا ولا موتا، وعندما تكون الاقطار العربية في حالة التقاعس واليأس والاستكانة فانها لاتفقد شعور الوحدة بينها فحسب وانما الفرد العربي يفقد شعور الوحدة مع اخيه الذي يعيش بجانبه، اما في حالة النضال فان هذه الوحدة تتجسد حقيقة حية وتنهار الأوهام والسدود والمصالح الآنية الحقيرة، ويرتفع ابناء الامة الى الجو التاريخي، الى جو معنى وجود الامة، جو رسالة الامة في الحياة وفي التاريخ وفي الانسانية. واذا ذكر النضال فيجب ان تذكر الجزائر كأكبر وأروع دليل على النضال في كل التاريخ البشري.

ثورة الجزائر ايها الاخوان كان لها آثار ضخمة قوية قد لا نكون وعينا الا جزءاً يسيرا منها، وسنعي بقية هذه الآثار مع الايام والسنين المقبلة، هذا القطر العربي الذي تحمل ما لم يتحمله بلد في العالم من قسوة الاستعمار، واي استعمار واي

وحشية واي حرب! . . تصميم على الابادة في هذا القطر الذي تجمعت عليه قوى الشر ونذالة المستعمرين بأقوى الصور وابشع الصور تخرج منه اروع الثورات واعمق الثورات معنى وشعبية . . تخرج الثورة من الفلاحين، من ابناء الريف البسطاء، من ابناء الجبال، من هذه الطبيعة الصافية الروح التي طهرها الالم وتصمد في وجه الجيوش الحديثة والاسلحة الفتاكة فأي اثر اكبر من هذا، ليس على شعب الجزائر، بل على الامة العربية بكاملها. انه المثال الحي على ان العروبة خالدة وان في الامة العربية من الامكانيات والاصالة ما يستحيل على الزمن وعلى القوى الاستعمارية الغاشمة مهما اشتدت ان تطفىء هذه الشعلة . . .

ان نضال سورية ونضال مصر ونضال العراق والاردن وعمان ما كان يمكن ان يكون بمثل هذه القوة وما كان يمكن لمصر وسورية ان تصمدا امام مؤامرات الاستعمار وجيوشه المعتدية وضغوطه المتلاحقة لو لم يستمدا من ثورة الجزائر ثقة عميقة بالنفس وبأصالة العروبة، ثقة بما تصبو له العروبة التي بعثت من جديد على ارض الجزائر.

فالوطن العربي وطن واحد، والشعب العربي شعب واحد، وهو رغم التباعد ورغم الحواجز يتفاعل بعضه مع بعض ويستمد بعضه من بعض القوة والقدوة والمثل. فكما ان ثورة الجزائر تستمد من نضال العرب في الشرق جرأة ويقينا بالنصر القريب وشعورا بأن الجزائر ليست وحيدة وانما لها اخوة، كذلك نحن استوحينا من ثورة الجزائر ثقة عظيمة، في هذا الوقت الذي يحقق العرب فيه هذه الخطوة التاريخية، وحدة سوريا ومصر، التي سيكون لها اعظم التأثير في تاريخهم وتاريخ البشرية، لننظر ولنتجه بأنظارنا وقلوبنا الى اخواننا في الجزائر لان لهم النصيب الاول في تحقيق هذه الخطوة.

لقد اعطت ثورة الجزائر دليلا قويا على ان الامة العربية بلغت بعد طول التحمل والمحن والتخلف الطويل بلغت مستوى من النضج يؤهلها بأن تنطلق من جديد ليس من اجل طرد المستعمرين فحسب بل من اجل بناء مجتمع عربي جديد ومن اجل الكفاح وحمل رسالة الى العالم كما حملتها من قبل، اذ لو لم تكن امتنا قد بلغت هذا

المستوى لما رأينا حركات ثلاثا اصيلة عميقة تخرج من اقطار عربية مختلفة ليس بينها صلة وثيقة وليس بينها تعارف، وتخرج وكل حركة منها اتخذت شكلا يختلف عن شكل الاخرى ما لبثت هذه الحركات بعد قليل حتى ظهر انها تتكلم نفس اللغة، وتعلن نفس الاهداف والمبادىء، وتناضل من اجل نفس الغايات والاهداف، هذه الحركات الثلاث حركة البعث، وثورة الجزائر، وثورة مصر.

لقد كنا نقول دوما بأننا لسنا الا تعبيرا عن نضج امتنا، اننا لا نخلق الامة بل هي تخلقنا، اننا نستمد منها القوة، اننا نترجم فقط حاجاتها وامانيها ونعلن ارادتها، وان قوتنا ما كانت لتكون شيئا مذكورا لولا استنادها الى قوة الامة والى هذا الوعي المستمر في كل جزء من اجزائها الذي صقلته التجارب والمحن والآلام الطويلة، وهكذا كان لابد لهذه التجارب المتماثلة ان تعطي نفس النتائج في مختلف اقطار الوطن العربي.

فلو كانت الامة العربية غير مؤهلة للبعث وللرسالة العظيمة التي تنتظرها، لما ظهرت هذه الحركات في وقت واحد دون اي تعارف، ومع ذلك فقد اتفقت في المبادىء والاهداف والنضال.

وهذا خير دليل على ان هذه الامة تستطيع ان تمضي بعمق واصالة وان ترتفع الى مستوى التخطيط الموحد الشامل للنضال العربي بعد ان اعطتنا هذه الاحداث والتجارب البراهين الحسية على ان امتنا ناضجة مهيأة كل التهيئة ولا تحتاج الا الى الطليعة الواعية التي تتقدم الصف ـ الى السباقين الذين ينيرون الطريق الى الامام. واعتقد ان كل مناضل حقيقي دخل النضال لمس هذه الحقيقة لمس اليد بأن الشعب العربي يعطي اكثر مما كان ينتظر منه.

فلنتعاهد على ان نجعل من هذا النصر الجزئي الذي حققه جميع العرب في جزء من اجزاء وطنهم، لنتعاهد على ان تكون ثمار هذا النصر ايضا لجميع العرب وعلى ان يكون فاتحة جديدة لعمل قومي موحد منظم، وان تكون هذه الوحدة الصغيرة التي يفرح لها العرب في كل مكان ان تكون النواة للوحدة الشاملة وأن تنصب اكثر جهودها في مساندة ودعم حركات التحرر وفي العمل لتوحيد الاقطار

المجزأة لان خطر التجزئة خطر بالغ الخطورة، خطر قتال. واذا (لا سمح الله وهذا لن يكون مطلقاً) انصرفت جهود هذه الجمهورية الى الداخل وقصرت في واجباتها نحو اخوتها في الاقطار الاخرى فان هذا الانصراف يهددها في وجودها، وما دمنا مؤمنين بأن القضية العربية واحدة ومصير العرب واحد فجمهوريتنا الجديدة عندما تدعم الجزائر وتعمل من اجل تحرر اي قطر عربي مكافح فهي تدافع عن نفسها وتبني كيانها. ووحدة سوريا ومصر الآن وبعد هذه التجارب العديدة والنضال الطويل هي مدينة الى هذه الحقيقة بأن قضيتنا واحدة ويجب ان يكون مستقبلها ايضاً ملتزماً بهذه الحقيقة وان ترى حياتها في حياة الاقطار العربية الاخرى.

٢٠ شباط ١٩٥٨

الوحدة ثورة تاريخية

في هذا الظرف التاريخي الذي كان لحزبنا فيه أكبر الاثر لابد ان اذكركم بملحمة عن مميزات حركتنا ومبررات وجودها، ثم نصل إلى القاء نظرة على هذا الحدث العظيم الذي تحقق أخيراً وما يستتبعه من نتائج وواجبات بالنسبة لحزبنا وبالنسبة الى جميع المواطنين العرب.

لقد كان ظهور حركة البعث ثورة في تاريخ الامة العربية بمعنى ان حركة البعث لم تكن استمراراً لما قبلها بل كانت عبارة عن انقطاع اوبتر ارادي واع وارتفاعاً الى مستوى جديد من التفكير والاخلاق، والجو الروحي، رغم ما انتابها من ضعف ونقص، ومادخلها من شوائب. منذ البداية، لم تكن خالية من الضعف والنقص، ولم تكن منزهة من الخطأ ولم يخل سيرها من التعثر، ولكن أية حركة تاريخية لاتجيء كاملة سليمة، كل الكمال والسلامة. والمهم هو الحكم الاجمالي على الحركة، هل تجاوبت مع مرحلتنا وأحست بعمق ما يجب ان يعمل، وعملت؟ هذا هو المهم. هل ملأت فراغاً في حقبة من التاريخ وملأته ملأ ايجابياً، ملأ فيه ابداع وبناء ورغم كل النواقص والاخطاء كما قلت؟ هل يعني ظهورها بدءاً لتاريخ؟ اذا كان الامر كذلك فهي اذن حركة تاريخية. هذه الحركة التي بدأت بدءاً متواضعاً جداً فكان سر قوتها في هذه البداية المتواضعة، لانها انطلقت قوة أصيلة لا زيف فيها، لم تعتمد على شيء من القوى الراهنة التي هي كلها قوى زائفة، هذه الحركة في الواقع كانت ترجمة لاستعدادات وامكانيات قائمة غير انها مغطاة عن أعين الاكثرية. فهذه الحركة استطاعت أن تنظر نظرة صافية وبريئة لم تعكرها المصالح والمفاهيم الموروثة او الاهواء والانانيات، فعرفت القوة حيث كان اكثر الناس لا يرون الا الضعف والانحلال، واعتمدت على هذه القوة لانها كانت مؤمنة بأن هذه القوة قوة حقيقية. راهنت على المستقبل، وكانت نظرتها منذ البداية بعيدة بكل بمعاني الكلمة، بعيدة في العمق، بعيدة في المكان وبعيدة في الزمن، فهي نظرت الى اعماق الامة العربية المغلفة بواقع مريض ومشوه. ونظرت وهي التي ولدت في قطر صغير من اقطار الوطن

العـربي الشـاسع، نظرت الى جميع اجزاء الوطن، لم تغفل احداً منها، نظرت نظرة بعيدة في الزمن، اي انها توجهت الى الشباب، الى تلك السن التي تحتاج الى زمن غير قليل لكي تصبح قوة بالمعنى المتعارف عليه، بمعنى السياسة الراهنة والمصالح الـراهنـة، توجهت الى الشبـاب العـربي في جميع اقطاره. ومن هذا تتبينون ميزة من ميـزاتهـا. انهـا في روحهـا وفي نزعتهـا العميقـة كانت دوماً تتطلب الصعب، تتطلب الشيء العميق، الشيء الاصيـل الـذي لا يبلغ بسهـولـة وتتـرفع وتعف عن كل ما هو قريب وسهل. فاليوم تبدو لنا المسألة بسيطة وسهلة للغاية، ان يظهر حزب او حركة، وتتـوجـه من جهـة الى الشباب الحديث السن، ومن جهة اخرى إلى هذا الشباب في اقطار غير القطر الذي توجد فيه الحركة. والشباب كما قلت في تلك السن لا يكونون وزنـاً سيـاسيـاً يمكن ان يفيـد فائـدة سياسية عاجلة وبالاحرى عندما يكون بعيداً عن القطر فليس له وزن قط.

هذه الاشيـاء التى تبـدو اليـوم بسيطة وطبيعية كان لا بد من روح ثورية وايمان غير عادي لكي نقـدم عليهـا ولكي نخـالف كل المألوف ونتحدى سخرية الناس ونتحدى مقاومة أصحاب المصالح والعقلية البالية وأصحاب النظرة السطحية. ولا يشترط في اصحاب النظرة البالية والسطحية ان يكونوا من الجيل القديم دوماً ومن غير المتعلمين بل قد يكونون من أكثر الناس ثقافة ومن الشباب أيضاً. فالنزعة الاولى كما ترون نزعة روحيـة اخـلاقيـة اقتـرنت بوعي ثوري، وقلمـا يجـوز التفريق بين الوعي والخلق لان بينهمـا تفـاعـلاً وتأثيـراً متبـادلاً، فالـروح الاخـلاقية السليمة الصافية التي تترفع عن السهل وعن الشيء الشخصي، والشيء الزائل، هي التي تساهم الى حد كبير بايجاد الـوعي الثـوري، وهي من اهـم عنـاصـر التفكير الثوري لأن التفكير الثوري هي رؤية الحقيقـة المغلفـة المستتـرة، رؤيـة الحقيقـة العميقة. فاذا كانت ثمة اهواء وانانيات ومصالح خاصة، فانها تحجب عن التفكير هذه الحقيقة وتشوش التفكير، وتمنعه من ان يصل الى الاعماق، وبالعكس عندما يتوفر التفكير الجذري الثوري يستطيع ايضاً إلى حد ما ان يؤثر في الجو النفسي، في الخلق وفي الروح، ان يحررها الى حد ما من كثير من الاشياء. اقول كل هذا ولا اعتقد بأنه خروج عن الموضوع أو حشو كان

يمكن الاستغناء عنه لكثرة ما كررت هذه الاقوال خلال سنين عديدة في الحزب، ولكن بودي ان اثبت في اذهانكم بأن بعض الشروط الاساسية في حياة الانسان والشعوب اذا ما اغفلت او انتقص من قيمتها فان المقاييس تختل وان حياة شعب بكامله ستتعرض لأفدح الاخطار والانتكاسات اذا لم تحترم هذه الحقائق الاساسية.

والآن اعود فأقول ان حركة البعث اختلفت اختلافاً نوعياً لا كمياً عن كل ما سبقها من حركات في الوطن العربي، فطرحت قضية الامة العربية طرحاً ثورياً لاول مرة منذ مئات السنين، طرحاً انقلابياً كما اعتدنا ان نقول، واعتبرت الامة العربية في مرحلة ثورة اصيلة، ثورة تاريخية، وانها مهيأة كل التهيؤ لتحقيق هذه الثورة اذا انتشر وعيها بين الجماهير. هذا الطرح الانقلابي للقضية القومية يمكن ان يلخص ببضع نقاط:

١ ـ وضع قضية ومصير الامة العربية ضمن قضايا العالم ومصير الانسانية بعد ان كانت الحركات الوطنية تنكمش على نفسها وتتجاهل ما يجري في العالم. حركة البعث حينما بدأت كانت قد كونت فكرة اجمالية تقوم على دراسة اجمالية لمشاكل وقضايا العالم الاجتماعية والفكرية، عن المذاهب الكبرى التي تحرك البشر في هذا العصر. بدأنا ونحن نعرف هذه المعرفة الاجمالية من الناحيتين الفكرية والعملية، نعرف هذه القضايا والمذاهب في خطواتها الاساسية وفي اسلوبها وخططها ونتائجها وآثارها العملية في العالم، ولم يكن من ذلك بد لان العالم، اذا نحن تجاهلناه فانه لا يتجاهلنا، فهو كان غازياً لنا ومحتلاً ديارنا، لذلك كان لابد من ان نعرف ونربط بين مصيرنا ومصير العالم.

٢ ـ نقطة اخرى يمكن ان تستنتج من الاولى او لها علاقة بها هي الفكرة القومية او اذا جاز ان نقول النظرية القومية. كانت المذاهب والفلسفات التي احتلت المكان الفعال في هذا العصر تنكر القومية بشكل أوبآخر، بعضهم كان ينكرها من شدة المغالاة بها، المغالاة السلبية المريضة، وبعضهم كان ينكرها ويعتبرها شيئاً عارضاً ومرحلة، فوضعت حركة البعث بذور النظرية القومية بصورة عامة لا للعرب وحدهم وانما الحت على حقيقة الامة في حياة البشر، فما يصح على العرب لا بد ان يصح على غيرهم. وصوبت نظرها على النواحي الخبيئة الثمينة الايجابية في القومية لانه

لم يكن يظهر من القومية إلا النواحي السلبية، وأوجدت صيغة، او محاولة لصيغة، تربط القومية بالانسانية ربطاً حياً لا اصطناعياً، فاعتبرت القومية خالدة والانسانية خالدة وليست احداهما بسباقة على الاخرى لا في الزمن ولا في القيمة، وانما هما مظهران لشيء واحد، وان الانسانية هي ثمرة لنضج القومية، هي المجال الطبيعي السليم الوحيد لتحقيق القيم الانسانية تحقيقاً حياً لا اصطناع فيه ولا تضليل. ثم نظرت حركتنا الى امتنا فاعلنت وحدتها رغم جميع المظاهر التي كانت تتحدى هذه الوحدة في كل لحظة وفي كل عمل، وأعلنت في نفس الوقت ان رسالتها. . رسالة انسانية رغم ان جميع المظاهر كانت تتحدى هذا الاعلان وهذا الادعاء، رغم كون الامة العربية في حالة سلبية فاقدة لأي ابداع تعيش عالة على العالم، فأكدت حركة البعث رسالة الامة العربية. كل هذه الاشياء تنبع من نظرة واحدة كما تلاحظون، من نظرة ثورية، النظرة المتجددة البعيدة المدى الطويلة النفس التي تنظر للمستقبل نظرة ليست حالمة كنظرة الشعراء، ليست نظرة التمنيات، وانما نظرة في منتهى القسوة والواقعية والجدية. من خلال الواقع الفاسد المشوه كانت ملامح المستقبل تتراءى، اولأن الواقع كان بلغ هذا الحد من الفساد والمرض لم يكن صعباً على اصحاب النظرا لصافي ان يروا الكنوز المخبأة في ضمير المستقبل المشرق الذي ينتظرنا.

وكانت هذه الحركة اول من وضع القضية القومية، قضية الامة العربية، في قلب الواقع، في قلب الجد، بوضعها المشكلة الاجتماعية في صميم الثورة القومية، بوضعها مشكلة عيش الملايين من افراد الشعب العربي، رزق الملايين وعشرات الملايين الذين كانوا وما يزالون مشلولين إلى حد بعيد بنتيجة الاوضاع الجائرة المعكوسة. فالتعبير العملي عن الثورة القومية هو الثورة الاجتماعية. وطرحت مشكلة الحرية على كل اتساعها وأبعادها، التحرر من الاستعمار ومن الاجنبي ونفوذه واستغلاله بكل اشكاله، والتحرر في الداخل الذي يشمل النواحي السياسية والاجتماعية والفكرية، مشكلة الحرية ووعي الشعب ووعي الافراد ومشكلة التحرر وأهمية هذه المشكلة وأسبقيتها، وكما تعلمون اوجدت بين هذه النواحي المختلفة

اتصالاً وتفاعلاً حياً.

ولكن استطيع ان اقول بأن مشكلة الوحدة، قضية الوحدة، كان لها مكان بارز في فكرة البعث ونضال البعث لانها كانت معرضة لان تظلم حتى من الذين ليس لهم مصلحة في ان يظلموها لانها كانت خافية في حقيقتها على الكثيرين، فطرحت حركتنا قضية الوحدة طرحاً ثورياً لقي الكثير من المقاومة والمغالطة وسوء الفهم، ولكنه تجاوب مع حالات الشعب، وحس الشعب، ووعي الشعب اخيراً، وكتب له ان يظفر.

قلت لكم في البدء بأن مسألة الوحدة كانت تتطلب اول ما تتطلب تجرداً في النفس لانها تشترط كثيراً من الاغفال للنتائج العاجلة، تشترط العمل للمستقبل البعيد نسبياً وتشترط في نفس الوقت تفكيراً ثورياً اصيلاً، وليس كل ما يسمى بالتفكير الثوري هو فعلاً هكذا. الاستعمار عدو اجنبي غريب محتل مستغل وقح، ودعوة الشعب لمقاومته ليست صعبة ولا غامضة. الاقطاع والرأسمال والنفعية والاستغلال بأشكاله والوانه أقل وضوحاً من الاستعمار، ولكن رغم ذلك فيه بعض الوضوح، ولكن التجزئة التي مرت عليها قرون احياناً وعشرات السنين في احسن الاحوال والاحتمالات ولم يقتصر الامر على ان المستعمر خلقها بل اصبحت هي تخلق نفسها بنفسها فيما بعد، تخلق قوى ومصالح وزعامات وعقلية معينة وعواطف معينة تنفخ الروح وتبث الدم والحياة في هذه التجزئة المخزية المصطنعة. وأصبح من السهل ومن غير المستنكر (وهذا الشيء لا يمكن بسهولة ان يكشف تناقضه) ان يقوم الزعماء وتقوم الاحزاب وتنادي بالوحدة العربية وتسجل الوحدة في رأس برامجها، وان تعمل وتوجه وتتصرف وتدبر يومياً كل ما هو نقيض الوحدة تارة بقصد وتصميم وتارة دون قصد او وعي.

والخلاصة ايها الاخوان ان معركة الوحدة التي لا تنفصل حسب عقيدتنا ونظريتنا ونضالنا عن معركة الحرية والتحرر وعن معركة الاشتراكية، ولا يجوز فصلها بحال من الاحوال، ولكن يجوز كما اعتقد ان نصفها على حقيقتها فنقول انها هي بصورة خاصة المعيار لثورية الافراد والجماعات ولثورية امتنا في هذه المرحلة التاريخية.

عنـدمـا نتغلب على التجـزئـة نكـون قد اطمأننـا فعـلاً على اننـا سنؤدي رسـالتنا التاريخية لان معركة الوحدة اصعب معركة يواجهها الشعب العربي منذ زمن طويل. وعنـدمـا اثمـرت معـركـة الـوحدة هذه الثمرة الاولى الطيبة الضخمة في نتائجها كما سنرى يوماً بعد يوم، فوجيء العالم مفاجأة تاريخية لاتحدث كل يوم ولا كل سنة وقد لا تحدث الا في مئات السنين، فوجيء حتى القسم المتحرر من العالم الذي تغلب على الاوضـاع الـرجعيـة الفـاسـدة، وتجـاوب مع مصلحـة الجماهير وتسلح بنظرية علميـة، وبينـه وبيننا وبين جميع الشعوب المناضلة من اجل حريتها وتقدمها تعاطف طبيعي. رغم ذلـك لم يكن احـد يصـدق بأن هذه الـوحدة ممكنة، وهذه كلها دلائل ثمينـة جداً تنبيء عن العمق والنضـج الـذي وصلت اليه حركة القومية العربية وتنبيء عن غنى مستقبلها ايضاً.

ان ما تحقق للعـرب في هذا الظـرف هو نتيجـة ثورة وبـداية ثورة، هو لاشك ثمرة لهذا النضال الطويل الذي بدأ قبل حركتنا بزمن، ولكن حركتنا بدأت مستوى جديداً في الفكـر والعمـل، هذا النضـال هومستـوى ثوري يختلف عما سبقه. هذه الوحدة التي هي ثمرة لنضال الماضي ستكون بذورها بذرة قوية ومحركاً قوياً لثورات متعاقبة، أو قد يختلف نوعهـا او مظهـرهـا عن السـابق حسب درجـة النمـو الذي بلغته الحركة العربية الثورية. فعلينا ان نقدر هذه الخطوة حق قدرها، وان نعرف السهل والصعب فيهـا، وان نأخـذ مكـانـاً في قلب المعـركـة لان المعركة لم تنته بعد. ان اهمية هذه الخطوة بالدرجة الاولى هي انها قضت على نوع من التفكير، نوع من العقلية، نوع من النفسية المتخاذلة او في احسن الاحتمالات النفسية التي لم تبلغ حد الامتلاء، وبـالتـالي لم تصـل إلى حد الايمان بأن الوحدة ممكنة. فتحقيق هذه الخطوة سيبدل النفسيـة العـربيـة في كل مكـان وحتى في اشـد الامكنـة والاوسـاط انكاراً وجحوداً، وسيكـون لهـا آثـار ونتـائج سياسية واجتماعية ضخمة عاجلة وآجلة. ولكن المهم ان نعـرف بأن البـدايـة هي دوماً صعبة، ودوماً محفوفة بالاخطار، وان علينا واجباً مقدساً بأن نحمي هذه الخطـوة التـاريخيـة وان نغـذيهـا بكل طاقاتنا، وأن لا نرى فيها مبرراً للراحـة والانسحـاب من العمـل او المطالبة بثمن الاتعاب الماضية. فهذه الخطوة ما

تزال معرضة لاخطار كثيرة، والاخطار المكشوفة هي اخف هذه الاخطار لانها مكشوفة، والاخطار المخفية هي التي لا تظهر كثيراً بوضوح تام، وأهمها ان يستمر شيء من عقلية التجزئة ومصالح التجزئة وان تنسج الوحدة بخيوط التجزئة فتتناقض وتفشل.

ايها الاخوان، تبين من حديثي ان حزبنا كان له مساهمة لم اتورع عن ان اسميها تاريخية في نضال امتنا في هذه الحقبة وخاصة في نضال الوحدة الذي اوصلنا الى هذا الانتصار. ولكن هذا لا يعني اننا وحدنا في الساحة وان غيرنا لم يعمل. ألححت على ذكر الحزب ومميزات فكرته في هذه المناسبة، ولكن تعرفون كما اعرف بأن الشعب العربي في كل مكان عمل وناضل من اجل هذه الوحدة بصورة غير مباشرة، وتعرفون على الاخص ان للثورة المصرية شأناً تاريخياً في هذه المرحلة وهو قد قلب وجه التاريخ العربي، اوكان مناسبة لكي تتجلى قيمة النضال العربي في اقطار المشرق الذي انتشر فيه الحزب، ولا يمكن ان نفسر شيئاً مما حدث من التحولات الضخمة العميقة في حياة العرب في هذه السنوات الاخيرة اذا لم تعط ثورة مصر حقها من الاهمية، حتى انها اثرت في حياة العصر والعالم كله، ويمكن القول بأن تأميم قناة السويس هو بداية لعصر جديد في العالم في كثير من النواحي، وان مولد الجمهورية العربية المتحدة هو ايضاً بدية تاريخ جديد بالنسبة للعرب والعالم.

صحيح ايها الاخوان ان ثورة مصر لم تتبع نفس الطريق الذي اتبعناه، فهي ثورة عسكرية لم تبدأ من الشعب، ولم تبدأ بفكرة او نظرية، ولكن هذا لا يغير شيئاً من حقيقتها وقيمتها، فهي ثورة اصيلة صادقة، لذلك اعطت مثل هذه النتائج، ولم يمض وقت طويل عليها حتى استقرت واتضحت معالمها وخط سيرها، وبدأ الاتصال والتفاعل بينها وبين حركتنا، تفاعلاً مباشراً وغير مباشر. المباشر بالاتصال بالحزب وقادة الحزب وفكرة الحزب وغير المباشر بتأثرها بنضال الشعب العربي في الاقطار التي يقود النضال فيها حزبنا وتجاوبها مع نضال هذه الاقطار ومع شعارات هذا النضال..

٢٣ شباط ١٩٥٨

معركة الوحدة في العراق

ليس عندي[1] مناسبة أغلى من مناسبة الاجتماع بالشباب العربي لأنني اعرف منذ زمن طويل بأن هذه المرحلة التاريخية التي تجتازها امتنا العربية، هذه المرحلة الانقلابية العميقة الشاقة لا يقوى على حملها والاضطلاع بأعبائها الا الشباب المهيأ بطبيعة تكوينه للايمان بالمثل والمبادىء والقيم الخالدة. وها نحن الآن وما زلنا في الخطوات الاولى لثورتنا نواجه امتحاناً صعباً وليس غير الشباب من هو جدير بأن يمتحن هذا الامتحان، لذلك اقدر وافهم قلقكم وحماستكم واهتمامكم البالغ بما يجري في عراقنا الحبيب لأنكم تدركون بما توفر لديكم من وعي وبما يجيش في اعماقكم من ايمان، تدركون بأن ما يجري في العراق الآن يتناول مصير الامة العربية كلها، فلذلك تشعرون بواجبكم التاريخي وتتطلعون الى اداء هذا الواجب بشكل قوي يحقق النصر لمبادئكم. ان من طبيعة هذه النهضة العربية الحديثة ان يكون طريقها شاقاً وان تمتحن بين الحين والآخر بالمشاكل الصعبة المعقدة، لأنها نهضة هيأت لها قرون طويلة كانت فيها عبقرية الشعب العربي وحيويته مختزنة، وكان لابد ان تأتي نهضته نهضة اصيلة انسانية لأنها أتت بعد صبر وانتظار طويل، ولأنها تأتي من أمة ألفت حمل الرسالة واعتادت أن تنظر الى الحياة بأنها رسالة. فيجدر بنا اذن ان نتذكر هذه الخاصة لبعثنا الجديد، خاصة الصعوبة والمشقة لكي يكون بعثاً اصيلاً، وعندما نتذكر ذلك نقبل على الصعوبات بلهفة للقائها لأننا نرى فيها السبيل الذي نريد ان نحققه. الفرق هو بين ان ننظر الى العقبات بأنها عقبات وبين ان ننظر اليها بأنها هي الطريق. كل ذلك لكي يعطي العرب ما يؤهلهم تاريخهم ان يعطوه وما تنتظره البشرية منهم. ولا يمكن ان نعطي شيئاً اصيلاً يصلح لاعادة تنظيم مجتمعنا ووضع اسس حديثة له، لايمكن ان نعطي ذلك الا اذا خبرنا المصاعب واصطدمنا بغيرنا وبمختلف المشاكل والاغراض الانسانية حتى يكون الحل الذي يخرج من

---

(١) حديث ألقي في اجتماع لرابطة طلبة الأردن في القاهرة،٢٢ نيسان ١٩٥٩.

العرب حلا انسانياً. ولكن ذلك يرتب علينا مسؤوليات كبيرة لأن المهمة الاصيلة لا تأتي بالكلام ولأن هذا التفاؤل والاستبشار بالصعوبات لايكون في التأمل وانما يستوجب العمل الجدي بكل معاني الجدية، فهذا الامتحان الجديد لنهضتنا مهما يكن بالغ الخطورة لا يليق بنا الا أن ننظر اليه كحافز على التصحيح للنواقص التي لاتزال في نهضتنا، للأخطاء والسطحية في التفكير، للضعف في التنظيم، لسطحية الايمان وسطحية الاخلاص للمبادىء التي آمنا بها، فهذه المحنة وهذه التجربة ليست في الواقع الا حافزاً ومنبهاً وليست الا تحدياً جديداً علينا أن نكون به جديرين وأن نعطيه المثل الايجابي.

لعلكم تذكرون بأني كنت أقول بأن معركة الوحدة هي أصعب معاركنا لأنها هي الثورة الخالصة التي يضع فيها العرب جميع أمكانياتهم. الثورة العربية التي لايعتمد فيها العرب الا على انفسهم هي معركة الوحدة، في حين أن ثورة التحرر والثورة الاجتماعية تساندهم فيها قوى أخرى: تيار العصر يصفي الاستعمار، وتقدم الانظمة الاشتراكية في كل مكان. أما الوحدة فهي أصعب لأنها تتطلب من العرب الجهد الذاتي، تتطلب محاربة النفس، تتطلب تضحية وبعداً في النظر، تضحية للسهل القريب في سبيل الأجل الصعب الباقي المتين، وللفوائد التافهة الرخيصة سواء أكانت شخصية أم قطرية في سبيل منفعة الجميع، وهي حساب دقيق وتنظيم وايمان وتجرد. لذلك أقيمت اسرائيل لتعيق سبيل الوحدة، وعندما انطلقت الوحدة، وهذا شيء لم يكن الاستعمار يصندق أنه سيحدث، عندما حدث ذلك كان بالرغم من وجود اسرائيل والاستعمار.

لقد التقوا وتناسوا ما بينهم من فروق قبل عشر سنوات في سبيل اقامة هذا الحاجز وسط الارض العربية، لذلك جمعوا جمعهم لكي يحولوا دون ما نؤمن نحن أنه قدر لابد ان يتحقق. فالمسألة هي هذا الصراع بين الوحدة وأعداء الوحدة. لكن أعداء الوحدة ليسوا كلهم من الأجانب، ليسوا كلهم في الخارج، انما لا تزال توجد في وطننا شروط وأوضاع وعوامل تمنع مجيء الجميع الى الوحدة، تؤخر شمول عقيدة الوحدة. لا يزال يوجد عدد غير قليل في شتى الأقطار يقاوم الوحدة حرصاً على

المصالح الخاصة وعلى الزعامات المحلية ويقاوم الوحدة عن جهل بخيرات الوحدة. لذلك اذا اردنا ان ندخل هذه المعركة ونحن واثقون من انتصارنا فيها فليس أوجب علينا من رؤية الأمور على حقيقتها، ليس أوجب علينا من رؤية الامور صريحة لا مواربة فيها. فكما أن ثمة في العالم مصالح ضخمة تعادي الوحدة لأن الوحدة تهدد هذه المصالح الآثمة، فان في داخل الوطن العربي مصالح آثمة، مصالح خاصة تقاوم وتعارض الوحدة. وهناك ايضاً أعداء للوحدة دون أن يكون لهم مصلحة في مقاومتها. اذن هناك تقصير من قبل دعاة الوحدة وأنصار الوحدة والعاملين في سبيلها، هناك خطأ ونقص، اذ لكي تستطيع الوحدة ان تصمد في وجه أعدائنا ذوي المصالح الذين يقاومونها خوفاً على مصالحهم، يجب ان نكسب وبأسرع وقت ممكن جميع الذين ليس من مصلحتهم معاداة الوحدة لكي يكونوا معها وفي صفها وتيارها وجنوداً في معركتها.

وبالرغم من التقدم الكبير الذي حققته الفكرةُ القومية العربية في السنوات الاخيرة في مجالي الفكر والعمل، وبالرغم من الوضوّح الذي أصاب نواحي عدة من هذه الفكرة، وبالرغم من بعض الانسجام الذي أصاب مختلف نواحي الفكرة القومية فلا يزال فيها جوانب غامضة ولا يزال فيها اضطراب. وهذا يعني أن ألوفاً ومئات الآلاف من أبناء الشعب العربي لا زالوا يقفون خارج المعركة، فنخسر مساهمتهم وان لم يدخلوا الصف الآخر ضدنا.

قلت لكم، أيها الاخوة والاخوات، بأن المعركة في تقديري معركة وحدة وانفصالية، وإن تكن تحولت في وقت قصير جداً الى معركة بين القومية والشيوعية. ولو اننا اعطينا الوحدة مفهومها السليم الكامل الواضح من جميع النواحي لما أمكن ان تتحول المعركة بهذه السهولة وبهذه السرعة الى مضاعفات جديدة، الى معركة قومية وشيوعية. اذ اني لا اقول بوجود غموض تام بل بوجود بقايا غموض في الناحية الاجتماعية لفكرتنا وبقايا غموض في النواحي الأخرى الانسانية والفكرية عامة منعت الوحدة من ان تكون منذ اليوم الاول في العراق شعاراً لجماهير الشعب، شعاراً يرون فيه تلبية جميع مطالبهم وحاجاتهم القومية والاجتماعية والانسانية. لقد كانت الى حد ما هذا الشيء، ولكن بعض الغموض الذي بقي فيها أتاح للشيوعيين ان يظهروا

على المسرح كتقدميين مع ان تقدميتهم زائفة وهزيلة اذا قيست بتقدمية القومية العربية عندما تفهم الوحدة على حقيقتها. وهذا ما سمح لبعض العناصر الرجعية ان تلوذ بالوحدة تتستر بها وتلقي عليها ظلالها الثقيلة وشبهاتها. وهذه سيرة مألوفة، اذ أن نوري السعيد كان في الماضي يتغنى بالوحدة وكان يدعي أنه يعمل لها. واجبنا ان نجعل تقدمية الوحدة العربية حاسمة فاصلة كالسيف لاتدع مجالاً للالتباس كي نكسب الشعب العربي كله. ويجب ان نعرف بأن كسب الشعب العربي له ثمن هو ان نخسر الرجعيين والاقطاعيين والمستثمرين من كل صنف. وهنا لا يمكن التردد في اقتحام الطريق الثوري وفي اتباع الاسلوب الثوري القاطع الحاسم، الاسلوب القوي الذي يدعو جماهير الشعب للالتفاف حول القضية بمنع الفئات المستغلة للشعب من أن تدخل وتتسرب الى صف الشعب لتوجيهه. فهذا القدر من الغموض والارتجال والعاطفية الذي ما زال في فكرة الوحدة وفكرة القومية عامة يحمل، لا أقول كل المسؤولية، ولكن بعضها في المعركة الجديدة التي فرضت علينا.

وهذا ما مكن الشيوعيين بمساعدة الاستعمار وبمساعدة الشيوعية الدولية ومساعدة الانفصالية والشعوبية في الداخل من ان يخدعوا ويضللوا ويكسبوا وقتاً وقواعد، ويمتلكوا الى حد ما زمام المعركة مؤقتاً. لم يكن في مخطط الحركة التقدمية ان تدخل في معركة مع الشيوعية. لم تكن الخطة القومية في ان تفتح معركة مع الشيوعية، ولكن الشيوعيين هم الذين فرضوها، فما علينا الا أن نجني فوائدها. فالشيوعية في الواقع استبقت المعركة كالمذعور الخائف الذي يعرف ان مصيره آت، ومعرفته هذه تدفعه الى استباق الحادث والى التعجيل في مصيره. لقد ادركت الشيوعية المحلية في البلاد العربية منذ سنتين او ثلاث سنوات على الأقل بأن ما كان يقال وما كان يجري على ألسنة الشعب هو حق وحقيقة، وليس لهواً او مزاحاً، وان الامة العربية دخلت في طور البعث وفي طور النهضة الحديثة، وان لا مجال للشيوعية مع هذه النهضة، فأصبح همهم ان يعرقلوا ويؤجلوا تحقيقها. في هذه البلاد. وأقول يقينا بأن هذا ليس مقتصراً على الشيوعية المحلية، بل أؤمن بأن الشيوعية الدولية ترى في نجاح الثورة العربية نهاية لها او ما يشبه النهاية، او على الأقل منافساً خطيراً لها لأن الثورة العربية ليست وليدة الثورة الشيوعية ولأنها عقيدة

تستطيع اكثر من غيرها ان تثبت ملامح الثورة الاصيلة والعقيدة الاصيلة. والشيوعية تعرف خطر ذلك عليها. فكان اذن للشيوعية مصلحتان في عرقلة الوحدة: مصلحة في داخل الوطن العربي ومصلحة عالمية، لأن نجاح الثورة العربية ظهر منذ الآن، ونحن ما زلنا في الخطوات الاولى، انه يعطي مثلا وقدوة لجميع شعوب العالم وخاصة شعوب آسيا وافريقيا، خاصة وان الشيوعية كانت تحسب هذه الشعوب رصيداً لها تستطيع ان تؤثر فيها وتسيرها. وهكذا تطورت المعركة واتخذت شكلاً جديداً، عقائدياً، حاداً، فما علينا الا ان نستبشر بما فرض علينا فرضاً وأن نحول المصاعب الى مناسبات لتعميق فكرتنا ولتقوية وتوحيد نضالنا ولرفع مستوى معركتنا الى المكان التاريخي الذي يليق بأمتنا. فلقد كنا ننحصر كثيراً بالحوادث القريبة، ننحصر كثيراً في حدودنا السياسية ونهمل ان نلقي نظرة على حركتنا في العالم وفي التاريخ. فجاءت هذه المعركة تذكرنا بالقوى الكامنة في حركتنا وتجربتنا القومية التي أنتبه اليها الاعداء والمنافسون ونحن لم ننتبه لها.

الثورة الشيوعية في اوروبا تعرف انها تدخل مرحلة الشيخوخة، ليس لأن عشرات السنين مضت عليها، اذ ليس ضرورياً ان يكون الزمن عامل شيخوخة. بل لأنها سلكت سبيل المساومة والابتعاد عن المبادىء، ولأنها نسيت الدافع الاول الثوري واخذت تتنازل امام الواقع ونسيت الثورة كثورة عالمية وأخذت تهتم بمصلحة الدولة. هذا الضعف الذي طرأ على الشيوعية منذ سنين، اقول انه بلغ ذروته عندما تورطت الشيوعية في معاداة ومهاجمة القومية العربية وفي معاداة الامة العربية التي هي أمة ثائرة ما زالت تكافح الاستعمار وما زالت تكافح الرجعية وما زالت تناضل من اجل وحدة اجزائها والحق في جانبها والتاريخ في صفها، وان اي دولة تقف في صف آخر فانها تقف ضد سير التاريخ وضد الحق. ولا اعرف ورطة اصعب من هذه الورطة التي انزلقت اليها الشيوعية العالمية. الشيوعية المحلية قصيرة النظر، مزيفة منذ بدايتها لأنها لم تقم على طبقة عاملة وانما على الاقليات غير المندمجة في التيار الوطني. وقد زادتها تزييفاً تبعيتها العمياء للشيوعية الدولية، وخاصة عندما وضعت هذه الاخيرة نفسها في صف ضد القومية العربية، وعندما يقوم الشيوعيون المحليون

بتقليد الشيوعية العالمية في تشويه الحقيقة العربية وفي تفسير الشيوعية العالمية تفسيراً خاطئاً.

اذن نحن نستبشر لأن حركتنا اصيلة الى حد ان الحركة التي كانت تحتكر العقائدية في العالم وتحتكر رعاية مصلحة الشعوب، شعرت بالغيرة وشعرت بالمنافسة فتورطت في معاداتنا ولم نعادها نحن. فيا ايها الاخوة، اقول لكم ذلك لتعرفوا دائماً المستوى التاريخي الذي يجب ان نعمل فيه. لكي تتذكروا دائماً ان للامة العربية رسالة، وان ثمن الرسالة لايكون سهلاً ولا ثمناً رخيصاً. اقول لكم بأن ثورتنا هي لنا وهي للعالم، ومن حقنا ان نطمح هذا الطموح، لأننا عانينا وما زلنا نعاني تجارب قاسية تؤهلنا معاناتها لأن نعطي حلولاً عميقة للانسانية. ولكن يجب علينا الا نؤخذ بالجانب السهل من هذا الكلام. اذ لايليق بنا مطلقاً ان نهمل ما يرافق ثورتنا من ثغرات، بل الاجدر بنا ان نعترف بها ونتلافاها، وان نشكك في انفسنا وفي ما نقدمه، وان نطلب دوماً المزيد من النقد الذاتي وان نكون مستعدين للتصحيح اذا ظهر اي خطأ في خططنا وعملنا. جدير بنا ان نعطي للخصم حقه. فالمعركة التي نخوضها قاسية وهي معركة تشرفنا لأنها مقياس لتضحيتنا ولأنها تنبىء عن الامكانيات الكامنة في ثورتنا. ولكن بين خصومنا من هم اشداء متسلحون بالعلم والتنظيم. هذه الثورة الشائخة التي تحدثت عنها الآن، لا يحسن بنا ان نستخف بها لأن عقيدتها رغم ما فيها من اصطناع، فان فيها جهداً انسانياً كبيراً، فيها جهد المئات والالوف، فيها خلاصة اتعاب مائة سنة من الذكاء البشري وتجارب البشرية في النضال. يجدر بنا ان نعرف مواطن القوة عند الآخرين كما نعرف مواطن الضعف فيهم. فالمعركة خطيرة وقاسية، ولكن نستطيع اذا رجعنا الى مبادئنا وتعمقنا فيها وفي تطبيقها، وجعلنا نضالنا وتنظيمنا في مستوى هذه المبادىء وفي مستوى الامة التي تصنع التاريخ، عندها نستطيع ان نحول جميع الصعوبات والعقبات والمحن التي تعترض سبيلنا الى فوائد وخيرات ومناسبات لتعميق فكرتنا. وأول ما تتطلب منا هذه المعركة، وهي اولاً وآخراً معركة الوحدة العربية، ان نطبق فعلياً وبكل اخلاص وجدية مبدأ الوحدة، وحدة النضال، وان نعتبر العراق اليوم ساحة نضال لجميع العرب.

نيسان ١٩٥٩

لبنان والعروبة

حسبما تكون نظرتنا الى مستقبل الاتجاه العربي الثوري نظرة متفائلة اومتشائمة، ننظر ايضاً الى موضع لبنان من العروبة، وإلى موقف العروبة من لبنان.

والواقع ان اكثرية الذين يسمون انفسهم ثوريين عرباً بهم يأس من لبنان ومن امكانية انفتاحه على العروبة وانسجامه معها.

وسبب هذه النظرة سطحية وانحراف في ثورية هؤلاء «الثوريين». فالعروبة الحديثة، اي العروبة الثورية، لا يجوز ان تيأس من جزء من اجزاء وطنها وشعبها، لان الثورة العربية ليست الا الانكباب على مواطن الالم واسباب التأخر والفرقة في مجتمعنا، ومعالجتها من الاعماق والجذور، بروح مشبعة بالايمان والتفاؤل، ايمان بمبادىء الثورة، وتفاؤل بقدرة شعبنا على التجاوب مع هذه المبادىء.

وأكثر من ذلك، فالروح الثورية انما هي التي تتخذ من المشاكل المعقدة مناسبات ودوافع لتعميق المبادىء وامتحانها، وتصحيح الاسلوب، واعطاء الرسالة كل معناها ومداها.

وفي وطننا العربي الكبير من المشاكل والاوضاع الشاذة المتراكمة ما يتحدى ثورية القومية العربية واصالتها كل يوم، ويدفعها باستمرار كيما تجعل من واقعها وعاءاً شفافا للمبادىء التي نادت بها.

فالمغرب العربي وتكوينه التاريخي الخاص الذي جمع بين العرب والبربر، ثم هجرة اعداد ضخمة اليه من الاوروبيين في ظل الاستعمار الفرنسي . . . والعراق وأقلياته العنصرية، وخاصة تلك الاقلية الكبيرة من الاكراد. . . ولبنان وتكوينه الخاص الذي اعطى لفروق المذهب والدين معنى الاختلاف الحضاري، كل هذه الحالات تتطلب حلولا ثورية سليمة، تحفظ للعروبة كل اجزاء ارضها وشعبها، وتحقق الوحدة الروحية والتفاهم والانسجام بين الجميع، بدلا من الحلول النابعة من اليأس التي تتراوح بين بتر الاجزاء المسببة للمشاكل، او الاحتفاظ بها بالقوة والقسر.

واذا قصرنا الآن كلامنا على لبنان نجد ان مشكلته لم تطرح حتى الساعة بشكل

صحيح ونزيه، وأول ما يتوجب تصحيحه هو الاعتقاد بأن لبنان يكوّن مشكلة فريدة في الوطن العربي، مع انه احدى المشاكل الرئيسية وقد لا يكون اكثرها صعوبة. ولكن الأهم من ذلك هو التخلي نهائيا عن الحكم على عروبة لبنان بمقاييس هذه الدولة العربية اوتلك، والرجوع بدلاً من ذلك الى مقاييس العقيدة القومية الثورية التي لم تتجسد بعد بصورة كاملة في اية دولة عربية، وان كان بعض الدول يقترب منها اكثر من بعضها الآخر.

في ضوء هذه الحقيقة يبدو لبنان اقل ابتعادا عن العروبة من عدد من الاقطار الاخرى. وعندما نتخلص من هذا الالتباس نكون في الوقت نفسه قد وضعنا حدا في لبنان للاعتقاد الخاطىء الذي يعتبر كل نقص اوخطأ في تصرفات بعض الدول العربية نقصا في القومية العربية ذاتها. كما اننا، بالمنطق نفسه، نرفض تقسيم الشعب في داخل لبنان الى قسمين، قسم مع العروبة وقسم ضدها، ذلك ان الجميع في نظر المقاييس القومية الثورية، بعيدون عنها، ولوباشكال ونسب مختلفة. اذ انه لو صح التقسيم الاصطلاحي وكان نصف سكان لبنان «عروبيين» اي عربا ثوريين، لما بقي فيه مخاصما للعروبة غير القلة من الرجعيين، بل لما كان فيه تقدمي الا وهو نصير لها مؤمن بها، لان مشكلة لبنان مع العروبة ليست الا مشكلة تقدمية العروبة.

وبهذا المعنى يصبح للبنان دور اساسي في تصحيح وتعميق وتكامل الحركة العربية الثورية، حتى ولو كان الذين يخاصمون العروبة فيه لا يقصدون التصحيح من موقفهم السلبي العدائي، اذ المفروض في العروبة الحديثة ان تكون قادرة على قبول هذا التحدي والاجابة عليه بمزيد من توضيح تقدميتها وتعميق ايمانها بالحرية والانسانية.

عام ١٩٦٠

الباب السابع

في الأشتراكية العربية



موقفنا من النظرية الشيوعية

ان قوة النظرية الشيوعية في البلاد العربية ناتجة عن ضعف الفكر بصورة عامة، وعن ضعف الفكرة القومية بصورة خاصة.

وسنتناول فيما يلي بعض النقاط التي تتعارض فيها الشيوعية مع الفكرة العربية. ونحن نعتقد ان تأثيرات النظرية الشيوعية ستبقى سلبية على القومية العربية، ما لم تعبر هذه القومية عن نفسها بنظرية علمية متماسكة شاملة، قابلة لان تتحقق في العمل المنظم.

١ ـ الشيوعية غربية

الشيوعية هي وليدة الفكر الاوروبي والاوضاع الاوروبية الحديثة. وكل الذين تناولوا الماركسية بالشرح والتصحيح ارجعوها الى اصولها الاوروبية الصرفة، فهي في نظرهم تمثل النزعة «الانسانية» التي ظهرت في اوروبا في القرن السادس عشر كبعث وتجديد لروح الحضارة الاغريقية اللاتينية. وهي وليدة القرن الثامن عشر وفلسفته العقلانية المجردة التي تلخصت في مبادىء الثورة الافرنسية. وهي اخيرا نتيجة لتقدم الصناعة العجيب في القرن الماضي ولما رافقه من نظريات اقتصادية ومذاهب اجتماعية.

فالشيوعية تتصل بألمانيا بواسطة فلسفة «هيجل» وبفرنسا بواسطة مبادىء الثورة والمذاهب الاشتراكية التي تفرعت عنها، وبانكلترا بواسطة الثورة الصناعية وما انتجته من نظريات في الاقتصاد. اما في روسيا فللشيوعية صلة بروحها القومية الخالصة، يعرف ذلك من اطلع على كتابات تولستوي ودوستويفسكي. والحق ان الشيوعية في روسيا هي مزيج من التصوف الروسي والعلم الاوروبي.

٢ ـ الشيوعية رسالة تنفي الرسالة العربية الخالدة.

ان الشيوعيين اذ يدعون العرب الى نظريتهم، يتجاهلون حقيقتين:

١ ـ ان للامة العربية تاريخا مستقلا عن التاريخ الغربي الاوروبي وان النظريات والانظمة المنبعثة من حضارة الغرب واوضاعه لا تلبي حاجات البيئة العربية ولا تلقى

فيها تقبلا.

٢ ـ ان الامة العربية ليست كأية امة صغيرة ثانوية، يمكنها ان تتبنى رسالة غير رسالتها الخاصة، وان تسير في ركاب امة اخرى وتعيش من فضلاتها.

الشيوعية ليست مجرد نظام اقتصادي بل هي رسالة، رسالة مادية اممية تنفي حقيقة القوميات في العالم وتنكر الاسس الروحية والوشائج التاريخية التي تقوم عليها الامة، فالعرب اذن مخيرون بين الاممية المصطنعة وبين انسانيتهم الحية المتحققة ضمن قوميتهم كنتيجة لنضج هذه القومية وتكاملها. وان حرص العرب على رسالتهم الخاصة بهم وعلى استقلال شخصيتهم لايعني منهم تعصبا ورغبة في الانعزال والجمود، ففي حاضرهم وماضيهم ما يكذب هذه التهمة. ولكنهم مقتنعون بأن كل اصلاح او تقدم لحياتهم لايستمد دوافعه وغايته من عقيدتهم القومية، ومن الايمان بوجود رسالة عربية خالدة سيكون تقدما سطحيا يعجز عن توحيدهم ورفعهم الى مستوى الابداع والبطولة، ويتركهم افرادا متنافرين، تستعبدهم الانانية وشهوة المادة.

٣ ـ الشيوعية تربط العرب بالعالم ربطاً متحزباً خطراً.

يقرر الشيوعيون ان العرب عاجزون عن تحقيق استقلالهم ونهضتهم القومية اذا لم يربطوا مصيرهم بمصير العالم، ولم يأخذوا بأسباب الحضارة الحديثة، ثم يستنتجون من ذلك نتيجة خاطئة مغرضة: وهي انهم وحدهم يستطيعون ايجاد هذا الارتباط المزدوج، بأن يلحقوا العرب فكريا بالنظرية الشيوعية وان يلحقوهم سياسيا بمنظمات الاممية الثالثة اي بسياسة الاتحاد السوفييتي. ولكن العرب لاينكرون ضرورة اتصالهم بالعالم الحديث، الا انهم لا يرون امكان الافادة من الاتصال الثقافي الا اذا تكونت شخصيتهم القومية وبلغت حدا كافيا من النمو والوضوح والوعي لخصائصها يسمح لها بتمثل الافكار الاجنبية وتحويلها الى ما يزيد في نموها وتوضيح اتجاهها. لذلك هم يشعرون بخطر الارتباط الفكري المتحزب عليهم، لانه من جهة يهدد بطمس شخصيتهم القومية او على الأقل يعوق تفتحها، ومن جهة اخرى يفرض على الفكر العربي الحديث، وهو بعد في اول يقظته، نظرة متحزبة

تقضي على حريته ونزاهته، وتدفعه في طريق التعسف والتعصب والخطأ. اما من جهة الاتصال السياسي فالعرب لايطلبون اكثر من ان يكون تحالفهم مع الدول حرا، وان يستلهموا فيه مصلحتهم القومية قبل كل شيء.

٤ ـ الشيوعية لاتفهم امراض المجتمع العربي.

النظرية الشيوعية وليدة الغرب وقومياته المتعصبة المتناحرة، وصناعته المتضخمة. لذلك فهي في البلاد العربية تحارب امراضا غير موجودة، اي انها تلهي العرب عن محاربة امراضهم الحقيقية. فالشيوعية تريد ان تهدم العصبية القومية في امة لم تتكون قوميتها بعد، وتخشى من هذه العصبية على الامم الاخرى وعلى السلام العالمي في وقت لايزال العرب فيه محكومين من قبل غيرهم.

واخيرا فالشيوعية تمنع العرب من التفكير في اشتراكيتهم والاهتداء اليها، لأنها بادعائها ان الاشتراكية هي الماركسية، وان لا اشتراكية الا فيها وبها، قد شوهت الاشتراكية الصحيحة التي يحتاجها العرب. والماركسية، كما رأينا، نظام كلي اممي يتجاوز السياسة والاقتصاد الى الاخلاق والدين وكل ناحية من نواحي الحياة، في حين ان الاشتراكية ليست اكثر من نظام اقتصادي مرن متكيف مع حاجات كل امة. وليس بعسير على العرب ان يهتدوا الى اشتراكية عربية مستمدة من روحهم وحاجات مجتمعهم ونهضتهم الحديثة، تقتصر على ايجاد تنظيم اقتصادي عقلاني عادل يحول دون الاحقاد والنزاعات الداخلية ودون استغلال طبقة لأخرى وما ينتج عن هذا الاستغلال من فقر وجهل وشلل لنشاط أكثرية افراد الشعب العربي، وهكذا تكون هذه الاشتراكية خادمة للقومية العربية، وعنصرا هاما في بعثها وتحقيقها.

عام ١٩٤٤

معالم الاشتراكية العربية

اذا اردنا ان نعرّف اشتراكيتنا تعريفا يميزها عن الاشتراكية الغربية، لابد لنا من ان نلقي نظرة على نشأة الاشتراكية في اوروبا وعلى الشروط الفكرية والروحية والاقتصادية التي ادت الى ظهورها، ثم ننتقل بعد ذلك الى الكلام عن مجتمعنا العربي فنميز وضعه وشرطه وننظر فيما اذا كان الحل الذي يصلح للامم الغربية يمكن ان يكون صالحا لنا ايضا، لان اشتراكية البلاد العربية يجب ان تلبي الحاجات العربية وتراعي جميع الشروط والظروف المحيطة بالأمة العربية في مرحلتها الحاضرة.

ظهور الاشتراكية الغربية ـ ظهرت الاشتراكية في الغرب كحركة منظمة على اثر ظهور الصناعة الكبرى. والصناعة الكبرى وليدة الاختراعات الحديثة، بصورة خاصة اختراع الآلة، فنتج عن ذلك ان نشأت المصانع الكبيرة واجتذبت اليها العدد الغفير من العمال، وتوسعت المدن وتشكلت هذه الجماهير من العمال التي تميز العصر الحديث في الغرب خاصة وفي العالم بصورة عامة. فقد كان لابد لهذه الصناعة الكبرى من أيد عاملة كثيرة، فترك الفلاحون قراهم وزراعتهم، وهجر صغار الصناع وأصحاب الحرف الصغيرة المستقلة صناعتهم وحرفهم اضطرارا نتيجة للمزاحمة القاسية التي فرضتها عليهم الصناعة الكبرى ذات رؤوس الاموال الضخمة المكتلة، واضطروا الى ان يشتغلوا كعمال مأجورين، بعد ان كان للفلاح ارضه وأسرته ووسطه الاجتماعي وتقاليده الروحية، وبعد ان كان للصانع الصغير المستقل حريته ولذته في العمل.

لقد اصبح جميع هؤلاء بمثابة آلات بشرية تخضع لمقتضيات الصناعة الكبرى الضخمة، وكان عليهم ان يهجروا حياتهم الماضية ويرضوا بهذا المصير البائس، فنشأت في المدن جماهير تميزت بفقدان الأواصر الاجتماعية، واتصفت بالنقمة واليأس، ثم دخلها المهاجرون المشردون من شتى الآفاق والبلدان، فلم يكن يجمع بين هذا العدد الكبير من العمال اي رابط كرابط الجنس والتاريخ والبيئة الاجتماعية،

والصلة الوحيدة التي كانت تضمهم هي شيء سلبي الا وهو اليأس والنقمة.

من وحي هذا الوسط السلبي ظهرت النظريات الاشتراكية فانطبعت بطابعه وأفصحت عن حاجاته، فكانت النظريات الاشتراكية نظريات امميه لا تعترف بالوطن، منفصلة عن كل رابطة تاريخية او اجتماعية، متمردة على الدين السائد والاخلاق المعروفة، وبالجملة كانت ثورية الى أبعد حد، وكانت على حق في اتخاذها هذا الشكل، وفي اتجاهها في هذا السبيل.

ومنذ اوائل القرن الماضي بدأت البلاد الغربية والدول الكبرى مرحلة توسع وتخمة بعد ان استكملت شروطها القومية، وكانت الغاية من هذا التوسع في العالم هي ايجاد مصرف لنشاطها العسكري والاقتصادي. وكانت الطبقات الرأسمالية المتمولة هي المسيطرة على الدولة، والحكومة ليست الا ممثلة او مندوبة من قبل هذه الطبقة فنتج عن ذلك افتراق تام بين طبقتين من المجتمع، الطبقة المتمولة المستثمِرة، والطبقة الفقيرة المستثمَرة، وأدت نقمة هذه الطبقة الأخيرة على المتمولين واصحاب الصناعات الكبرى الى النقمة على الامة كلها وعلى الوطن، فاصطبغت الاشتراكية هناك بالصبغة الاممية المعادية للفكرة القومية. وقد خاطب ماركس عمال العالم وهو يقصد عمال اوروبا بصورة خاصة فقال: ليس للعامل وطن، يا عمال العالم اتحدوا.

فالاشتراكية قد توجهت اذن نحو بيئة ونوع من البشر فقد روابطه بالوطن فعلا، وقضت عليه الازمة الاقتصادية والتنافس الرأسمالي القاسي بأن يكون مبتورا عن مجتمعه قد قطعت جذوره من ارضه وقوميته، فلم تبق له الا تلك الصفة الحيوانية التي تقتصر على الغذاء فقط، لم يعد العامل غير مخلوق لايهتم الا بما يغذي جسمه وينقذه من الجوع.

اما المؤسسات الفكرية والروحية في الامم الغربية فقد وقفت على الغالب في صف الرأسمالية المستثمِرة. فالدين انحاز الى الحكومات الرأسمالية واخذ يحميها بنفوذه ويدافع عنها، والفكر بصورة عامة انحاز الى الطبقة المحافظة،، اي ان الكتاب وممثلي الفكر اخذوا يدافعون عن الوضع الراهن والماضي ويطلبون

المحافظة عليه والدفاع عنه، فأدى هذا الى حدوث تلك الموجة الطاغية من الثورة والتطرف اللذين حملت الاشتراكية لواءهما.

والخلاصة، ان الاشتراكية في الغرب كانت مضطرة الى ان تقف ليس ضد الرأسمالية فحسب، بل ضد القومية ايضا التي حمت الرأسمالية، وضد الدين الذي دافع عنها، وضد كل فكرة تدعو الى المحافظة وتقديس الماضي، كل ذلك لان الرأسمالية قد استغلته للدفاع عن مصالحها، فكان ضد مصلحة الحركة الاشتراكية.

العرب والمجتمع الغربي ـ لنعد الان الى المجتمع العربي ولننظر الى شروطه الحاضرة، الى مميزات المرحلة التي يجتازها العرب. اننا نرى اولا ان البلاد العربية لاتشبه في شيء حالة الامم الغربية في مطلع القرن التاسع عشر فهي ـ اي الامم الغربية ـ قد انهت دور تشكيلها واستكملت شروطها ودخلت في دور جديد هو التوسع، في حين ان الامة العربية لا تزال الى حد كبير فاقدة لحريتها وسيادتها وهي علاوة على ذلك فاقدة لوحدتها القومية، تشكو من تجزئة اقطارها.

والبلاد العربية من جهة ثانية ليست في حالة الامم الغربية من حيث المحافظة الروحية او الفكرية او الاجتماعية لان الامة العربية تشعر وتدرك تمام الادراك ان حياتها تتوقف على نبذ القديم والدخول في مرحلة تجدد قوي حاسم، وتعرف ان ليس في حياتها الحاضرة شيء حسن يستحق ان تحافظ عليه، بعكس الامم الغربية التي كان تاريخها تاريخاً صاعدا يتكامل، لذلك فهي مطبوعة بطابع المحافظة، كما ان الامة العربية ليست امة طامعة الى الاستعمار والتوسع حتى تكون في صف معاكس للاشتراكية. فوضع الامة العربية السياسي والروحي والحقوقي هو وضع انساني، يتوافق كل التوافق مع سير قوميتنا في اتجاه الانسانية لان الحقوق التي نطالب بها وندافع عنها هي عين الحقوق الانسانية. وكذلك فانه ليس من مبرر لاصطباغ اشتراكيتنا بالصبغة المادية، فالروح في الغرب قد وصمت وصمة كبيرة لانها وقفت الى جانب الاستغلال والظلم والرجعية والى جانب شهوة التوسع والاستعمار، فكان لابد للاشتراكية وهي الحركة التحررية من ان ترفع لواء المادة في وجه تلك الروح المحافظة الرجعية، كما كان لابد لها ايضا حتى تستطيع الصمود

واقتحام تلك الصعوبات التي تقف في وجهها فتجابه ذلك الخصم العنيد الا وهو المال وكل المؤسسات التي تدافع عنه، من ان تظهر بمظهر الدين الجديد، فجعلت من المادة فلسفة عامة للكون ونظرة للحياة. اما نحن فليس هناك ما يوجب علينا ان نتبنى الفلسفة المادية حتى نكون اشتراكيين لان الروح بالنسبة الينا هي الأمل الكبير والمحرك العميق لنهضتنا، وهي التي تتجاوب اعمق التجاوب مع امانينا في الحرية والتجدد والعدل والمساواة. انها روح سليمة غير مشوبة بالظلم كما في الغرب. والاشتراكية بالنسبة الينا فرع ونتيجة لحالتنا القومية ولضرورات قوميتنا، فلا يمكن ان تكون الفلسفة الاولى والنظرة الموجهة لكل الحياة، انها فرع خاضع للأصل الذي هو الفكرة القومية.

اشتراكيتنا ايجابية-ان نظرة نلقيها على الصورة التي رسمناها للمجتمع الغربي الذي نشأت فيه الاشتراكية يمكن ان تنبئنا بالفروق التي تميز حياتنا ومرحلتنا عن ذلك المجتمع. فنحن امة تتأهب لاستقبال حياة جديدة، وتناضل لاستكمال حريتها ووحدتها، فالدافع الذي يحدوبها هو الامل في المستقبل والشعور بروابط الماضي والتاريخ ووحدة المجتمع، فليس لدينا ذلك الوسط السلبي الذي يخاطبه ماركس والذي لايعرف له اصل اوروح. لذلك فان حركتنا ايجابية بعكس الاشتراكية الغربية المطبوعة بطابع السلبية، ويمكننا ان نقرر بأن القومية العربية مرادفة للاشتراكية في وقتنا الحاضر، فلا تناقض ولا تضاد ولا حرب بين القوميين والاشتراكيين. فالقومي العربي يدرك ان الاشتراكية هي انجع وسيلة لنهوض قوميته وأمته، لأنه يعلم بأن نضال العرب في الوقت الحاضر لايقوم الا على مجموع العرب، ولايمكنهم ان يشتركوا في هذا النضال اذا كانوا مستثمَرين منقسمين سادة وعبيدا. فضرورات النضال القومي توجب النظرة الاشتراكية، اي ان نؤمن بأن العرب لايمكن ان ينهضوا الا اذا شعروا وآمنوا بأن هذه القومية ستضمن العدالة والمساواة والعيش الكريم للجميع. القوميون العرب هم الاشتراكيون، فهذا النضال الذي تقومون به ضد الطبقة المستغِلة التي فشلت في نضالها، وشوهت النضال وانحرفت به عن طريقه واستغلته اي استغلال، ان هذا النضال الذي يقوم به الجيل الجديد هو في الوقت

نفسه نضال في سبيل تحقيق الاشتراكية، لان القضاء على الطبقة المستغِلة للقضية القومية، هو ايضا قضاء على الاستغلال الطبقي الاجتماعي، اي تحقيق للاشتراكية.

مشكلتنا هي القضية القومية ـ لكل امة في مرحلة معينة من مراحل حياتها محرك اساسي يهز اعماقها ويفجر فيها ينابيع النشاط والحيوية والحماسة ويتفتح له قلبها وهو بمثابة نقطة يتركز فيها انتباه الامة، وتكون مفصحة عن اعمق حاجاتها في مرحلة ما.

فاذا نظرنا الى العرب في الماضي وجدنا ان هذا المحرك الاساسي كان في وقت ما عند ظهور الاسلام هو الدين. فقد قدر وحده على استثارة كوامن القوى في النفس العربية واستطاع ان يحقق الوحدة والتضامن وان يلهب النفوس ويفتح القرائح وان يحقق بالتالي تلك النهضة. في ذلك الوقت، دعي العرب الى الايمان باله واحد، فقادهم ذلك الايمان الى تحقيق الانقلاب الاجتماعي الاقتصادي الذي كانوا بحاجة اليه. فالاصلاح الاجتماعي كان فرعا ونتيجة للايمان العميق بالدين. اما اليوم فان المحرك الاساسي للعرب في هذه المرحلة من حياتهم هو القومية، التي هي كلمة السر التي تستطيع وحدها ان تحرك اوتار قلوبهم وتنفذ الى اعماق نفوسهم وتتجاوب مع حاجاتهم الحقيقية الاصيلة.. فهم مكلومون في حريتهم وسيادتهم ووحدتهم لذلك لايمكنهم ان يفهموا لغة غير لغة القومية.

وكما استجابوا في الماضي لنداء الدين فاستطاعوا ان يحققوا الاصلاح الاجتماعي فانهم يستطيعون اليوم تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين المواطنين وضمان الحرية بين العرب جميعا، نتيجة للايمان القومي وحده.

فالفرق بيننا وبين الغرب هو ان الامم الغربية، والكبيرة منها بصورة خاصة، انها امم ذات قوميات قائمة مستكملة الشروط، فليست القومية هي المحرك الاساسي بل الاقتصاد لان المشكلة الاجتماعية تحتل المكانة الاولى في حياتها. فهم لايختلفون على استقلال البلاد وحريتها ووحدتها، لانها مستقلة موحدة، بل على تعريف المواطن وحقوق المواطنين، وهم لايتنازعون على تاريخ الامة وماضيها ومستقبلها، وانما على توزيع الثروة.

نهم يختلفون على حق كل مواطن في ان يستمتع بالشروط المادية اللازمة لتحقيق مواهبه وضمان كرامته في الحياة. ونحن بالرغم من ان المسألة الاجتماعية والاقتصادية لها خطورة كبيرة في حياتنا فهي المشكلة الاولى، غير انها تابعة لمشكلة اهم واعمق هي المشكلة القومية. ولا نستطيع ان نضمن للمشكلة الاقتصادية حلا الا اذا اعتبرت فرعا ونتيجة لازمة للمشكلة القومية.

اذا القينا نظرة اخيرة على وضع الامة العربية اليوم نشاهد ان الفكر العربي اخذ يستفيق من نومه الطويل ويتأهب لخلع القيود وللانطلاق والابداع ويظهر استعداده لاسترداد حريته وحيويته الماضية، غير ان النظريات الاشتراكية الغربية تهدده بأن تخنق يقظته في مهدها لانها مركبة تركيبا مصطنعا، وهي لايمكن ان تحدث في الغرب الاضرار نفسها التي يمكن ان تحدثها في بلادنا، لان الفكر الغربي نشيط قوي ذو تراث حي متصل. ومهما كانت النظريات الاجتماعية والسياسية مصطنعة فإنها لاتستطيع القضاء على حرية الفكر الغربي وعلى نزاهته وعلى القواعد الاساسية التي يقوم عليها، في حين انه لم يمض زمن طويل على تحررنا من العقلية السحرية والاوهام والخرافات، بل اننا لا نزال خاضعين لها الى حد ما. فكيف يكون مصير الفكر العربي اذا احتوته نظرية مصطنعة تفسر الكون والحياة وكل مظهر من مظاهر النشاط الانساني، وفي هذا التفسير ما فيه من تعسف وتعصب.

فالفرد العربي اليوم يحاول بعد خضوع مئات السنين للمجتمع ولقيوده البالية ان يسترد حقوقه شيئا فشيئا، والمجتمع الصحيح لايقوم الا على الافراد الاحرار، فحرية الفرد شرط اساسي لتحريك المجتمع ولانقاذه من الجمود، لانها هي التي تسمح بظهور العباقرة والمصلحين. اما الاشتراكية الغربية، فلا تعترف لهذا الفرد الذي نعلق عليه نحن الآمال الكبار، بأي حق او بأية حرية، فكيف يمكننا نحن الذين لم نكد نخرج بعد من جمود المجتمع القديم، ولم نكد نتحرر من سيطرة طغيان المجتمع ان ندخل ثانية في أسر مجتمع ليس للفرد فيه مكان غير مكان الآلة او مكان خلية سجينة في نظام ضيق محكم.

اما الخطر الثالث فهو على الروح العربية. فهي آخذة بالاستيقاظ، تحن الى

البطولات الماضية وتتشوق الى بطولات جديدة، والتفكير المادي كما هو سائد في الغرب يهدد هذه الروح بالعقم والجفاف والنضوب.

اشتراكيتنا قومية ـ عندما نقول اننا نحتاج الى اشتراكية عربية، نقصد فقط ان تراعي الشروط الخاصة بنا كعرب في هذه المرحلة من الحياة. ونحن لانختلف على مبدأ الاشتراكية وانما على اسلوبها، وعلى الموضع الذي يجب ان تحتله من حياتنا، فلا نقبل ان تكون قوميتنا مرحلة عارضة طارئة من مراحل التطور الاقتصادي كما تدعي الاشتراكية الغربية بل ان على الاشتراكية ان تتلاءم مع امتنا ومع نضالها القومي فلا تكون اداة للتآمر على الوطن، وعامل تفرقة او ستارا لحركات شعوبية.

نريد من الاشتراكية ان تخدم قضيتنا القومية، فعليها ان تزيدنا جرأة في الاقدام على حرية التفكير وعلى المناداة بحرية الفرد والدعوة الى خصب الروح وغناها، لا ان تقضي على حريتنا الوليدة في مهدها.

دعوتنا الروحية دعوة واقعية ـ يجب ان لايفهم من الدعوة الى الروح اننا ندعو الى المحافظة على الاوضاع الفاسدة، او اننا نتوهم ان الاصلاح الاجتماعي يمكن ان يتم بسهولة وذلك بمجرد توفر الرغبة وحسن النية، وأن يظن اننا ننبذ التفكير الواقعي ونهمل ضرورات العلم ومقتضيات التفكير العلمي.

اننا بعيدون عن مثل هذه الاوهام، لأننا نؤمن بأن واجبنا هو ان نكون واقعيين في تفكيرنا كما لو كنا ماديين، لان العودة بالمجتمع الى الوضع السوي المنشود لاتكون بالوهم، والسحر، والغموض، وانما بمشاهدة الواقع والتحقق من امراضه ومداواتها مدواة حقيقية. فالطبقة المستغِلة المستثمِرة لن تتنازل عن ثروتها ومصالحها بمجرد ان ندعوها الى ذلك باسم القومية او باسم الروح والتقدمية، فلا بد من النضال والتكتل السياسي والتفكير الجدي. ان القومية في الغرب اصبحت وسيلة لاستثمار الشعب واستعباده واداة للتعدي على الشعوب الاخرى والدين وقف الى جانب المستثمرين يدافع عنهم، والفكر اخذ يدعو الى المحافظة ومحاربة التجدد، لذلك فقدت الدعوة الروحية كل قيمة لها، وظهرت الدعوة المادية بمثابة المنقذ والمخلص. فالروح اذا آل امرها الى ان تعجز عن معالجة الواقع، وصارت شعارا

للجمود والنفعية والجهل، عندها تكون الدعوة الى المادة هي الدعوة الحقة.

فنحن مهددون بأن تحل المادة محل الروح وأن يحتل الالحاد مكان الايمان والانفلات والتطرف محل الاخلاق، اذا لم يع الشباب مسؤوليته الخطيرة وهي في أن يعطي هذه المفاهيم الروحية والقيم السامية معناها الحقيقي حتى تعود الروح فتسيطر مرة ثانية على الواقع رتفهمه وتستجيب لضروراته. فاذا أرجع الشباب الى هذه القيم الروحية معانيه الأصيلة الحقيقية أنقذ أمته من أخطار العقلية المادية التي تهددنا في أخلاقنا وحيويتنا وحرية فكرنا وأفرادنا، كما تهددنا في قضيتنا القومية.

عام ١٩٤٦

العُمال والاشتِراكيَّة

ان بين[1] الشباب العربي والشعب العربي فرقة لم يقصدها احد من الطرفين وانما وقعت بحكم الاضطرار. فلا الشعب أراد أن يبتعد عن ابنائه ولا الشباب أرادوا أن يبتعدوا عن الشعب، ولكن حالتنا غير طبيعية، ولو كانت الاوضاع سليمة صحيحة شأن البلاد الراقية لكان هذا الاتصال امرا ميسورا ولما كنا سمّينا شعبا وشبابا وفرّقنا بينهم لأن الشباب هم من الشعب أبناؤه واخوته.

ولهذه الحالة غير الطبيعية اسباب ومبررات، فوجود افراد وفئات تستغل موارد البلاد ومواهب الشعب تستعبده لكي يسهل عليها استغلاله لا يوافقها أبدا ان يكون هناك اتصال بين الشعب وابنائه المخلصين الذين يفهمون حاجاته ويطمحون للتعاون معه لبلوغ الغاية المشتركة لمصلحة الجميع.

ان موضوع حديثنا هو الاشتراكية. والاشتراكية بصورة بسيطة كما يفهم من لفظها. هي أن يشترك جميع المواطنين في موارد بلادهم بقصد أن يحسِّنوا حياتهم وبالتالي حياة أمتهم، لأن الانسان الفرد لا يقبل ان يجعل نفسه غاية في الحياة. حتى ان ادنى الملخوقات البشرية في الاخلاق والتفكير نرى فيها هذا الميل وهذه الحاجة الى أن تجعل لحياتها غاية ابعد من مصلحتها الشخصية، فبالاحرى الانسان الراقي الذي لا يستهدف سوى نجاح امته وازدهارها. والاشتراكية يمكن ان تفهم ايضاً بأنها نظرية اقتصادية حديثة ظهرت في قسم من بلاد العالم في هذا العصر، ولها تعاريف وأصول وأنظمة معروفة، غير انها كلها ترجع الى هذا التعريف البسيط الذي ذكرناه، أي اشتراك المواطنين في موارد البلاد التي هم منها.

لكن علينا أن نعرف بأن للاشتراكية معنى آخر غير معنى نظرة معينة ظهرت في الغرب. لها معنى طبيعي مستساغ من النفس البشرية والعقل والضمير، وهي بهذا المعنى لا تخص امة بعينها او تخص عصرا اوزمانا بذاته. هي شيء أعم وأثبت من النظرية.

أيها الاخوان: الحقائق هي دوما بسيطة. ماذا نريد من الحياة لأنفسنا ولأمتنا

---

(١) حديث ألقي في اجتماع عمالي.

ولـلارض التي نعيش عليهـا ؟ هل نريـد لهـا الا الخيـر والتقـدم ؟ هل نريد لها الا أن يكـون الـواحـد منا ضامنا لحاجاته، وان تكون السبل مفتوحة امامه لكي يظهر مواهبه وينشـط ويعمـل وينتـج في النـواحي التي يجيـدهـا، وان يضمن مثـل هذا السبيـل لأولاده؟. وبـالتـالي نريـد لامتنـا ان تكون امة يسودها الخير والعدل والانتاج النشيط الـراقي. وان تكـون حالتهـا الاجتماعية على ارقى شكل ممكن في العلوم والفنون، وهذا ما يريده الفرد وما يريده المجموع فكيف يمكن ان نحقق هذه الغاية ؟ ان أقلية من النـاس تملك معظم الثـروات وتسيطـر على السلطة وتتصرف بها حسب رغباتها، وهي لا تكتفي بذلـك بل تطلب المـزيـد. والنتيجـة الطبيعيـة هي أن تحـرم أكثـريـة الشعب من حقوقها. ولوكان الاسياد يستطيعون أن يحرثوا الارض بأنفسهم اويشتغلوا بالمصانع لحرموا الشعب من كل حقوقه، لذلك فانهم يجدون انفسهم مضطرين الى ان يعترفوا للاكثرية بحق بقاء الرمق حتى يستطيع الشعب العمل للاسياد.

في هذه الحالة من الاستثمار والاستغلال لا يكون الغدر واقعا على افراد او فئة من الناس وانما تكون الجناية على الامة بأسرها. والبلاد المتخلفة هي تلك التي يكون افـــرادهـــا محـــرومين من اكثـــر حقـــوقهم متأخـرين في صحتهم وعلمهم وانتـاجهم الاقتصـادي. ان هذا الـوضـع الشـاذ، أي سيطـرة أقلية من أبناء البلاد على ثروتها، وحـرمـان أكثـرية الشعب من الحقوق الطبيعية المشروعة، يحول دون تقدم الوطن. فهـذه المنـافـع التي يجنيها المستغلون تخنق مجموع الشعب وتحكم على الأكثرية السـاحقـة التي هي مجموع الامة تقريبا بأن تدفن وهي حية، فالشعب الذي يستطيع ان يصنـع وينتـج ولا يسمـح له الا بانتاج بسيط ولا يعطى الا مدى ضيقا محدودا جدا في الحيـاة، ويفـرض عليـه الجهل والمرض والخوف والعبودية، هذا الشعب هو في حكم الميت وان كانت روحه في صدره.

فاذا فهمنـا الاشتـراكيـة بهـذا المعنى وهي اننا نريد ان نرجع الى الحالة الطبيعية المشروعة وان ينال كل ذي حق حقه حسب جدارته وكفاءته ويسمح للشعب بأن يظهر مواهبه ويستفيد منها، عندها يمكن ان يرتقي الشعب اي المجموع، فالطبقة الشعبية تساوي الامة تماما لانها الاكثرية الساحقة والعنصر المنتج حقا.

الاشتـراكيـة اذن ليست شيئـا غريبـا صعبـا اتـانـا من بلاد نائية، وليست نظريات معقـدة. انهـا الشيء البسيـط المشروع الذي يطلبه كل عقل سليم وضمير حي، ولا

يمكن لأي فرد أو فئة أن يكون مخلصا لوطنه، يشعر شعورا صادقا نحو أمته ويأبى في الوقت نفسه على الشعب هذا الحق، لان القومية، التي هي الغيرة على مصلحة الامة، والاشتراكية تكادان تكونان شيئا واحدا.

فتحقيق الاشتراكية في حياتنا شرط اساسي لبقاء امتنا ولإمكان تقدمها، واذا لم تعمم الاشتراكية ولم نسع الى تحقيق العدل الاجتماعي لجميع الافراد، ولم ينقلب الشعب العربي الى شعب منتج الى اقصى حدود الطاقة، اذا لم يتحقق كل هذا يكون كل كلام عن حرية العرب واستقلالهم ضربا من اللغو ونوعا من التضليل.

ان مصلحة القومية وبقاء الامة ومجاراتها للامم الراقية وصمودها في تيار التنافس بين الدول متوقف على تحقيق الاشتراكية، اي السماح لكل عربي دون تمييز او تفريق بأن يصبح حقيقة ملموسة منتجة ولا وهما من الاوهام.

عام ١٩٥٠

دور العمال
في تحقيق الوحدة والاشتراكية

ليس مستغربا[1] في نظرنا ان نشهد ميلاد هذا الحدث التاريخي الذي هو تأسيس أول اتحاد لنقابات العمال العرب في هذا العام بالذات، الذي حفل بالاحداث الخطيرة وبوثبات الشعب العربي الفذة في ميادين التحرر والاستقلال والوحدة القومية. فلقد بنينا عملنا ونضالنا في هذا الحزب منذ خمسة عشر عاما على مسلمة اساسية بسيطة هي ان القضية العربية كل لايتجزأ. وربطنا بين تحرر الامة من الاستعمار الخارجي وبين تحررها من الاستثمار الداخلي وبين تغلبها على التجزئة وتحقيقها لوحدتها القومية، وها ان الحوادث والوقائع تجيء عاما بعد عام ويوما بعد يوم مصداقا لسلامة تلك النظرة ومتانة ذلك الاساس الذي بنينا عليه نضالنا. فأية خطوة يخطوها الشعب العربي في سبيل انتزاع حريته وسيادته من الاجنبي الغاصب، تؤدي حتما وبالضرورة الى خطوة او خطوات في طريق تحرر هذا الشعب من الاوضاع الاقتصادية الجائرة المتأخرة، كما تسهل عليه توحيد نضاله في مختلف اجزاء وطنه العربي لتؤدي الى توحيد هذه الاجزاء نفسها.

في العمال العرب تتجسد وحدة القضية العربية ـ على أن هذه النظرة الموحدة لقضيتنا ظلت حتى الماضي القريب تقابل من الحكومات ومن اكثر السياسيين في بلاد العرب يالاستهجان والتجريح والمقاومة. ولا نستطيع ان نقول انها ظفرت اليوم ظفرا تاما بل نعلمَ انه ما يزال امامها كثير من العقبات التي تقيمها في وجهها المصالح الخاصة وأنانيات الحكام ورواسب عقلية التجزئة. واذا كان في وطننا العربي فئة مهيأة لان تتحرر قبل غيرها من هذه المصالح والرواسب، وأن تجسد في تفكيرها

---

(١) كلمة ارتجلت في المهرجان الذي اقيم في مكتب الحزب عند زيارة وفود اتحاد نقابات العمال العرب للحزب بمناسبة انعقاد مؤتمرهم الاول في دمشق.

ونضالها وحدة القضية العربية، فانها تكون فئة العمال العرب بصورة خاصة وجماهير الشعب العربي الكادحة بوجه أعم، لان هذه الجماهير تعاني بالتجربة اليومية الحية هذه الحقيقة الناصعة وهي ان أعداءها هم أنفسهم اعداء الامة العربية. فالاستعمار الاجنبي وربيبته اسرائيل والرجعية العربية والحكام الانفصاليون، كل هؤلاء؛ لئن كانوا متحالفين متضامنين في تآمرهم على حرية الامة العربية وانبعاثها وبقائها، فانما ذلك يعود في النهاية الى غرض واحد هو استثمار جماهير الشعب العربي وتسخيرها لمصالحهم الاستعمارية والاقطاعية والرأسمالية، ومعنى ذلك ان مقاومة جماهير شعبنا لهذا الاستثمار الاجنبي والداخلي هي في حقيقة الامر مقاومة الامة العربية للفناء ودفاعها عن بقائها ووجودها.

الوحدة والاشتراكية - بالامس كنت أتحدث في بيروت أمام حشد من الجامعيين، فوجه الي بعضهم هذا السؤال: لماذا نهتم الان او منذ الان بالاشتراكية قبل ان نحقق الوحدة العربية. ألا يكون النضال الاشتراكي عائقا في سبيل توحيد أقطارنا ومبعثرا لجهودنا، أليست الوحدة، عندما تتحقق، كفيلة بتحقيق كل ما ينشده الشعب العربي من حرية وعدالة ورخاء؟ ولا بد لي أن أذكر ان هذا السؤال كان يطرح علينا قبل عشر سنوات على شكل آخر من الحكام وأحزابهم وأنصارهم، اذ كانوا يسألون عن مبرر العمل للاشتراكية وللوحدة العربية قبل ان يتم التحرر من الاجنبي.

وقد أجبت الجامعيين في بيروت بأن الوحدة العربية ليست عملية سياسية ومفاوضات واتفاقات تقوم بين الحكومات بل هي عملية ثورة ونضال يقوم بها الشعب لانه وحده محتاج اليها، مخلص في طلبها، ولذلك فان النضال في سبيل الوحدة العربية لايكون واقعياً ومجدياً الا اذا امتزج بنضال جماهير الشعب العربي في سبيل حقوقها الحياتية ورفع مستوى معيشتها. ويجب ان نعلم ان اعداء الوحدة الكثيرين هم الاستعمار واسرائيل التي لم توجد الا لتعطيل الوحدة وعرقلتها، والمصالح الرجعية الداخلية وكل ما في مجتمعنا من امراض وعصبيات وجهل وتأخر. ولا يمكن التغلب على هذه الكثرة المخيفة من الاعداء بالعمل الحكومي وحده، خاصة اذا عرفنا ان الحكومات ما زالت في اكثرها ممثلة لهذه المصالح المعادية للوحدة. ولا بد

اذن من ان ينهض بعبء الوحدة شعب بكامله يرى فيها خبزه اليومي وتحرر وطنه من الاجنبي ويستميت بالتالي في طلبها لانها سبيل حريته وكرامته الانسانية.

فعندما ربطنا الوحدة بالاشتراكية لم نتعسف ولم نرتجل، بل وجدنا في ذلك السبيل الوحيد لكي تصبح الوحدة في حياتنا حقيقة حية متحركة، يطالب بها كل عامل عندما يطالب بخبزه وبزيادة اجره وبالدواء لابنائه، وعندما يطالب كل فلاح فقير ومظلوم باسترداد حقه في انتاجه ويرفع الظلم والاستعباد عن كاهله. هكذا جعلنا الوحدة العربية مطلباً حياً واقعياً يدخل حياة الفرد الشعب العربي في ظروف حياتهم اليومية وفي ابسط شيء في حياتهم وفي حاجتهم المادية.

نهضة مصر من ارادة **الشعب** - ألم ترو أيها الاخوان الى هذه النهضة في قطرنا الحبيب مصر، كيف حاول السياسيون والمتزعمون الى جانب الاستعمار المجرم عشرات السنين عزله عن الامة العربية وعن قضيته الحقيقية ومصلحته الواقعية. حتى اذا ارتفع كابوس الاستعمار وتطهرت ارض مصر من فساد الدخلاء والاجانب ومن عبث المستثمرين الدخيلين، جاء الاندفاع للفكرة العربية عفوياً، سهلاً، بسيطاً، لان العروبة لاتستيقظ الا في جو النضال وعندما يسترد الشعب شعوره بمسؤوليته وكرامته.

وليس ما حدث في مصر من قبيل المصادفة وليس هو عمل افراد، وان كان لهؤلاء الافراد الذين قاموا بالثورة في مصر فضل كبير ان.هذا الرجوع الى الطريق الصحيح كان من وحي الشعب ومن ارادة الشعب ومن هذا الجو النظيف السليم الذي تحقق لمصر بعد ان تغلبت على الاستعمار وعلى الفساد.

اننا مع استبشارنا باتجاه رجال الثورة الجديد، نرى من الواجب ان نطالبهم بالمزيد من الجرأة في هذا الاتجاه، وليثقوا بأن كل خطوة بخطوتها في طريق الوحدة العربية والعمل الموحد للقضية العربية اذا كانت ستكلفهم بعض التضحيات الآنية المحلية، فانها ستفجر امامهم مقابل ذلك امكانيات دفينة في الشعب العربي قد تبلغ حد المعجزات.

النضال في سبيل القضية العربية الواحدة - ان الشعب العربي يثبت في مختلف

اقطاره، في نضال المغرب الدامي، في نهضة مصر وفي وثبة الاردن، وحتى في العراق الذي لم يجرؤ حكامه ان يتركوا المجال لخروج افراد قلائل يمثلون المحامين في مؤتمرهم في القاهرة والعمال في هذا المؤتمر، وهذا دليل على ان غضبة الشعب العربي في العراق قوية جداً حتى أخافت الحكام الاذلاء الى مثل هذا الحد.

وانني في نهاية هذه الكلمة احمل اخواني اعضاء الوفود النقابية تحية الاعجاب والتفاؤل والعهد المقيم على النضال المستمر في سبيل قضيتنا العربية الواحدة التي لانفرق فيها بين ما هو اجتماعي اقتصادي وبين ما هو قومي لان نجاح هذه القضية رهن بابقائها وحده . . .

آذار ١٩٥٦

نظرتنا للرأسمالية
وللصراع الطبقي

لا أحسب ان ثمة حاجة للتفصيل في ان كل نظرة الحزب وما كتب خلال هذه السنوات تفيد اننا رفضنا منذ البدء ونهائيا النظرة الرأسمالية، او اننا رفضنا كل مفهوم يجعل الاشياء اعلى من الانسان لانه هو القيمة العليا في نظر حزبنا والرأسمالية بجملتها قائمة على العكس.

ليست الرأسمالية فلسفة انما هي واقع: انها تنازل الانسان وتراجعه امام الاشياء التي خلقها والتي أبدعها وأنتجها. واذا فُهم من الرأسمالية التسليم بالحرية التي لاحد لها للتملك الفردي ولما ينتج عنه من نتائج، وان هذه الحرية بهذا الشكل مقدسة لايجوز للانسان او للمجتمع او للدولة ان تمسها او تعرقل سير نظامها، فهذه نظرة لا يوجد اليوم من يدافع عنها حتى في الدول الرأسمالية ذاتها، اذ أن هذه الدول أو المجتمعات الرأسمالية نفسها أخذت تعترف اخيرا بأن التملك الفردي المطلق من كل قيد ليس مقدسا ولا يعطي دوما النتائج الصحيحة ولا ينسجم دوما مع المصالح العامة وانه لابد من تدخل الدولة ومن ان يحسب لمصلحة المجتمع حسابها. اما الذين يريدون ان يفهموا من الرأسمالية بل الاشتراكية التي ننادي بها نحن والتي تنادي بها شعوب كثيرة: اشتراكية حية واقعية غير مصطنعة لا تريد ان تبدل مرضا بمرض ولا تريد ان تقضي على صنم الرأسمالية لتقيم مقابله صنم المجتمع الذي يستعبد الافراد ويقتل فيهم الاندفاعات الخيرة. فهذه هي الاشتراكية، الاشتراكية التي تعتبر الانسان كما قلنا القيمة العليا وانه يبقى دوما مسيطرا على الاشياء التي خلقها وانه بالتالي يجب ان توجد تلك الصيغة الحقيقية الحية الحكيمة التي تقضي على الاستغلال بكل اشكاله دون ان تقتل حرية الافراد.

وأتطرق بهذه المناسبة الى سؤال عن الطبقية وهل يؤمن بها الحزب أم لا؟

ليس في فكرة الحزب طبقية بالمعنى الذي تفهمه الماركسية ولكن فيه طبقية. أي أننا نعترف بها وان كنا لانتبنى المفهوم الماركسي لها. فالماركسية أقرت حقيقة

واقعة عندما قالت بأن الصراع في هذا العصر هو بين الطبقات وجعلته بهذا قانون التطور التاريخي وهي محقة في تعليلها واستقرائها لمميزات هذا العصر. اذن هناك صراع بين الطبقات لايجوز تجاهله، الا ان الماركسية انطلقت من نظرة وجعلت هذا الصراع على النطاق العالمي الاممي وتجاهلت الى حد بعيد اذا لم نقل انها تجاهلت تماماً، هذا التكوين التاريخي الحي للقوميات حين اعتقدت بأن الروابط التي تجمع الطبقة العاملة والمستغلة في جميع بلدان العالم هي اقوى بكثير من الروابط التي تجمع طبقة معينة في امة معينة بقوميتها.

مما لا شك فيه ان هناك ضمن الامة الواحدة صراعاً بين الطبقة المالكة لوسائل الانتاج والطبقة المحرومة منها، الا انه حتى في نطاق الامة الواحدة لايمكن ان ينظرا الى هذا الصراع بالشكل الحرفي الضيق الذي صورته الماركسية. فنحن اولاً رفضنا الامية بشكلها الماركسي وقلنا بتعاون حر بين الشعوب الاشتراكية الحرة، اذن فنحن نعترف بصلتنا - صلة الشعب العربي - بالشعوب الاخرى وبامكان الالتقاء على صعيد واحد.

فنظرتنا اقرب الى الصواب والى الواقع حين جعلنا التعاون بين الشعوب تعاوناً حراً، بين شعوب اختارت النظام الاشتراكي الحر ايضاً اما في داخل الوطن العربي فنحن طرحنا المشكلة على شكل مختلف: طرحنا المشكلة القومية كوحدة لاتتجزأ ولم نأخذ منها جزءاً فقط كما فعلت الماركسية حين اخذت الناحية الطبقية، ناحية الصراع بين المالكين والمحرومين. مشكلتنا اوسع من ذلك واعمق بكثير: مشكلة وطن مجزأ مستعمر في بعض اجزائه، والتجزئة هي اكبر عائق في طريق نهضته، وهي مشكلة وطن متخلف في شتى النواحي: في الفكر والاقتصاد والسياسة، وفي كل شيء، ويحتاج الى ان نبني فيه كل شيء من جديد. لذلك جعلنا الشعب العربي في صف والذين يعادون ويعرقلون القضية القومية ويقفون في سبيلها، جعلناهم في صف آخر. فليس فقط الرأسماليون والاقطاعيون هم أعداء الشعب العربي، بل ايضاً هم السياسيون الذين يتمسكون بالتجزئة لانها تفيدهم شخصياً، وليس هؤلاء فحسب بل اولئك الذين يسايرون الاستعمار بشكل من الاشكال، وأولئك الذين

يعادون الفكر والعلم والتطور والتفتح. والتسامح والذين يقاومون اويحولون دون تحرر أمتنا، وضعناهم في صف ومجموع الشعب العربي في صف آخر. . فنحن اذن لانستطيع ان نقول اننا قسمنا امتنا الى طبقات اوطبقتين: ان رجل دين مثلاً يبذر بذور التعصب وهو فقير لا يملك ثروة يسيء الى الشعب بقدر ما يسيء الرأسمالي المستغل للعمال والاقطاعي للفلاحين. .

ان على هذه الوحدة في قضيتنا وهذه النظرة القومية التي ترفع مشكلتنا الى صعيد أرقى واصدق من الصعيد الاقتصادي البحت ان لا تنسينا ان المشكلة الاجتماعية هي في اللب والصميم، واننا اذا تساهلنا اي تساهل بحجة القومية مع طبقة المستغلين والرجعيين نكون قد افقدنا نضالنا العصب الفعال. فهذا الصراع بين جمهور الشعب المحروم وبين الطبقة المستغلة والمستعصية على كل تطور وكل استجابة الى المصلحة القومية ليس فيه الا الخير، ويجب أن لانخاف منه اذ منه تخرج النهضة القومية. من تحرير الشعب المحروم يتكون المواطن العربي الصالح الذي يستطيع ان يفهم قوميته وان يحقق قيمتها لان القومية تبقى مجرد الفاظ مع الظلم والفقر والحرمان.

فالمشكلة ليست سهلة كما تظنون، ان علينا، هنا كذلك، ان نبقي التوتر بين طرفي المشكلة. ولنحذر دوماً ان تضيع الفكرة القومية وتلتبس مع المصالح الطبقية المجرمة حين يتغنى اصحاب هذه المصالح كذباً وبهتاناً بالمصلحة القومية لينقذوا جلودهم، واقوالهم عندما يحاولون ان يؤثروا علينا: ألسنا ابناء شعب واحد؟ كل هذه الحيل الخبيثة يجب ان يبقى المناضلون فوقها وبمنجاة من التأثر بها. ان مفهوم القومية الشائع سواء في بلادنا او في بلاد الغرب هو في معظمه مفهوم سلبي زائف تدخله المصالح الرجعية والاستغلالية، فعلينا ان نعري هذه القومية الزائفة من الزوائد السلبية الخبيثة، ونحن لانخشى كثيراً من هذه التعرية لانه يبقى دوماً شيء قد يكون بسيطاً جداً ليس له وزن مادي ولكنه شيء أساسي جداً، هذه هي القومية: انها ليست غروراً او استعلاء وليست تعصب أمة ضد الامم الاخرى، انما غريبة تماماً عن كل مصلحة مادية لفئة من الفئات في الامة، وهي الانسانية بالذات متحققة في واقع

حي هو الامة . . .

اذن نحن لا نعترف الا بما في القومية من ايجابي يبقى بعد طرح كل العصبيات وكل الامور السطحية، انه عبارة عن الرابطة الروحية والتاريخية بين افراد الامة الذين طبعهم التاريخ بطابع معين ولم يغلقهم على الانسانية وباقي الامم وانما اعطاهم لوناً خاصاً وتجسيداً خاصاً لهذه الانسانية لكي يكونوا جزءاً فعالاً منها ومبدعاً ومتجاوباً معها. هذه هي قوميتنا، لاتقوم على الحقد تجاه الاقوام الاخرى ولاتقوم على الحقد ضمن ابنائها. فالصراع الذي اقمناه في داخل امتنا ليس موسوماً بالحقد وانما هو موسوم بالحق والخير. والحب في حقيقته قاس لاننا عندما نحب امتنا وافراد شعبنا ونريد لهم المستقبل الزاهر والحياة الكريمة، لا نتهيب من استعمال القوة ضد كل الذين يحولون دون هذا الارتقاء والنمو. فأصحاب المصالح المادية والمعنوية من حكام وغيرهم الذين يعرقلون وحدة الامة يجب ان يناضلهم الشعب نضالاً عنيفاً وحاسماً.

عام ١٩٥٦

الطبقة العاملة

طليعة الكفاح العربي

ايها الاخوة[1]

احمـد الله على ان حقق لي حلمـاً كان يراودني منـذ الصبـا ، وهـو ان ارى هذه الارض العربية الكريمة ، ان ارى هذا الشطر الغالي من وطننا الاكبر.

هذا الحلم نشأ عندي ايام الدراسة ايام جمعتنا الدراسة من كل قطر عربي وخاصة من اقطار المغرب العربي فتعرفت منذ سنين طويلة الى النفسية النضالية القوية التي يتصف بها شباب المغرب العربي عامة . وكنت منذ ذلك الحين لا يخالجني شك في ان المغرب العربي يعاني تجربة انسانية فريدة من نوعها غنية بالمعاني ، وانه سيقدم الى العـروبـة وإلى الانسـانيـة ثمار هذه التجربة ، فيغني بها النهضة العربية الحديثة ويغني بها التراث الانساني العام .

كنـا طلابـاً نتـداول في شؤون وطننـا وفي مستقبلنـا ، كان يساورنا قلق وطموح بأن نسهم في الارتفاع بمستوى القضية العربية ، وفي اخراجها من ذلك الطور الابتدائي الغامض المعالم الفارغ المحتوىٰ ، الذي طبعها به رجال طبقة وجيهة تصدت لزعامة النضـال ضد الاجنبي قبـل عشرات من السنين ، ولم تكن هي المهيأة فعلاً لان تمثل روح امتنا وان تمثل طموح بيئتنا وان ترسم الخطوط لمستقبلنا العظيم .

فكان قلق الشباب اذ ذاك الا يكتفوا بذلك المستوى المنخفض الذي يترك معظم امكـانـات الشعب العـربي مهملة ومهدرة لانه لم يكن ثمة تجاوب مخلص بين طبقة الزعماء وبين جماهير الشعب .

فظهر لنا اول خيط من خيوط النور ، من خيوط الخلاص ، ظهر لنا ان الخلاص لن يكـون الا على يد الشعب ، على يد الكثـرة السـاحقة من ابناء شعبنا ، على يد الكثرة الكـادحـة والمظلومـة المستغلة ، ليس لأنهـا اكثـريـة فحسب بل لأنهـا تعاني الظلم

---

(١) حديث القي في الـدار البيضـاء بدعـوة من جريـدة «الطليعـة» النـاطقـة بلسـان الاتحـاد المغربي للشغل بمناسبة احتفالات اول آيار .

والاستغـلال وفقـدان الحـرية وجرح الكرامة في جميع النواحي : الانسانية والقومية . اذن فظـروفهـا واوضـاعهـا وقـوتهـا قد هيأتهـا لان تكـون هي محرك التاريخ في هذه المرحلة ، لان تكون هي المنقذة للامة ، لان تكون طليعة الامة المناضلة وصورتها الصادقة .

فلم يأت تفكيـرنـا الاشتـراكي من الكتب ، من الأفكـار المجـردة ، من النـزعـة الانسانية العامة ، النابعة من مجرد شعور بالشفقة ، وانما اتى من صميم الحاجة ـ اتى بدافع الحاجة الحيوية ـ لننقذ امتنا من الفناء ، لان معركة الامة العربية مع مستعمريها واعدائها كانت معركة بقاء أو فناء . فكان التفكير الاشتراكي وكان اكتشاف دور الطبقة العاملة العربية في هذه المرحلة التاريخية من حياتنا بدافع الدفاع عن البقاء .

لطـالمـا تألمنـا وشعرنا بالخجل ، وشعرنا بالامتعاض عندما كانت القيادة التقليدية القديمة تسبغ على قوميتنا صفاتها هي ، وروحها هي :
صفات الطبقة المترفة وروح الطبقة الشائخة الهرمة ، فكانت القومية العربية والكفاح القومي في ذلك الحين على ايدي اولئك الزعماء الذين كانوا يمثلون عصراً قد مضى ويفقدون قوة التأثير وقوة الجاذبية لجماهير الشعب ولجمهور الشباب ، وكانت القضية القومية التي هي قضية حياة أو موت ، في مستوى متخلف لا قيمة للفكر فيه ولا صلة له بالعصر الذي نعيش فيه عدا عن مظهره المنفر ، مظهر القومية المتغطرسة ، القومية السلبية ، التي لا تشعر بنفسها الا اذا خاصمت غيرها .

وكنا نشعر بأن هذا ليس حقيقة قضيتنا وليس حقيقة امتنا . وكان لا بد ان ننتقل الى مستـوى يتنـاسب مع العصـر الـذي نعيش فيـه ، مع امكـانـات شعبنا العظيم وشبابنا المنفتح للنور .

فكانت محاولة اسهم فيها جيل بكامله لا ينحصر في قطر من الاقطار العربية وانما هو موجود في كل قطر . هذه المحاولة اسهم فيها الشباب المثقف واسهمت فيها طبقة العمال الكادحة المناضلة ، واذا بقضيتنا تخرج من سجن الغموض والفراغ وتمتلىء بالحياة ، بالواقع الحي ، ويدخلها الوضوح وبالتالي تستطيع ان تتحقق وان تنتصر .

أيها الاخوة ،

ان القضية القومية كل لا يتجزأ فهي حياة الشعب المادية وهي حياته الروحية، هي مطالبه الاقتصادية العادلة ومطالبه الاجتماعية العادلة، وهي حقوقه ومطالبه القومية المشروعة، هي خبزه ورفاهه وهي استقلال وطنه وسيادته، وهي وحدة وطنه وتوحيده من بعد التمزيق والتجزئة

فعندما ننظر الى قضية شعبنا بهذا المنظار الشامل الحي الذي لا تعسف فيه ولا اصطناع، لأن المطالب القومية هي حقيقية وواقعية مثل طلب الخبز والعيش، عندما ننظر الى هذا الترابط بين هدف التحرر وهدف العدالة الاجتماعية وهدف الوحدة القومية الشاملة، عندما ننظر الى ذلك كله كأنه اوجه متعددة من شيء واحد، عندما نستطيع ان نوجه نضال الشعب في الطريق السليم المثمر الذي لا يُبقي امكانيةً من امكانيات شعبنا الا ايقظها واستفاد منها. فملء فكرة القومية العربية بالمحتوى الوحدوي الى جانب المحتوى التحرري والاجتماعي هو الذي يفسر الى حد كبير تلك الخطوات التي قطعناها حتى الآن في طريقنا الطويل نحو حرية امتنا ونحو بناء مجتمعنا الجديد ونحو بلوغنا المستوى الذي يؤهلنا لتحقيق رسالتنا بين مجموعة الامم.

انكم تعلمون، ولا شك، كيف كان النضال التحرري متقطعاً، فاقداً بعض وضوحه، وكيف كانت الوحدة العربية على الاخص فكرة نظرية خيالية تقال دونما ثقة بقدرتها على التحقق، تقال اما بدافع التقليد، او بدافع العاطفة فحسب.

ولكن عندما سُلّمت قضية التحرر القومي، وعندما سلمت قضية الوحدة القومية الى جماهير الشعب العربي وربطت هذه الجماهير بين مطلب التحرر والوحدة وبين كفاحها اليومي من أجل الرزق وبلوغ مستوى كريم من العيش - عندها دخلنا في طور التحقيق، عندها امكن ان نحقق الانتصارات على الاستعمار، عندها لم تعد الوحدة العربية فكرة خيالية. حدث ذلك كله لاننا سلّمنا هذه الاهداف الغالية إلى اصحابها، إلى الطبقة الكادحة.

ان مطلب الوحدة العربية ظل زمناً طويلاً ضحية الجهل، ضحية الغموض، ضحية الالتباس... وكان يتبناه ويستغله أبعد الناس عن الاخلاص له او الايمان

به، فكان حجة وذريعة او كان ستاراً لمآرب غير مشروعة. كان الاستعمار أحياناً يختبىء وراء مشاريع للوحدة وكانت الطبقة الاقطاعية تغتصب زوراً وبهتاناً هذا الشعار لا لتحققه بل لترد به على مطالب الشعب الاجتماعية، لتحارب به الثورة الاجتماعية. فكانت الوحدة في ذلك الحين مشبوهة ومظلمة الى أن دخلت في حياة الجماهير. ولكن يجدر بنا ان ننظر إلى هذه الحقيقة، يجدر بنا بعد ان مررنا بتجارب كثيرة وفضحنا بالتجربة كذب الطبقة الرجعية في تبني الوحدة وان لا وحدة مع الرجعية، يجدر بنا ان ننظر الى حقيقة أخرى، وهي ان لا تقدمية مع التجزئة. فاذا كنا في وقت مضى قد كفرنا بوحدة الرجعيين والاستعماريين، فلم يعد جائزاً بعد ان استرد الشعب قضيته واستلمها بكلتا يديه لم يعد جائزاً ان نتخوف من الوحدة او نظن بها الظنون، لاننا بمقدار ما نتفهمها ونقدم عليها لنتبناها ونعجل في سيرها نبعد عنها الاستغلال.

فالوحدة يطلبها كفاح العمال قبل كل شيء ـ وكفاح العمال يطلب وحدة على نطاق عالمي، فكيف لا يطلبها على نطاق قومي ـ هذه الوحدة ان دخلها العمال، ان دخلتها الطبقة الشعبية الكادحة يخرج منها كل رجعي وكل مشبوه.

فالقضية قضيتنا فلا يجوز ان نقف منها موقف المتفرج من بعيد لاننا اذا لم نصنعها، نحن الشعب، بأيدينا فمن ذا الذي سيصنعها؟

ولقد كانت وحدتنا القومية موضع الهجوم والتآمر الاستعماري والاجنبي عامة منذ زمن طويل. لان الاستعمار يدرك قبل غيره ما هو مفعول الوحدة اذا ما تحققت، وإن تحققها نهاية للاستعمار في ارضنا ـ لا بل نهاية للرجعية وللتخلف ولكل ماهو ميت غير جدير بالحياة ـ فكانت الهجمات والمؤامرات توضع دوماً في طريق الوحدة، ومن ادرى منكم بذلك، انتم ابناء المغرب العربي عامة وابناء المغرب الاقصى خاصة، من ادرى منكم بذلك الانقطاع، بتلك الحواجز الكثيفة التي وضعها الاستعمار بينكم وبين اخوانكم بالمشرق وحتى بينكم وبين اخوانكم في المغرب العربي نفسه. فالوحدة اذن ليست ترفاً نطلبه بعد ان نحصل على المطالب الجوهرية الضرورية، ليست شيئاً يأتي في المستقبل، او من نفسه بصورة آلية بعد ان نكون قد حصلنا على

استقلالنا وحريتنا وبعد ان نكون قد حققنا الديمقراطية والعدالة.

الوحدة ايها الاخوة داخلة في كل هذا، وهي شرط اساسي لكي نحقق كل هذا، وهي كالاستقلال وكالعدالة الاجتماعية ومطالب الطبقة الشعبية المشروعة، هي ايضاً تحتاج الى معركة قاسية، تحتاج إلى نضال، إلى انتزاع.

انها لا تأتي من نفسها بل علينا ان نكافح من اجلها في نفس الوقت الذي نكافح فيه من اجل حياة لائقة لشعبنا. لانها هي الواسطة لكي يتحقق الظفر لنضالنا التحرري والاجتماعي، وهي الضمانة ايضاً لكي نحافظ على الحرية لوطننا وعلى المكتسبات الشعبية لجماهير شعبنا.

ان المستوى الجديد الذي حاول جيل الشباب العربي في كل قطر ان يرفع اليه القضية العربية في المشرق والمغرب، ويضع هذه القضية في العصر الذي نعيش فيه - اي في عصر المذاهب الاجتماعية، في عصر العقائد، اذ لم يعد جائزاً ان تبقى قضية الامة العربية مرتجلة او تبقى اجزاء مفككة لا رابط بينها ولا منطق يجمعها - هو هذه الصيغة الجديدة التي لا نعتبرها صيغة نهائية ولا نعتبرها صيغة كاملة، اذ ان حياتنا يجب ان تتجدد دوماً وان تنمو وتتعمق دوماً، ولكن على كل حال هي صيغة نقلت النضال العربي من مستوى ضعيف فاتر مفكك الى آخر جديد يتصف بالمنطق والترابط والوضوح ويسمح بالتنظيم. هذا المستوى هو المستوى العقائدي الذي يتيح لقضية أمتنا ان تظهر بشكل فكري متناسق.

وهذه الصيغة الجديدة هي غالباً ما يعبر عنها بالقومية العربية وان كان التعبير لا يزال غامضاً وما يزال يتسع لتعاريف شتى، الا ان التيار الشعبي الذي يحرك الجماهير العربية في كل قطر عربي، يفهم ويدرك تماماً ما هو المقصود بالقومية العربية، ويدرك انها هي الاشتراكية، يدرك انها هي الديمقراطية، ويدرك انها قومية انسانية تتلافى اخطاء الماضي وتصلح كل ما كان في الماضي سبباً للتفرقة داخل امتنا ومجتمعنا.

هذه القومية ليست وقفاً على العرب فحسب وانما هي صورة لانسانية جديدة، أي اننا نؤمن بأن لكل امة في العالم الحق بأن يكون لها شخصيتها الحرة المستقلة. وان يكون هناك انفتاح بين القوميات وان يكون هناك تضامن في الكفاح التقدمي، وان

يكون هناك انسانية جديدة تقوم على قوميات تقدمية حرة متضامنة لا استعمار فيها ولا عنصرية ولا تمييز.

ففكرة القومية العربية اذن لا تنحصر بالعرب وانما لها نزوع انساني . وفكرة الرسالة في هذه القومية تربطها بالانسانية عامة وتقيها من التردي في المفاهيم السلبية للقومية - كالمفهوم العنصري والمذهبي وكل تعصب وضيق او شهوة للسيطرة - وتذكرها دوماً بأن امامها رسالة انسانية لا يمكن ان تؤدىٰ اذا لم يكن الشعب العربي في الداخل ممارساً لحريته، اذ لا شيء ذا قيمة يمكن ان يصدر عن القسر والضغط والاكراه، فالحرية هي منبع الفضائل وهي التي تميز الشعب الحي، ولذلك فان الديمقراطية التي يكافح العمال في سبيلها ليست مطلباً عمالياً فحسب وانما هي مطلب قومي لكل جماهير الشعب العربي، لكي نحفظ لقوميتنا العربية ونهضتنا الحديثة المعنى الانساني الايجابي البعيد عن كل تعصب وكل سلبية والذي يوجد السلام في داخل مجتمعنا ويسهم في ايجاد السلام في العالم: هذا المفهوم الانساني، هذه الملامح الايجابية لقوميتنا يجب ان نحرص عليها كل الحرص، وأعود فأقول بأن المغرب العربي عليه مسؤولية تجاه الامة العربية، وهو مطالب بأداء قسم كبير في معركة القومية العربية، خاصة في تجربته الديمقراطية وفي فهمه للديمقراطية وفي كفاحه المرير الطويل من أجل الحرية والديمقراطية، من أجل المساواة الانسانية، من أجل الكرامة الانسانية.

لقد عرف المغرب العربي ما لم يعرفه المشرق العربي، عرف ألماً عميقاً، اذ ان الاستعمار دخل اليه ليس بالجيوش فحسب وانما بالهجوم والغزو البشري لكي يفنىٰ شعبنا في المغرب ويحل محله شعب آخر، وصمد الشعب العربي لمعركة الافناء هذه، واستطاع من خلال هذه المعركة الشاقة ان يرجع الى نفسه وان يعيد النظر في كثير من التقاليد التي استلمها والانظمة التي كان يرتضيها والقيم والمفاهيم القديمة لكي يدافع عن بقائه امام شعب غاز متحضر. ففي المغرب العربي وقفت الامة العربية ممثلة في الشعب المغربي وجهاً لوجه امام الحضارة الاوروبية فكافحت وصمدت وأعطت البرهان على حيوية امتنا وقدرتها على التجدد واعادة النظر في كثير

من شؤونها لكي تصحح الاخطاء الماضية وتجدد الحاضر الذي هي فيه.

ان هذه التجربة الواسعة العميقة التي يخوضها الشعب العربي في المغرب وتونس والجزائر خاصة، والتي تبدو ثمارها وعلائمها ومميزاتها منذ الآن بأنها نظرة جديدة الى الحياة وتقدير اساسي للحرية وللديمقراطية وايمان لا يتزعزع بالمساواة الانسانية. .

كل هذا يمكن ان يؤديه المغرب العربي الى النهضة العربية عامة لان تجربة المشرق العربي لم تكن بمثل هذا العمق، فلقد اراد الله ان يجعل اقطارنا متكاملة يكمل بعضها بعضاً لكي تأتي النهضة العربية الحديثة كاملة الجوانب ولكي تكون جديرة بماضي العرب، وتكون نهضة أصيلة تفيد شعبها وتفيد الانسانية.

عام ١٩٦٠

الفهرست

الباب الثالث
البعث العربي والانقلاب

الباب الرابع
الرسالة العربية الخالدة

الباب الخامس
في القومية العربية

الباب السادس
حول وحدة النضال العربي

الباب السابع
في الاشتراكية العربية

صَدَر للقائِد المؤسِّس



١ ـ في سبيل البعث.
٢ ـ معركة المصير الواحد.
٣ ـ نقطة البداية.
٤ ـ البعث والتراث.
٥ ـ أحاديث في مدرسة الاعداد الحزبي (١٩٧٥ ـ ١٩٨٠)
٦ ـ في السياسة العربية.
٧ ـ الشعب العربي في معركة التحرير.
٨ ـ النضال ضد تشويه حركة الثورة العربية.
٩ ـ البعث والوحدة.
١٠ ـ البعث والاشتراكية.
١١ ـ البعث والعراق.
١٢ ـ في القومية والوحدة والاشتراكية.
١٣ ـ ذكرى الرسول العربي.
١٤ ـ مختارات من اقوال موسس البعث.
١٥ ـ وحدة مصر وسوريا.
١٦ ـ في السلوك الحزبي.
١٧ ـ المرحلة الجديدة مرحلة تأسيسية.
١٨ ـ البعث وتحديات المستقبل.
١٩ ـ البعث طاقة حية متجددة.

٢٠ ـ أنسانية نضال الامة العربية .

٢١ ـ ثورية الوحدة العربية .

٢٢ ـ الحركة الفكرية الشاملة .

٢٣ ـ المؤامرة والرد التاريخي .

٢٤ ـ معالم الاشتراكية العربية .

٢٥ ـ البعث القومي في الامة العربية (ميشيل عفلق وآخرين) .

٢٦ ـ حول القومية والاشتراكية (ميشيل عفلق وآخرين) .